لجنة
التعريف بالإسلام
يصدرها
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
بالقاهرة

الرسالة الخالدة

تأليف
الأستاذ عبد الرحمن عزام

يشرف على إصدارها
محمد توفيق عويضة

الكتاب السادس عشر
١٣٨٤ ـ ١٩٦٤

اهداءات ٢٠٠٣

أسرة أ.د/على عبد الواحد وافى

القاهرة

مقدمة الطبعة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على عباده الذين اصطفاهم لحمل رسالته وأداء أمانته .

ان هذا الكتاب وليد المصادفة ، فلم يكن تأليفه مقصودا ، وانما دعا الى تناول موضوعاته حالة الشذوذ والاضطراب التى سادت العالم أثناء الحرب الأخيرة ، والرغبة فى الكشف عن أسباب هذا الاضطراب العالمى ، ومحاولة ايجاد علاج له بعد أن تبين أن هذا العلاج غير ميسور فى هدى الدعاوى والمبادىء السارية فى هذا القرن ، والتى أوحت بها المدنية المادية الحديثة .

فكلما قلبنا الرأى فى هذه الدعاوى ، وسايرنا تنفيذها الواقعى فى أوربا وأمريكا ، ازداد الشك فى نفوسنا ، وظهر عجز هذه الدعاوى عن حل المعضلة وعن وفائها بحاجة الناس وتوالى الحروب المدمرة ، وتذبذب الأقوام بين هذه الدعاوى أكبر شاهد على ذلك . فلابد اذن : من النظر بجد لالتماس الهدى فى غيرها . فهل هو فى الرسالة الخالدة التى تعاقب رسل الله على الدعوة اليها وجاء بها ابراهيم وموسى وعيسى ومحمد ؟ ذلك ما يريد هذا الكتاب الكشف عنه .

واذا نظرنا فى الأديان السماوية جميعها نجدها تعبر عن حقيقة واحدة مهما تباينت الأشكال والأوضاع ، أساسها الايمان والاحسان . وهذا المعنى واضح فى القرآن الكريم فى الآيات التالية وأمثالها :

« قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » .

« ملة أبيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل .. »

« ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولاهم يحزنون » .

فالآيتان الأولى والثانية اعتبرتا أتباع هذه الرسالة الخالدة مسلمين ، سواء أجاءوا بعد محمد أم قبله ، والآية الثالثة جمعت الناس فى رحمة الله على أساس الايمان والعمل الصالح . فرسالة الله اذن فى نظر المسلمين واحدة يتتابع على حملها الرسل والأقوام .

والشريعة المحمدية بوصفها نظاما عالميا هى آخر تطور لهذه الرسالة ، وهذا الكتاب هو محاولة متواضعة لايجاد حل لمشكلات هذا العالم على ضوئها ، وهو أيضا محاولة لبيان أسس الدعوة المحمدية فى السياسة والاجتماع والحرب والسلم والعلاقات بين الدول والشعوب والطبقات والأفراد ، وبيان حاجة الحضارة الى سند من القوى الروحية والمعنوية يمسكها ويوجهها للخير العام ويحد من حوافز السيطرة والأثرة والظهور .

والعرض الواضح فى بعض النواحى لوجهة النظر الاسلامية انما قصد به الى التعاون والقربى لا التنابذ والتفرقة ، وأن يجد النشء الجديد — المتعطش الى المعرفة والطالب للهدى ، من المسلمين وغير المسلمين — مادة للتفكير وسبيلا الى رأى عالمى مستقيم بعد هذه الحروب المدمرة التى أثارت اضطرابا لا نظير له ، التبس فيه الحق بالباطل « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » .

وقد شرف الله العرب بأن جعل منهم آخر رسله ، واستكمل فيهم

رسالته الخالدة ، فحملهم الأمانة ، وعليهم أن يكونوا المثل والقدوة فى سعة الصدر والنصفة والعدل والاخاء وحب السلم .

وانى لأرجو أن يكون الجيل الناشيء من العرب أهلا لحمل هـــذه الرسالة ، يمدون الحضارة والعلم بالسند الروحى الذى لابد منه لعالم جديد متضامن متعاون على تثمير خيرات الأرض ، مستظل بلواء الحق والعدل ، نافر من استخدام القوة ، متجه نحو دولة عالمية واحدة تباركها يد الله ويرعاها رضاه .

عبد الرحمن عزام

مقدمة الطبعة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم

فى مقدمة الطبعة الأولى ما فيه الكفاية من التعريف بمقاصد هذا الكتاب .

وقد تلقاه الناس فى البلاد العربية والبلاد الاسلامية بصفة خاصة بقبول حسن فترجمته حكومة الجمهورية الاندونيسية ونشرته فى البلاد المتكلمة بلغة الملايو ، كما ترجمته ونشرته رياسة الشئون الدينية فى حكومة الجمهورية التركية الى اللغة التركية ، ووضع المغفور له شيخ الاسلام حمدى أقسكى مقدمة مسهبة نفيسة للطبعة التركية عرض فيها موضوعات الكتاب ، ذكر فيها فضل الرسالة الخالدة على ما قرأ لأكابر علماء المسلمين ومفكريهم فى عرض صورة واضحة للاسلام فى العصور الحديثة . كما أن جهات أخرى اشتغلت بترجمته للفارسية والأردية والانجليزية فى ايران وباكستان وأمريكا ومصر .

كما اهتم بقراءته كثير من أهل العلم والأمراء والرؤساء وملوك المسلمين وبعثوا بكلمات طيبة مشجعة . وكان نقاد الكتاب حسنى الظن به فلم يتعرضوا لأمر جوهرى مما ورد فيه فجاء نقدهم أغلبه ثناء ورضا بما جاء فيه من مبادىء وصور للاسلام .

وقد انتفعنا بهذا النقد وأخذنا به فى هذه الطبعة .

ولقد ظهرت بعد الطبعة الأولى من هذا الكتاب دول اسلامية كبيرة استقلت بشئونها ، كما تحررت أخرى من النفوذ والسيطرة الأجنبية ،

فتحركت الآمال فى العالم الاسلامى لاحياء الشريعة ووضع دساتير للدول الاسلامية مستمدة من عقائد شعوبها التى تعد الآن بمئات الملايين .

لهذا شعرت بحاجة الجميع الى رأى فى هذه الأمور ، كى تكـون الدســاتير المتعددة لحاجات أقوام مختلفة موافقــة لأسس الشريعة ، فاستقصيت البحث فى الفقه والتاريخ الاسلامى ، واستخلصت من ذلك فصلا موجزا (فى الامامة ، والشورى والسيادة) ، أضفته لهذا الكتاب ، أرجو الله أن يعين على الهدى فى هذه الشئون .

ولما كانت رسالة محمد صلى الله عليه وسلم هى ثمرة الرسالات كلها وهدى للبشرية على مدى الدهر فقد دلت رغم الحوادث الكثيرة والتقلبات المتتابعة فى عالمنا الحاضر على أن ماجاء (بالرسالة الخالدة) لا يتغير بهذه الحوادث ، لأن الحق فيه حق على مدى الدهر وفى كل الأقوام والبلاد ، فان هدى الله هو الهدى وان فى الاسلام المثل العليا التى لا تغنى عنها آراء الناس وما يحدثون من مذاهب من حين لحين ، فمذهب المسلمين وطريقتهم للعمران والسلم والاخاء والعيش الكريم لا تزال المذهب الوسط الذى يصلح لكل العصور والأقوام (انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون)

عبد الرحمن عزام

(١)

في أصول الدعوة

تمهيد

منذ أكثر من عشر سنين دعتني محطة الاذاعة اللاسلكية المصرية تاريخ يتصل للتحدث على موجاتها ، وتركت لى اختيار الموضوع ، فاخترت الحديث عن أبطال العرب .

ولما نظرت فى أمر العرب قديما وحديثا ، وجدت أن بطل أبطالهم ، بل بطل العالم أجمع هو (محمد بن عبد الله) صلى الله عليه وسلم ، فابتدأت الحديث به ، فجاء الفيض بالسيرة العاطرة عن أبرز صفات شخصيته العظمى ، ولم أستطع العدول عنه الى من سبق أو من لحق ، فاستمر الحديث فيها يتتابع حتى خرجت من مصر سفيرا لها الى كثير من أقطار المسلمين (١) ، وانقطع ما بينى وبين الاذاعة ، ولم أكن قد تناولت الا بعض نواح لبطل الأبطال .

وقد وجد بعض العلماء أن ما تحدثت به من المذياع فى صفات الرسول الكريم جدير بالجمع والنشر ، فجمعه وطبعه فى كتاب سمى (بطل الأبطال أو أبرز صفات النبى محمد) .

ثم مضت أعوام عدت بعدها الى مصر ، وعادت هيئة الاذاعة المصرية فتفضلت مرة أخرى بالسماح باستئناف أحاديثى بها ، فلم أجد أحب الى نفسى من أن أرجع الى أبطال العرب ، وأن يكون جامع فضائلهم بل فضائل الانسانية كلها موضوع الكلام مرة أخرى . وكانت العناية هذه المرة بدعائم رسالة محمد وآثارها وانتشارها وما يستطاع تقديمه لعلاج مشكلات العالم على هداها ، ففاض الحديث واتسع له الوقت حتى أربى على ثلاثين محاضرة رأيت أن أجعلها أساسا لهذا الكتاب الذى أرجو أن ينفع الله به فى فهم (الرسالة الخالدة) لمحمد بن عبد الله فى عصر الظمأ الروحى ، والاضطراب السياسى ، والمادية القاسية .

---

(١) عينت وزيرا مفوضا سنة ١٩٣٦ فى ايران والعراق والمملكة العربية السعودية وافغانستان ثم نقلت فى سنة ١٩٣٩ الى تركيا وبلغاريا .

وقد يكون من توفيق الله أن يخرج البحث فى هذه الرسالة وأثرها : فى زمن الناس فيه أحوج ما يكونون الى هدى ينير لهم طرق العيش بسلام بعد أن دمرتهم الحروب والآلام .

فاذا كان هذا الكتاب شعاعا من قبس هذا الحق ينطلق فى دياجى هذا الليل البهيم الذى غمر البشرية ، واذا كان بسط مبادىء هذه الدعوة يهدى الى طريق وسط مستقيم بين هذه المسالك الوعرة المضللة التى تتخبط فيها شعوب البشر وتتصادم وتتطاحن لغير غاية واضحة ولا حجة ظاهرة .. فانى أرجو أن يكون ما بدا فى هذا البحث من فضل الله وفيض رسوله معينا على تبسيط مبادىء هذه الدعوة وبيانها بكيفية ترضى أهل الرأى وتنير طريق العامة .

شهادة الزمان والتجربة

وانى على ما أنا فيه من تقصير وتفريط لشاهد بالتجربة والنظر ! وقد عشت بين الفقراء والأغنياء ، محروم الجاه ومتمتعا به ، وخالطت الخاصة والعامة فى المشرق والمغرب ، وشاهدت آثار دعوات مختلفة ، ونظرت فى كتب أقوام كثيرة ، فلم أر بناء أقوى على الدهر ، ولا أرحب لجمع البشرية من ذلك البناء الذى بناه محمد صلى الله عليه وسلم !

حاولت أن تنال منه العرب والعجم ، واشتط به المتفقهون والمؤرخون والرواة وأهل الرأى ، ودعاة الفتنة ودعاة السياسة ، وتألب عليه الجاحدون والمكابرون وشوهوا ما شاءوا ثلاثة عشر قرنا ، فلم يستطيعوا أن يغيروا وعد الله « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » فقضى أمرهم جميعا وبقى أمر الكتاب قائما ، ولايزال ذلك البناء على مر الأعاصير سليما متينا رحبا ، من نزله كان آمنا .

حق من السماء او من الارض

هذه الرسالة الخالدة ان كانت من الله ، كما نعتقد نحن المسلمين ، فيكفى أنها من الله لتمتاز على كل دعوة من غير الله . وان كانت من (محمد) كما يقول المنكرون لنبوته ، فنحن على بينة من أمرنا ، ندعو الى سبيلها بالحكمة والموعظة الحسنة . ندعو المنكرين لينظروا فيها لا بوصفها دينا بل بوصفها نظرية تاريخية أتت بأفكار وشرائع فى السياسة والاجتماع والاقتصاد . فسيجدونها ، بصرف النظر عن معنى التدين ، أسسا صالحة

لنظام عالمى وسط بين المذاهب السياسية والاجتماعية والاقتصادية التى تتطاحن عليها الناس الآن ، وسيجدونها ، حتى على أنها من البشر ، أصلح الدعوات وأرشدها وأدناها الى مبادىء العدل والحرية والمساواة والاخاء وسيجدون طرائقها كمبادئها وسطا سهلا يلتقى الناس على قبولها بفطرتهم فيصلح بها الحال ويستقيم المجتمع ، ويعم السـلام بين الأمم ، وبين الطبقات فى الأمم .

فما هى دعائم هذه الرسالة ؟

وما هو هداها فى الاصلاح والتكافل الاجتماعى ؟

وما هى سياستها فى العلاقات الدولية ؟

وما هى نظرتها لأسباب الاضطراب العالمى ؟

وما هى وسائلها فى البحث عن سند روحى للحضارة ؟

وما هو النظام العالمى الجديد الذى يوافق روحها ؟

وما هو تاريخ انتشارها شرقا وغربا قديما وحديثا ؟

ذلك ما سنتناوله بعون الله تعالى فى أبواب هذا الكتاب وفصوله ، ونسأله عز وجل التوفيق الى الهدى والرشاد .

الـــدعامتـــان

تقوم الرسالة الخالدة على دعامتين ، ينهض عليهما بناؤها ، وتتفرع منهما فروعها ، ويصدر عنهما معتنقها ، هما :

الايمان ، والاحسان .

لقوله تعالى : « ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » . (٦٢ سورة البقرة)

وقوله : « بلى ، من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولاهم يحزنون » . (١١٢ سورة البقرة)

وقوله : « ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن ! » . (١٢٥ سورة النساء)

ففى هاته الآيات وأمثالها تحديد وجهة الاسلام ، وتلخيص الدعوة المحمدية : عقائدها وعباداتها وشرائعها

وفيها سر بساطتها وقوتها ورحابتها وسرعة انتشارها بين أهل الرأى والعامة من البشر .

الإيمان بالله الواحد

أصل الاصول ـ الدين فطرى ـ البحث عن الله ـ قصة اله زنجى ـ التوحيد اعظم أسس الدعوة المحمدية ـ هو السبيل للوحدة العالمية

أصل الاصول

الايمان بالله بارىء الكون وحده لا شريك له ، هو أصل الأصول فى الأديان السماوية ، فهو أصل الرسالة المحمدية .

هو الينبوع الذى أفاضه الله على قلب محمد عليه الصلاة والسلام بالهدى وحقائق الخير والسلام .

هو الصدى العميق لذلك الهاتف الذى ناداه من السماء والأرض : « اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الانسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الانسان ما لم يعلم » .

« يأيها المدثر ! قم فأنذر . وربك فكبر . وثيابك فطهر . والرجز فاهجر . ولا تمنن تستكثر . ولربك فاصبر »

« وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان ، ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا ، وانك لتهدى الى صراط مستقيم ، صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ، ألا الى الله تصير الأمور »

خرج (محمد) على أهله وقومه بالدعوة الى الايمان وحده فأنكروها وأرادوه على العدول عنها وظنوا به الظنون ، فقالوا : ساحر وشاعر ومجنون وكذاب ، وساوموه على ترك دعوته بالمال والملك والجاه ، وقاوموه واضطهدوه وآذوه ، فما كان قوله لهم الا أن قال : « والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه » فلم يعدل بذلك الايمان الذى اطمأنت اليه نفسه وأمره به ربه ، ولا بالدعوة اليه ، ملك الليل والنهار وما فيهما ! وكان همه أن يلتقى الناس على عبادة الخالق القدير الذى تنزهت صفاته عن الشريك والمثيل .

الدين فطرى

والناس من أقدم العصور حيارى يجدون فى أنفسهم الهاما بالفطرة الى التسليم بقوة قاهرة يستلهمونها ويستمدون منها العون ويستقبلون منها الخير والشر ، فيدعونها خوفا وطمعا ، ويتملقونها بالقرابين والعبادات ويجدون فى الايمان بهذه القوة التى اختلفوا فى تكييفها سندا وملاذا من رهبة القوى المادية فى الكون ، وسلوى وعزاء عن ماهم فيه من قسوة الحياة وآلامها .

شعور فطرى قوى فى نفوس البشر يدفعهم الى عبادة القوة . وليس أبدع من تصوير القرآن لهذا الاتجاه بقوله فى قصة اهتداء ابراهيم عليه السلام الى الله كما وردت فى سورة الأنعام .

البحث عن الله

« وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين . فلما جن عليه الليل رأى كوكبا ، قال هذا ربى ! فلما أفل قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغا ، قال هذا ربى ! فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة ، قال هذا ربى ، هذا أكبر ! فلما أفلت قال ياقوم انى برىء مما تشركون . انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين » .

هكذا تدرج عقل ابراهيم فى الاهتداء الى الله من مظاهر القوة والنفع والرهبة والروعة فى النجم والقمر والشمس ، ولكن لم يرض فطرته السليمة أن يراها ناقصة بأفولها وقيودها وتعددها وخضوعها لسلطان الظلام ، فعدل عنها ، والتمس عقله الطريق الى قوة مختارة دائمة غير محدودة ، هى قوة الله الذى فطر السموات والأرض وقهرها . ثم اتصل بعقله وحى الله وهداه .

وقد عبد الناس قوى كثيرة ، اما عبادة أصيلة ، واما لاتخاذ عبادتها زلفى وتقربا الى تلك القوة العظمى القاهرة التى يدركونها بفطرتهم .

عبدوا الأشباح والأرواح والجمادات والحيوانات والنجوم والكواكب والماء والنار والبرق والرعد ، وما توهموا أن فيه القوة أو أنه مثل لها

أو مظهر من مظاهرها . بل عبد بعض الناس بعضا ممن تجلت فيه قوة غير طبيعية ، ثم قتلوا من عبدوا حين تبين لهم قصوره عن القدرة التى ظنوها فيه .

قصة اله بشرى

ومن أعجب ما شاهدت من عبادة الانسان للانسان ، أننى جالست قبل ثلاثة وعشرين (١) عاما الها من آلهة الزنوج فى جبال النوبة بأقصى الجنوب من كردفان . فكنا على الأرض نتفيأ ظلالا ورافة لشجرة من تلك الأشجار الاستوائية الهائلة ، وجمع من الشعب رجالا ونساء عرايا يرقصون ويطربون فى حضرة الاله ويسمونه « الكجور » . وهذا الكجور سواء أكان هو الاله أم رمزه ، هو عرفا : المعبود الذى يرفع اليه الدعاء وتقدم له القرابين ، وهو القدير على تصريف الأمور الكونية ، له كل تقديس ، فهم يطعمونه ويهبونه ويتزلفون اليه مقابل أن يأتيهم بالمطر لزرعهم وسائمتهم وأن يشير عليهم بالوقت المناسب للصيد أو الحرب ، أو أن يدفع عنهم البلاء والمرض .

ولم أستطع أن أتبين ان كان فى نظرهم الها كاملا أو كأصنام الجاهلية ، يعبدونه زلفى لمن هو أعظم فى نظرهم .

جاءت زوجة « الكجور » ونحن نتحدث بوساطة مترجم فجلست بجوارى ومدت ساقها فأرتنى آثار ضرب بها . فقال المترجم : ان بعض العامة ضربوها ، وهى تشكو اليك ظانة أنك الحكومة . فقلت : كيف وهى زوج « الكجور » وهو الههم المتصف بالقدرة عندهم ؟ ! فقال : ان القداسة لا تشمل الأسرة ، وحقوقه شخصية فقط ، وأهله مثل جميع الناس .

فقلت لصاحبى : ان هذا الشعب على سذاجته وضلال عقيدته يضرب أعلى الأمثال فى الديموقراطية والمساواة .

ومن عجيب أمر القوم ، أن للكجور حقوقا يقابلها واجبات ، فاذا امتنع عن أداء الواجب قتلوه .

---

(١) سنة ١٩٣١ فى جبال النوبة من جنوب كردفان .

فمثلا اذا أجدبت الأرض وهلك الزرع سألوه المطر ، فان أبى وتأخر المطر حاولوا استرضاءه بالهدايا والدعاء ، فان مرت السنة وأجدب ما بعدها ولم يستطيعوا أن يقنعوا « كجورهم » ليأمر المطر برحمتهم ، فانهم قد ينتظرونه مواسم أخرى ثم يقتلونه أو يرجمونه ويقيمون غيره ممن يعرفون فيه بالميراث والاختبار علم الأسرار وفعل بعض الخوارق فيحلونه محله .

وأعجب ما فى نوادرهم ما روى لى أنهم شكوا أحد الآلهة مرة الى الحكومة لامتناعه عن الاتيان بالمطر ، ولم يتركوا موظف الحكومة حتى أمر بحبسه ، واستمروا هم ينتظرون أياما فاذا بالكجور يطلب من الحاكم أن يطلق سراحه فيأتيهم بالمطر بسرعة . وما ان انطلق من الحبس وسار بالشعب نحو الجبل ، حتى هطلت الأمطار غزيرة . فهم لا يشكون فى قدرته ولا يظنون به العجز ، وانما يظنون به القصد السىء .



ذلك مثل من فكر البشر فى سذاجته . وفكر البشر حتى فى حضارته أحيانا لا يكون أعلى كثيرا . فقد عبد العجل والقط والصنم والنار وبعض البشر وغير ذلك .

التوحيد أعظم أسس الدعوة المحمدية

وكانت الدعوة المحمدية الى الوحدانية غريبة لدى العرب وغيرهم رغم ما يظهر الآن من بداهتها واستقامتها ، وكانت الحاجة شديدة لداعى التوحيد ليسمو بالعقل الانسانى الى النظر فى الكون والمخلوقات والتوجه الى خالقها جميعا لاستمداد العون واستلهام الرشد .

واذا تقصينا سيرة الرسول فى مكة ، وتأملنا التنزيل فى تلك الفترة ، رأينا (محمدا) قد وقف قلبه وجهده ، ووهب حياته وحياة أنصاره لتمكين هذه الدعامة الأولى واظهارها . وقد خاصم أعداءه وهادنهم ، ونفر ورضى ، واستصرخ أهل الأديان الأخرى ليلتقوا معه على كلمة سواء : هى عبادة الله لا شريك له « قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله . فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » .



ولم يقبل فى دعوته الى الوحدانية من المشركين وعبدة الأوثان هوادة أو مساومة رغم أنه كان يجادل الجميع ، ولكنه كان كثير التسامح مع أهل الكتاب يقول القرآن « ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هى أحسن » ، ويقول فى النصارى « ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا انا نصارى » ، ويقول قولا عاما فى جدال الجميع « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن » .

التسامح هو السبيل الى الوحدة العالمية

وقد بلغ تسامح الدعوة المحمدية مع الملل الكتابية حدا لا يعرفه أهل هذه الملل حتى فى هذا العصر الذى انتشر فيه اللادينيون ، ولا يقبل مثله كثيرون من المتدينين فى الملل الأخرى ، فلا تتسع صدورهم له ولا لرحمة الله لغيرهم .

انظر الى هذه الآية الكريمة « ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

فالهدف الأسمى للرسالة المحمدية هو الايمان بالله لا شريك له . وفى سبيل التوحيد تسهل كل العقبات ، وتتساوى القبائل والشعوب جميعها ، حتى الأديان لقوله تعالى « قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ، ونحن له مسلمون » .

دين واحد لامة واحدة

فرسول الله فى دعوته الى الايمان بالله الواحد الخالق لم يدع أنه مبتدع بل قال انه مكمل للشرائع السابقة ومعيد للحنيفية الفطرية التى هى دين ابراهيم بل دين نوح وآدم ، وانه لا تبديل لذلك الدين القيم الذى يستند الى وحدة الله ، ويترتب عليه وحدة خلقه « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه . كبر على المشركين ما تدعوهم اليه » « يأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا انى بما تعملون عليم . وان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون » . « فلما أحس

عيسى منهم الكفر قال من أنصارى الى الله ؟ قال الحواريون نحن أنـ
الله ، آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون » .

ولم يختلف الرسول صلى الله عليه وسلم مع أهل الكتاب الا ـ
كان تنزيه الخالق موضع شك ؛ ففى سبيل التوحيد والتنزيه جادل وخا
ولم يصالح أو يهادن أحدا على حساب دعوته هذه ، لأنها أساس رسـ
وغايتها ، بل غاية الوجود « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ما أ
منهم من رزق وما أريد أن يطعمون » ، « سبح لله ما فى السموات والأر
وهو العزيز الحكيم . له ملك السموات والأرض يحيى ويميت وهو ـ
كل شيء قدير . هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم

وهذا التوحيد الذى دعا اليه فضلا عن سموه بالعقل البشرى هـ
أصل الخير وأساس السعادة والخلق السليم كما يظهر من الفصل التالى

آثار التوحيد

التوحيد روح الدين – هو أساس الانتساب والاعتبار الشخصي – الاشراك سبب لاهدار شخصية المشرك – الشرك طارىء على الفطرة – الشرك بابك الظلم والاستبداد – التلازم بين التوحيد وصلاح الفكر والحياة – وكر الخرافات والاباطيل – عقائد التوحيد وآثارها في تزكية النفس – آثارها في حرية الفكر وسيادة العقل وسمو الحضارة – لا احتجاج بالواقع السيء

بينا أن الايمان بالله وحده لا شريك له هو الهدف الأسمى للدعوة المحمدية . والله سبحانه قد سمى المؤمن به وحده مسلما « فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصارى الى الله ؟ قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون » .

واذا تصفحنا آى الذكر الحكيم نجد الدعوة الى التوحيد والتنزيه لا تخلو منها سورة ، بل تكاد لا تخلو منها صفحة واحدة من الكتاب تصريحا أو تلميحا .

التوحيد روح الدين

وحكمة ذلك واضحة ، اذ الايمان بالله وحده يتفرع منه كل ما فى الدعوة من صلاح واصلاح ، وهو الرباط الذى يجمع شتاتها ويوثق بين أجزائها ، بل هو فيها بمقام الروح للجسد ، يتحلل ويبلى ويندثر بفراقها . والشرائع من غير ايمان كالقوانين الوضعية : تسقط بسقوط القائمين عليها ويذهب أثرها بذهاب الظروف التى أحدثتها .

هو أساس الانتساب والاعتبار الشخصى

لذلك كان الايمان بالله لا شريك له هو الحد الفاصل بين الناس ، وليست العناصر والأجناس حدودا بينهم ، ليس الانتساب الى الدين الاسلامى نفسه وعدم الانتساب اليه حدا ، اذ بينما هذا الدين يرعى كنيسة المسيحيين وبيعة اليهود اذا دخلت فى ذمته ، ويأمر المسلمين بالقتال لاحترام حرية عقائد المعاهدين من أهل الملل الكتابية « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا » ، وبينما هو يكتفى ممن يؤمن بالله من أهل الكتاب بضريبة قليلة على القادرين من الذكور مقابل حماية نفوسهم وأموالهم

وأعراضهم ودينهم وعرفهم ، ضريبة هى رمز لعهدهم ، يستعين بها المجاهدون على الرباط فى الثغور ، ويأمن المعاهدون بها على ديارهم وعقيدتهم . وقد ردها خالد بن الوليد (١) ، رضى الله عنه ، الى نصارى حمص حين أجلاه الروم عنها ، وقال ما معناه : انما أخذناها لحمايتكم وقد عجزنا عنها . نقول بينما الاسلام يعامل المؤمنين بالله على هذا الأساس ، اذا به يفرق بينهم وبين المشركين ويعاملهم معاملة أخرى فيها عدم اعتراف بكرامتهم ولو أنه يفى لهم أيضا بما لهم من عهود ومواثيق مع المسلمين بشرط ألا تصادم حقا أو تدفع الى ظلم ، كما حصل فى حلف النبى لخزاعة وصلح الحديبية كما سيأتى . اذ العداوة معهم دائمة لوجه الله وصالح البشرية . حتى يكون الدين كله لله .

الشرك سبب لاهدار كرامة المشرك

ومن ناحية أخرى نجد الاسلام يدخل الكتابية فى الأسرة المحمدية فيبيح مصاهرة أهل الكتاب ويجعلهم خؤولة للمسلمين ، وهو لا يقبل مثل هذا النسب مع المشركين ، ويأبى أن يعترف لهم بهذه المنزلة « ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم » . بل يصل الأمر أن يجعلهم نجاسة « انما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا » .

كل هذه الشدة مع الوثنيين والمشركين ليست تعصبا أعمى ولا افراطا فى العصبية الاسلامية ، فلو كانت كذلك لساوت الدعوة فى المعاملة بين أهل الأديان الأخرى جميعا ، وقد لقى الاسلام من العنت والأذى من أهل الكتاب كثيرا ، ولكن ذلك لم يخرج الدعوة عن التمييز بينهم وبين المشركين ذلك كله لأن عقيدة التوحيد هى غاية الحياة الانسانية وسبيل الاصلاح المنشود ؛ فمتى آمن العبد بأنه أثر للبارىء الأعظم ، كان بينه وبين خالقه ما بين الصانع والمصنوع من الصلة وكان بينه وبين المصنوعات جميعا ما بين الآثار المتعددة للمنشىء الواحد وكان هذا الارتباط المعترف به اعتراف ايمان بين الخلق والخالق رباطا لا ينفصم ، يستمر به العمران

أخوة عامة فى الله

(١) وعلى رواية مشهورة ان الذى ردها هو أمير الجيش أبو عبيدة عامر بن الجراح .

والاصلاح والخير على وتيرة واحدة مصدرها الاذعان لارادة واحدة ، وكان بذلك وجودنا جميعا فى هذا الكون متصل المبدأ متحد الغاية . ومتى امتلأت النفوس بذلك سهل كل شيء .

فلو تصورنا الناس على ايمان كامل كهذا ، يؤدون ما عليهم وفق هذا الايمان ، لأمكن أن تتصور أقدر المخلوقات على الفساد ، وهو الانسان ، أصلحها ، اذ هو حينئذ لا يحتاج لوازع ولا هاد الا من ايمانه ، بل لأمكننا أن نتصور هذا العالم ولا حكم ولا حكومة فيه الا لوجدان المؤمنين .

لذلك كان الايمان بالله لا شريك له الشغل الشاغل لصاحب الدعوة ، وكان فى الحقيقة سبب نجاحها واستقامتها .

فازالة الشرك يتبعها هدم مفاسده ، واقامة التوحيد يتبعها قيام فضائله .

* * *

على الفطرة

تقرر الدعوة المحمدية أن الناس كانوا على الفطرة يعبدون الله وحده ، ثم ضلوا ، فاذا عادوا لها استقاموا .

وكر الخرافات والاباطيل

واذا نظرنا فى تاريخ أديان البشر وجدنا الشرك فى الغالب نتيجة لبدع أحدثها الناس فعددوا الآلهة ونوعوها ، وأقام المبتدعون والمفسدون أنفسهم قواما على الآلهة وسدنة وحراسا ، بل وكلاء ونوابا ، واتخذوا سلطان هذه الآلهة سلطانا لهم ، ثم تآمر ذوو الأغراض فتساندوا على تضليل العامة ، وانتهوا بوضعهم فى أسر مجموعة من الخرافات والسخافات ، وكأن الكهنة وأضرابهم من القوام والوكلاء والمرشدين خزنة الأسرار الدينية هم فى الواقع الآلهة المتصرفون فى المجموعات البشرية المأسورة .

باعث الظلم والاستبداد

فأول أثر يبدو للشرك فى تاريخ البشر ، هو أن العبودية للصنم انقلبت الى عبودية للشخص أو الأشخاص القائمين على هذا الصنم ، وقامت عهود من الاستبداد دامت فى مصر والعراق آلاف السنين ، ولم يخل منها

ركن من أركان العالم من فجر التاريخ الى اليوم . ومهما تغيرت الأوضاع والأشكال فان الشرك والاستبداد حليفان متلازمان .

أما التوحيد فيتبعه الانصاف ويلازمه كالظل للشواخص ، لأن الاله الذى دعا اليه الأنبياء ومحمد صلى الله عليه وسلم منزه عن الهوى والغرض ، لا يريد من خلقه رزقا ولا طعاما ، وليس له وكلاء ولا نواب ولا وسطاء . يقول : « ادعونى أستجب لكم » وهو أقرب اليهم من حبل الوريد ، هو الرحمن الرحيم ، هو الغنى القدير ، هو البارىء المصور هو العفو الغفور ، هو المعطى المانع ، هو الحكم العدل ، هو المنتقم الجبار ، هو المسيطر فوق عباده ، العزيز الحكيم .

كل هذه الصفات وما معها من تنزيه عن الشبيه والمثيل جعل الألوهية فى وضع يعلو بها عن الاستغلال السيىء ، وجعل الخلق تحتها متساوين فى حكمها ، أكرمهم عند الله أتقاهم ، وأقربهم أبرهم بالعباد .

وكما أن الظلم والأثر ملازمان الشرك : كان الانصاف والعدل والمساواة ملازمة للتوحيد .

آثار التوحيد فى تزكية النفس

لذلك كانت غاية الدعوة المحمدية الايمان بالله وحده ، وهو عندها فوق كل شىء . ويقول القرآن الكريم : « ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء »

والايمان الخالص من الشوائب ، الصادر من القلب ، تتبعه حتما جميع الفضائل المتعارف عليها ؛ لأن المؤمن يجد حسابه مع الله مباشرة فيرفعه اليه وحده ، فهو لا يرتكب الكبيرة ولا الصغيرة عن عمد وقصد . ومتى وجد هذا الانسان فقد وجد الانسان الكامل .

فلو أن مجتمعا تكون من مثل هذا الانسان لقام على الرحمة والمحبة ، اذ من وصايا الاسلام « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » « الراحمون يرحمهم الرحمن » « ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء » فهو اذن المجتمع السعيد .

التوحيد سر حكومة الوجدان

وليس غريبا ما دعا اليه البعض فى عهد الفتنة بين (على) و (معاوية) من الغاء الحكومة البشرية تماما اذ قالوا : « لا حكم الا لله » . ولو تحققت الحكومة الالهية : لكان ملكها الوجدان ، وقالونها : الانصاف ، وزاجرها العرف العام .

لكن الدعوة المحمدية لما فيها من صدق نظر ومطابقة لطبائع الناس عولت فى الاصلاح على الايمان والشرع الذى ينظم ما قصدت اليه من احسان وجعلت الوازع من يختاره المؤمنون لينفذ ما شرعت ، فضمنت بذلك استقامة الأمور . وهيهات أن تصل البشرية الى حكومة الوجدان التى توحيها عقيدة التوحيد ! .



قلنا ان الايمان بالله يتبعه حتما تغلب جميع الفضائل فى نفس المؤمن . فهو لا يعيش لنفسه بل لاخوانه من مخلوقات الله جميعا ، ويكاد يمحى فى النفس المؤمنة الشر بجميع أنواعه ، وأول ما ينمو فيها هو الايثار والفداء والتضحية فى سبيل الخير العام .

فالمؤمن لا يكون ظالما ، لأنه يعارض بالظلم صفة من صفات الله وهى العدل ، ولا يكون غليظا قاسيا ، وسيده هو الرحمن الرحيم . ولا يكون كاذبا ولا مخادعا ولا منافقا ، لأن حسابه مع الله العليم الخبير الذى « يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور » ، ولا يكون ذليلا أو جبانا لأنه يعلم أن ذلك لا يفيده مادام الأمر بيد الله .

وهكذا اذا استرسلنا فى تعداد النقائص نجد أنه حيل بينها وبين الموحد بحجاب الايمان ، ونجد الصفات السامية جميعا محببة الى النفس المؤمنة المطمئنة التى دخلت فى عباد الله ودخلت فى رحمته حين لبت نداءه : « يأيتها النفس المطمئنة ارجعى الى ربك راضية مرضية ، فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى » .

هذه النفس المطمئنة بالايمان تحيا فى سعادة لا يتذوقها الا الموحدون. ويمكن لأمثالنا ممن يعيش على هامش الايمان ويسأل الله الهدى ، أن

يتصور النفس المؤمنة تكون فى الجنة فعلا فى هذه الدنيا ، لأن السعادة الروحية التى تتذوقها هى أطيب ما فى الجنة من متاع .

* * *

التلازم بين التوحيد وصلاح الفكر والحياة

هذا الايمان بالله وحده ، الذى قلنا ان الفضائل تتبعه حتما ، وانه يطهر النفوس من الشر والرذيلة ، يسمو كذلك بالعقل البشرى ؛ فالوثنية والشرك يشغلان الذهن بالمحسوسات ويحصرانه فى نطاق الأباطيل الصادرة عن دعوات السحرة والكهنة وطوائف القائمين على الآلهة المجسمة أو على الآلهة المقسمة الموزعة السلطات والمتنافسة عليها ، فتطبع فى أذهان الناس صورا مما هم فيه أو ما يهبطون اليه من الخرافات بينما يفعل التوحيد والتنزيه عكس ذلك ، فهو يدعو للتفكير والنظر وتحكيم العقل ، فالاله الذى دعا اليه الاسلام يجمع السلطان والفضائل ، وهو مع الناس أينما كانوا ، لا وسيط له ، ولا ينالونه بحس ، فلا بد لهم من التفكير فيه والاستدلال عليه بآثاره ، مما يدعو الى تعلق العقل بمصنوعاته .

وقد كانت عناية الدعوة المحمدية فى هذا بادية فى أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم وأعماله كما رددت آيات الكتاب الكريم الدعوة الى النظر والتعقل ، فاستهزأت بالمقلدين والمكابرين والجاحدين والجامدين بكلمات لاذعة قارصة ، وامتدحت المفكرين والباحثين والذين يحسنون استخدام ملكاتهم فى النظر فى الكون واستنباط الحقائق من مقدماتها وآثارها .

ومن العجيب أن الشرك الذى صرعته الدعوة المحمدية فى جزيرة العرب فى أيام الرسول وفى غيرها من بعده ، وترتب على هزيمته ظهور الفضائل التى أشرنا اليها ملازمة للايمان بالله لا شريك له ، لم يكن سهلا هينا كما يظن ، بل كان شرا مستطيرا وبلاء متأصلا .

يقول الله تعالى « وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب . أجعل الآلهة الها واحدا ؟ ان هذا لشىء عجاب ! وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم ، ان هذا لشىء يراد ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة ان هذا الا اختلاق »

أثر التوحيد فى تحرير العقل وسمو الحضارة

فالدعوة المحمدية بانتصارها على الشرك قد أزالت العقبة الأولى فى سبيل السمو بالنفس البشرية كما بينا ، ورفعت الحجر عن عقول تحجرت ، فانطلقت للنظر والتبصر ، وبدت آثار ذلك مسرعة ، حتى كادت الدعوة المحمدية أن تكون فى ذاتها معجزة ، فقد اتفق العلماء والباحثون على أن نجاح محمد صلى الله عليه وسلم فى دعوته مقطوع النظير ، فلا يعرف فى تاريخ البشر نجاح كالذى لقيه .

ومن المتفق عليه أيضا أن دعوته كانت غريبة منكرة فى نظر القوم مبتدعة غير ممهد لها ، قد لقيت من العناد والاستهزاء والاستنكار ماتفيض به حوادث السنوات العشرين التى قضاها صلى الله عليه وسلم وهو يجهر بها بعد أن أخفاها فى بادىء أمرها .

وكما كانت الدعوة الى التوحيد غريبة فان أثرها فى النفوس وما ترتب عليه فى تكييف الحياة وتغيير وجه الأرض كان أكثر غرابة .

فالأعراب الذين وأدوا بناتهم واعتزوا بسفك الدماء والنهب ، صاروا الخشع الركع الذين يبتغون فضلا من الله ورضوانا .

والأسرة التى كان يرث فيها الرجل زوجات أبيه ، صارت الأسرة المطهرة .

والقبيلة التى كانت لا تعرف حقا الا لعصبيتها ، ولا ترعى ذمة الا لمن هو منها ، صار فيها من يرد الى نصارى (حمص) أموالهم ، لأنه عجز عن رعاية ذمتهم .

والسادة الذين استعبدوا الناس صاروا يخشون الله ولا يخشون فى الحق لومة لائم .

ومن الجفاة القساة صار الخليفة الذى ترده امرأة فى مجمع الخلق فيقول « أصابت امرأة وأخطأ عمر ! » ويكتب الى أكبر ولاته الفاتحين متهكما « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ! » لأن ابن ذلك الوالى أساء الى مسيحى من قوم مغلوبين . وكان ذلك فى مصر .

لا احتجاج بالواقع السيء

فاذا قال قائل : وما بال فساد الحال ضاربا أطنابه على الدنيا اليوم ، والمؤمنون ملء الأرض ؟

قلنا ما قاله الله « وما يؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون » وما قاله الرسول « والله لا يؤمن ! والله لا يؤمن ! والله لا يؤمن ! قيل : من يا رسول الله ؟ قال : الذى لا يأمن جاره بوائقه » .

فهل أمن أحد من أهل الكتاب فى الغرب أو الشرق بوائق جاره ؟ وهل أحب مسلم لأخيه ما يحب لنفسه ؟

ولا تزال الانسانية فى هذا البلاء ، وهـذه الحروب ، وهذه الفرقة بين الأمم ، وبين الطبقات فى الأمم حتى تملأ مبادىء عقيدة التوحيد قلوب الناس .

الإحسان

رديف الايمان — تنظيم دقيق لقواعد الحياة وأساليبها — أثر سريع لتطبيق نظم الاحسان — الرحمة والاخاء أساس الاحسان — دفاع لابد منه عن الأتراك العثمانيين — أثرهم فى زوال عهد الاقطاع من المماليك والبولونيين — موقف عظيم لشيخ الاسلام فى عهد السلطان سليم — رحمة الحيوان — وقائع وحكايات عن الرحمة

رديف الايمان

الآن ننتقل الى الدعامة الثانية للاسلام وهى الاحسان . والاحسان فى نظرى هو العمل الصالح ، وقد جاء فى الآيات رديف الايمان بل يكاد يلازمه فى كل آية .

تنظيم دقيق لقواعد الحياة وأساليبها

والشريعة الاسلامية كلها ما هى الا بيان بالأمر أو النهى أو الاباحة للأمور التى بها يكون العمل صالحا . وهى فريدة بين الأديان فى وضع الأصـــول والفروع لهذا الاحسان ، ففى جميع عـــلاقات الانسان بالله ومخلوقات الله رسمت الشريعة بشىء من التفصيل قواعد الحياة وأساليبها للمسلم ، وهذه القواعد منها ما يختص بالعلاقة بين العبد وربه من صلاة وصوم وحج مما يتبع الايمان وما يقتضيه من عبادات .

وكل ما نحتاج أن نشير اليه منها فى مثل هذه الأحاديث هو أن هذه العبادات مع تزكيتها للنفس وتطهيرها للبدن ، مما يعود أثره على المسلم فى شخصه ، هى كذلك مجموعة نظم تعين على حسن العلاقات بين الفرد والجماعة ، وتيسر بما فيها من تدريب وتهذيب سبيل التكافل الذى لابد منه للجماعة الصالحة ، بل تحض فى كل لحظة على التعاون البشرى الذى هو أساس العمران .

وليس أدل على ذلك من الأثر الذى أحدثته هذه العبادات فى نفوس قوم من الأعراب وأضرابهم من الأمم المتبدية هم أبعد الناس عن الألفة والتعاون ، وأدناهم للأنانية والشر .

أثر سريع لتطبيق نظم الاحسان

ففى بضع سنين أصبح الجفاة النافرون ، وقد عبدوا الله على الكيفية التى سنها صاحب الدعوة ، أهل نظام وتقوى ، يركعون ويسجدون لله

ويأتمون برجل منهم ، ويؤدون ذلك باطراد فى أوقات محددة ، فتعودو النظام والطاعة والتكافل ، وأصبحوا اخوانا يسعى بذمتهم أدناهم .

وقد دهش فعلا أولاد عمومتهم الذين استمروا على الشرك حين التقو بهم فى « بدر » فرأوهم لأول مرة فى كتائب مرصوصة لا عهــد للعرب بها . لا يتنادون بعصبية مع أنهم من شتات العرب ، بل شتات الأعراب والعبيد والأحــرار والبيض والسود ، رابطتهم فى الله وأخــوتهم فى الانسانية .

فالعبادات على الكيفيات المختارة فى الاسلام لها بلا شك ، غــير الرابطة التى تقويها بين المخلوق والخالق ، آثار عدة فى نفس الانسان وحياته وعلاقته بالناس ؛ ولذلك كله كانت عناية صاحب الدعوة صلى الله عليه وسلم بها عظيمة .

وفقهاء المسلمين حين علموا أن الاســلام بنى على خمسة أركان ؛ للعبادات ثلاثة منها ، قد أدركوا عظم هذه الأركان الثلاثة : الصلاة والصوم والحج فى بناء الدين . وقد أفاضوا فى فضل العبادات المختلفة ، بل فى فضل كل صلاة وركعة ، مما لا حاجة معه لجديد ، ومما يعرفه كل مسلم ان لم يكن تفصيلا فاجمالا . ولكن أكثر المسلمين ، مع شديد الأسف ، لا يعرفون عن دينهم أكثر من ذلك فلهذا أظن أن العناية فى هذه الأحاديث بالنواحى الأخرى للاحسان والعمل الصالح أجدر وأنفع .

* * *

كان الرجل يأتى من أقصى البادية فيجلس الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يتلقى دعوته ، فيقوم من بين يديه وهو أعلم بها ممن درجوا اليوم فى أحضان الاسلام ، ونشأوا فى بيوت الدين ، وليس ذلك لميزات الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، وبركته وتأثير شخصيته فحسب ، ولا لأن هؤلاء الأعراب كانوا يختلفون عن أبنائهم عرب اليوم ، وانما كانت الدعوة بسيطة مركزة فى مبادىء عامة مفهومة للكافة ، سهلة تلقى اليهم ليعملوا بها وليسيروا على نهجها وينسجوا على منوالها ، لا ليتحدثوا عنهــا ثم

يشتغلوا بالقشور اذ « نسوا الله فأنساهم أنفسهم » ، ورضوا بالظاهر ففقدوا اللب والجوهر .

وعبارة القرآن فى هذا المعنى تدل على سهولة تلقى الدعوة ونشرها : يقول الله تعالى « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم » .

فالدعوة بسيطة ، أساسها الايمان والاحسان . وهذا الاحسان هو العمل الصالح كما قلنا وهذا العمل الصالح هو مبادىء عامة وعبادات تلقن كيفياتها فى لحظات

الرحمة والاخاء اساس الاحسان

أما المبادىء فأصلها جميعا فى الرحمة والاخاء . والرحمة صفة الله وقد كان المسلمون فى أول عهد الدعوة يسمون الله (الرحمن) حتى قال العامة، ان محمدا يعبد الها اسمه الرحمن . والمسلمون يستفتحون كل عمل وحركة باسم الرحمن الرحيم ، ويحيى بعضهم بعضا بالسلام والرحمة فيقولون « السلام عليكم ورحمة الله » .

وآيات الكتاب شاهدة على أنها أحب الصفات الى صاحب الدعوة « محمد رسول الله . والذين معه اشداء على الكفار ، رحماء بينهم » .

« واخفض جناحك للمؤمنين . وقل انى أنا النذير المبين » .

« وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين » .

« فبما رحمة من الله لنت لهم » .

« عزيز عليه ماعنتم حريص عليكم ، بالمؤمنين رءوف رحيم » .

والأحاديث النبوية فى معنى الرحمة مستفيضة .

« الراحمون يرحمهم الرحمن » . « ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء » .

هذه الرحمة التى هى أصل من أصول التشريع فى الدعوة المحمدية « وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » هى أساس العمران وما نزعت من قلب انسان الا صار خربا ، ولا من قوم الا كانوا وباء على الأرض والتاريخ

يحدثنا عن طغيان أقوام نزعت الرحمة من صدورهم ، فتركوا آثارا فظيعة من الخراب استمرت بعدهم قرونا .

فمثلا موجات المغول مع (جنكيز خان) ومن بعده لا تزال رغم مرور سبعة قرون بادية آثارها للعيان فى أواسط آسيا وغربها ، وقد شهدتها بنفسى فى الأفغان وايران والعراق ، وستبقى أجيالا كثيرة .

وجاء من بعدهم أقوام مثلهم من المسلمين ومن الأعراب المسلمين نزعت الرحمة من صدورهم فعاثوا فى الأرض الفساد ، ولا تزال آثار الخراب الذى أحدثه بعض هؤلاء القساة من الأعراب مشهودة فى شمال افريقية ، وقد شهدتها كذلك بنفسى بعد مرور مئات من السنين .

فالرحمة أساس العمران ، جاء بها موسى وعيسى ومحمد . بل هى رسالة أنبياء الله والمصلحين جميعا . ولم يعظم شأن دولة من الدول الا والرحمة صفة من صفات القائمين عليها .

دفاع لا بد منه عن رحمة الأتراك العثمانيين

وقد يظن بعض الناس بما يتناقلون من أحاديث أو فكاهات عن بعض العهود للدولة العثمانية أنها كانت دولة عظيمة ، ولكن لم تكن صفة الرحمة من مميزاتها . وهو خطأ شائع لا يقف أمام البحث والتدقيق فالعثمانيون فى أيام عزهم ورثوا الرحمة التى نزعها الله من قلوب العرب المتأخرين ، فورثوا الدولة ، وسادوهم كما سادوا الأوربيين .

أمثال شعبية تشهد لهم

وقد سمعت بنفسى حديث هذه الرحمة فى (بسرابيا) من رومانيا على نهر (الدنيستر) ، وقيل لى ان أمثلة الفلاحين فى هذه الأطراف النائية للملك العثمانى لاتزال تعبر عن رحمة التركى وعدله . ومنها مايشير الى أن العدل ينزع مع الأتراك من الأرض . وقد لفت نظرى فى بولونيا ورومانيا وفى بلاد البلقان فى رحلاتى المتعددة أمثلة وأساطير لاتزال تشير الى ماا ستقر فى نفوس هذه الأمم المسيحية من احترام التركى المسلم كرحيم عادل .

وفى سنة ١٩١٧ كنت فى فينا فروى لى أن البولونيين مستبشرون وصول العساكر العثمانية الى جاليسيا مددا للنمساويين وقتئذ ، فسألت عن السبب ، فقيل لى ان عندهم نبوءة يعتقدونها عن بعض قديسيهم بأن علامة عزهم وظهور دولتهم مرة أخرى هى أن تعود العساكر الاسلامية الى الظهور شمال الدانوب .

ومن العجيب أن هذه العساكر ولو أنها جاءت مددا لغاصبى بولندا ومقتسميها فانه لم يمض سنة على عبورها (الدانوب) حتى استقلت بولندا حقيقة مرة أخرى وعادت دولة موحدة .

هذه الأسطورة وغيرها من الأمثال فى لغات الأمم البلقانية جعلتنى أتوسع فى قراءة التاريخ الاسلامى فى البلقان ، وقد خرجت من قراءتى ومشاهداتى بأن العدل والرحمة الاسلامية هما اللذان مكنا للعثمانيين فى أوربا .

وبالعدل والرحمة خرجت هذه الأمم من غيبوبتها وهمجيتها وقسوتها . وعرفت المساواة والانصاف . ويكفى أن تعلم أن استرقاق الطوائف بأشنع صورة كان نظاما دوليا متعاهدا عليه فى أوربا الوسطى والجنوبية الى أن قضى عليه العثمانيون .

انرهم فى زوال عهد الاقطاع من أرض الملداف والبولونيين

وكانت هناك عهود دولية بين الملداف والبولونيين والمجر لتسليم كل فلاح يرحل من مزرعة سيده من (البويار) الى أحد هذه الأوطان ، وكانت المزارع تباع بما عليها من الحيوانات والفلاحين .

جاء العثمانيون الى أوربا يحملون بين صدورهم عاطفة الرحمة كما أرادها صاحب الدعوة ، صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن الأتراك أكثر عدة ولا عددا من أية أمة من الأمم التى سادوها ، فوصلوا على رءوسهم جميعا الى فينا ، تمهد لهم الرحمة صعاب الجبال والبحار والوهاد ، كما مهدت للعرب قبلهم افريقية وآسيا .

موقف عظيم لشيخ الاسلام فى عهد السلطان سليم

وكان للاتراك ملك عظيم ، هو السلطان سليم ، عرف بالقسوة وذبح كثيرا من آل بيته ، ويلقبه الاتراك أنفسهم بسليم القاسى ، فخطر له أن

يوحد دين الدولة ولغتها فأبى عليه شيخ الاسلام ، فامتنع حرمة لوصايا الاسلام باحترام حقوق المسيحيين والرحمة بهم . وذلك من أثر الرحمة التى أودعها الله قلب صاحب الدعوة وأتباعه ، والتى هى ركن الاسلام المتين وصفة الله التى اذا نزعت من الصدور دالت الدولة ، وعم الخراب حتى يستخلف الله أهل الرحمة .

انظروا الى العالم اليوم ، وقد نزعت الرحمة من الصدور ، ألم ينقلب الانسان شرا من الوحش الضارى ، ألم يسبق المتحضرون فى القسوة جنكيز خان ؟ . أليست الغارات الجوية على المدنيين أسوأ مابلغه الناس من التوحش ؟ . ثم أليست هذه مقدمات الخراب العام ؟ .

رحمة الحيوان

هذه الرحمة التى أرسل الله محمدا من أجلها ، ليست خاصة بالانسان، وليعلم القارىء مكانتها من الاسلام : نقص بعض أحكام الشريعة فى الرفق بالحيوان ، ليتبين مدى عناية صاحب الدعوة صلى الله عليه وسلم ، ببث الرحمة فى دعوته .

قال صلى الله عليه وسلم : « بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش ، فوجد بئرا فنزل فيها فشرب ثم خرج ، واذا كلب يلهث ، يأكل الثرى من العطش فقال الرجل لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى كان بلغ منى . فنزل البئر فملأ خفه ماء ثم أمسكه بفيه حتى رقى ، فسقى الكلب فشكر الله تعالى له فغفر له » . فقالوا يا رسول الله :

« وان لنا فى البهائم لأجرا ؟ » فقال : « فى كل كبد رطبة أجر » .

وقال أيضا « دخلت امرأة النار فى هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تاكل من خشاش الأرض »

وقد جاء الاسلام بالنهى عن كثير مما كان يأتيه العرب . وكان من عادة العربى أن يعذب الحيوان كشق أذان الدواب ، وربط الناقة بجوار قبر صاحبها اذا مات لتموت معه ، وغير ذلك .

وحرمت الشريعة رمى الطير للتلهى، وعبث الأولاد بالطيور والتحريش بين الحيوانات كما يفعل الأسبانيون مع الثيران ، وبعض الأمم بين الديوك

والكلاب ، ومنعت اثقال الحمل على الدابة ، وأوجبت حسن رعايتهـا وسقايتها والا فللقاضى نزعها من صاحبها .

حكايات عن الرحمة

وقد كان لهذه التعاليم أثر بالغ فى البدو والمتوحشين ، فقد روى أن عدى بن حاتم ، وقد ملك الاسلام قلبه ، كان يفت الخبز للنمل ، ويقول : انهن جارات ولهن حق .

وروى عن الشيخ أبى اسحق الشيرازى أنه كان يمشى فى طريق يرافقه بعض أصحابه ، فعرض له كلب ، فزجره رفيق الأستاذ ، فنهاه وقال : أما علمت أن الطريق مشترك بيننا وبينه ..!

وفى الحديث : «اذا رأيتم ثلاثة على دابة فارجموهم حتى ينزل أحدهم»

وكتب الفقه تفيض بأحكام الرفق بالحيوان ، مما يشير الى مقـدار ماقصدت اليه الشريعة من الرحمة بمخلوقات الله .

فالرحمة من أسس الدعوة المحمدية وأصولها ، بل هى المقصودة من اقامة الدولة . وخير للناس أن يلهوا بغير صلاة وصوم وحج ، وخير لهم أن يعيشوا بغير مساجد وبيع وكنائس اذا نزعت الرحمة من صـدورهم فالدين والدولة بلا رحمة ينقلبان الى خداع وظلم .

فاللهم انزل الرحمة فى الصدور حتى يصرف البلاء عن العالم

الإخــاء

آية هى دستور الاخاء والمساواة ـ تصوير عجيب اوقع البر لدى الله ـ آيات فى تهديد ذوى القسوة والبخل ـ ـ قدامى العرب وفهم الاخاء والمساواة ـ اخاء شامل بين المسلمين واهل الكتاب ـ بقايا الاخاء فى العالم الاسلامى ـ ذكرى اخوة فى البانيا ـ الاخاء فى العالم الاسلامى

نبسط الحديث فى هذا الفصل عن الأساس الثانى للاحسان ، وهو الاخاء الذى صار دعوة عالمية محببة لدى أهل هذا العصر جميعا .

كان المجتمع العربى قد قسمته العصبيات القبلية والقسوة الفردية وكان المجتمع الانسانى قد سادته كذلك العصبية والجنسية والفخر بالأنساب حين جهر الرسول بالدعوة الى الاخاء صادعا بنداء الله :

آية هى دستور لاخاء البشرى

يأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم » وقد نادى بالاخاء قسيما وقرينا للرحمة ، وقرر أن بهما تقتحم العقبة ويسعد الناس ويدخلون الجنة « فلا اقتحم العقبة . وما أدراك ماالعقبة ! فك رقبة ، أو اطعام فى يوم ذى مسغبة ، يتيما ذا مقربة ، أو مسكينا ذا متربة، ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة » .

وآيات الكتاب الكريم ، والأحاديث فى الترغيب فى الاخاء والرحمة مستفيضة .

تصوير عجيب اوقع البر لدى الله

وفى حديث قدسى : ان الله عز وجل يقول يوم القيامة : « يا ابن آدم مرضت فلم تعدنى ! فيقول ابن ادم : يارب كيف أعودك وانت رب العالمين ؟! فيقول الله : أما علمت أن عبدى فلانا مرض فلم تعده ؟ اما انك لو عدته لوجدتنى عنده ! ياابن آدم . استطعمتك فلم تطعمنى ! فيقول يارب كيف أطعمك وأنت رب العالمين ؟! فيقول الله : أما علمت أن عبدى فلانا استطعمك فلم تطعمه ؟ أما انك لو أطعمته لوجدت ذلك عندى . ياابن

آدم استسقيتك فلم تسقنى فيقول كيف أسقيك وأنت رب العالمين ! فيقول استسقاك عبدى فلان فلم تسقه أما انك لو سقيته لوجدت ذلك عندى » .

انظر الى هذا المعنى السامى فى هذا الحديث الجليل ، فان الله مع عباده فى كل لحظة وحالة وان البر بالناس بر بالله . وما هو فى حاجة لبر ولكنه لا يرضى الا أن يكون كأنما البر لذاته . ولذلك سمى الاحسان والتصدق على الفقراء قرضا له تعالى فقال : « من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة » . ولا أظن أن منازعا يستطيع أن ينازعنا فى أن الاخاء والرحمة هما الأصل بالنسبة لمبادىء الاحسان فى الدعوة المحمدية ، كما أنهما الغاية منها ، فهى لم تترك سبيلا من الترغيب والترهيب الا سلكته لتنطوى النفوس على الاخاء والرحمة ، وتنفر القلوب من الأثرة والأنانية . انظروا الى هذه الآية فهى حتى فى عباراتها تصعق بهولها غلاظ القلوب :

تهديد شديد لذوى القسوة والبخل

« كلا بل لاتكرمون اليتيم . ولا تحاضون على طعام المسكين وتأكلون التراث أكلا لما . وتحبون المال حبا جما كلا اذا دكت الأرض دكا دكا وجاء ربك والملك صفا صفا . وجىء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الانسان وأنى له الذكرى يقول ياليتنى قدمت لحياتى فيومئذ لا يعذب عذابه أحد . ولا يوثق وثاقه أحد » .

قدماء العرب وفهم الاخاء والمساواة

كانت الدعوة الى الاخاء غريبة كالدعوة الى التوحيد والدعوة الى البعث ، فأنكرها العرب الذين لايعتزون بغير العصبية ، ولا ينزلون للاخاء مع من هم أدنى ، كالأرقاء والضعفاء ، وكان لابد من حملهم عليه لأنه أساسى فى نجاح الدعوة .ولكن كيف يتم ذلك وهم المستهزئون بجماعة (محمد) من المستضعفين والعبيد وقد تآخوا فى الله مع السادة والأشراف اخاء جميلا ، حتى حكى عن المتكبرين أنهم قالوا مثل قول قوم نوح « مانراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا » .

وقد أكد الكتاب هذا المبدأ السامي ووسعه حتى شمل أخوة البشر جميعا فقال : « يأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا انى بما تعملون عليم . وان هذه أمتكم امة واحدة وأنا ربكم فاتقون » .

ولما تمكنت دعوة الاخاء ، فى النفوس من الله بها على المؤمنين كأكبر نعمة فقال « واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا » ولم تكن الدعوة الى الاخاء قاصرة على المهاجرين والأنصار ، ولكنها كانت عامة « قل ياأهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله » . « شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا والذى أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » . « قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لانفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » .

اخاء شامل بين المسلمين وأهل الكتاب

فالدعوة المحمدية قد قامت اذن: على رسالة للناس كافة لعبادةالله وحده وليكون الناس أمة واحدة . والأخوة فيها هى أخوة العقيدة ، لاتفرق بين الشعوب والقبائل ، والأبيض والأسود والأصفر ، ولا الغالب ولا المغلوب ولا الأراضى والاوطان ، بل تدعو الى أخوة حدودها البشرية ، تحرم الاعتداء ، وتدعو الى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، حتى فى حالة النزاع مع المعتدين وردهم عن عدوانهم بالحرب ، فان فكرة الأخوة البشرية تتخذ أيضا نبراسا يهتدى به المؤمنون فى ظلام الحرب ، فهم لا يحاربون للفتح ، ولا للسلب ، ولا للقهر واذلال الناس ، وانما لحرية العقيدة . « لااكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » . « وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله » .

حتى فى حالة الحرب مع الوثنيين ، يعتبر الاسلام الأخوة البشرية أصلا فى النزاع ، فالمؤمن الذى يعتقد أن الوثنية هى أسوأ مايصاب به الانسان فى روحه وعقله ومصيره ، انما يريد للوثنى أن ينجو مما هو فيه ،

وما هو معرض له من غضب الله ، فاذا قسا عليه ليرده عن كفره ، فانما يريد بذلك رحمته وهو معترف بأخوته كما قيل :

فقسا ليزدجروا ، ومن يك حازما   فليقس أحيانا على من يرحم

وهذا الوثنى الذى يحاربه المؤمن متى كان معتديا ، يستحق من المؤمن جميع الحقوق بمجرد تسليمه لله ، ويصبح مساويا له تمام المساواة، فهو اذن : لا ينازعه لنكران اخوته ، أو لعدم الرغبة فى رحمته ، بل لتمام هذه الرحمة أو هذه الأخوة .

فنستطيع اذن أن نقول : ان الرحمة والاخاء أصلان من أصول الدعوة الاسلامية مقصودان لذاتهما ولأثرهما ، حتى فى أشد حالات النزاع والخلاف والحرب، وان الأخوة العامة هى مقصد أسمى للرسالة المحمدية، لا كما يدعى بعض الأجانب ، ولا كما يظن الحمقى من أن الاسلام دين حرب وقسوة وقهر .

وعليه فالاحسان أو العمل الصالح ، أن نسعى الى الاخاء العام وأن تكون الرحمة شعارنا وهدينا فى كل زمان ومكان .

الاخاء معجزة الاسلام

وقد كان للدعوة المحمدية أثرها العظيم فى هذا ، بل كان أكبر معجزاتها ماأحدثته من أخوة بين طوائف من البشر كانت أشد الأقوام تدابرا وتناكرا وشقاقا . ولو قلبنا صفحات التاريخ قبل الاسلام ،و نظرنا فيها الى حال الأمم التى دانت بالدعوة المحمدية فيما بعد ، مابين جبال الهملايا وجبال البرانس ، فى طول الدنيا شرقا وغربا ، لأدركنا الأثر الهائل الذى أحدثته الدعوة الى الأخوة والتراحم فى نفوس مئات الملايين من البشر على ممر هذه القرون .

بقايا الاخاء فى العالم الاسلامى

ولا تزال هذه الأخوة التى دعا اليها محمد صلى الله عليه وسلم أحسن مابقى فى نفوس مسلمى اليوم ، رغم ماهم عليه من بعد عن روح الاسلام ، فهى متجلية فيهم لمن يرحلون فى أطراف الأرض الاسلامية كما تجلت لابن بطوطة قبل سبعة قرون ، ولمن قبله ومن بعده .

ذكرى الاخاء فى البانيا

وقد شعرت بها لأول مرة فى شبابى فى جبال الأرنؤوط بألبانيا ،فقد دخلت تلك البلاد ولا عهد لى بها ولا معرفة بأحد من أهلها وكان طريقى اليها من بحر الأدرياتيك ، فنزلت (بكاترو) وذهبت الى (ستنجة)عاصمة الجبل الأسود وقتئذ وكان أهل الجبل فى حالة حرب مع الدولة العثمانية وكنت متنكرا بصفة مراسل لجريدة انجليزية ، أقصد التطوع مع المدافعين عن (أشقودره) من الترك والألبان ، فلمحت فى المدنية اسما اسلاميا على دكان ، فقدمت نفسى الى صاحبه ، وكأنما كنا على موعد ! رغم أن حديثنا كان بالاشارة . وما لبث أن جاء لى بفقية يعرف قليلا من العربية ، فتفاهمنا وتولى الرجل بعد ذلك أمرى كله حتى وصلت الى أشقودره ، وتنقلت فى بلاد الأرنؤوط من الشمال الى الجنوب ، يوصى بعضهم بعضا بى .ولو كنت بين أهلى ماوجدت منهم حبا أكثر مما أوجدته لى الاخوة الاسلامية فى تلك الأيام العصيبة ، أيام حرب البلقـــان . بل انى لا أزال أذكر أنهم أوجدوا لى فى كل بلد من يعرف العربية ومن يلازمنى لخدمتى ومعاونتى

وهذه الروح ذاتها هى التى وجدتها فى شمال افريقية أثناء الحـــرب العامة من مصر الى الجزائر . وهى التى لمستها فى الهند حينما كان الناس يحفون بى ويستبشرون ، ولما علموا أن مصر صارت دولة مستقلة واننى رسولها الى الأفغان فرحوا كأنما أيام عزهم قد أقبلت !.

هذه الروح التى خلقتها الدعوة المحمـــدية الى الأخـــوة ، هى التى شهدتها كذلك فى ايران والأفغان وتركيا والعراق والشام والحجاز وغيرها، وفى كل جولة من جولاتى فى بلد لاتزال للاسلام أو بقى فيها مسلمون ، وهى التى يخرج بها معتزا الأفغانى من المشرق او الفلاتى من أقصى افريقية الغربية فيطوى آلاف الأميال سيرا الى مكة ، متوكلا، لأنه يمشى من أهل الى أهل ، ومن اخوان الى اخوان ، حتى يرد المكان الذى جهر فيه محمد بالدعوة الى هذه الأخوة العامة .

كنت مرة قاصدا من الرياض عاصمة نجد الى مكة ، وبينهما ســـفر خمسة أيام بالسيارة ، ففى اليوم الثانى لاح لى رجلان يمشيان ، فوجهت السائق ناحيتهما ، وسألتهما أصلهما وقصدهما ، فلم يفهما لعدم المامهما

باللغة العربية اذ أنهما من (قندهار) بالأفغان ، وكان موسم الحج مقبلا، فأدركت أنهما يريدان الحج فشق على أن أتركهما وحملتهما معى الى مكة. وفى الليالى التى قضيناها بالطريق ، رغم جهل بعضنا لغـة بعض ، كانت روح الأخوة ناطقة بكل حاسة . ولولا هذه الأخوة لما طوى هذان الرجلان الأرض ، لايملكان شيئا من الدنيا الا أن الدعوة المحمدية قد آخت بينهما وبين البلوش والفرس والعرب ممن تنقلوا فى أوطانهم .

اخاء ليس له نظير

وقد كان أثر الدعوة المحمدية الى الاخاء والرحمة أعظم ظهـورا فى تاريخ المسلمين من أية دعوة مماثلة فى التـاريخ البشرى . واذا اعترض معترض بما بين اليهود من تعاون ، فان هذه حالة شاذة سببها دوام اضطهاد جماعتهم وتشتتها ووجودها فى حالة أقلية ، ولأن مابين اليهود هو عصبية عنصرية جنسية مبعثها الدم وليس العقيدة التى تدعو الى الاخاء الانسانى. أما الأخوة التى دعا اليها محمد صلى الله عليه وسلم وأقامها الاسـلام فى النفوس ، فكان أعز أيامها أيام العز السابق ، وقد حملها العثمانيون الى شرق أوروبا ، كما حملها العرب من قبل الى غرب أوروبا ومجاهل افريقية وآسيا ، فكان الناس تحت رايتهم سواسية كأسنان المشط ، لافضـل لعربى على عجمى الا بالتقوى والعمل الصالح ، ولا سلطان لمسلم على غير مسلم الا بما تقتضيه حدود عدالة الله .

وقد كان أهل الملل الأخرى فى الدول الاسلامية أهـل ذمة ، لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ، فلهم ما يقتضيه العدل والرحمة ، وعليهم ما يقتضيه الاخاء .

والآن ، وهذا العالم المضطرب ، يأكل قويه ضعيفه ، والناس فى أنكر صور القسوة يتقاذفون بالهول ليجنوا مغانم وأسلابا لاشك أنهم فى أشد الحاجة الى التذكير بدعوة الاخاء والرحمة ، والى ظهور هذه الدعـوة قوية عزيزة ، كما كانت .

ولله الأمر من قبل ومن بعد .

(٢)

فى الإصلاح الاجتماعى

التطهير الخلقى للفرد

نموذج الانسان الكامل – أثر القدوة العملية – أثر العقيدة فى توجيه الخلق للخير العام – عبد الملك بن مروان وأبو حازم – التاجر الناصح القانع – نظرة عمرية لحقيقة الصلاح

كانت الدعوة الاسلامية ثورة اجتماعية مهما قلبنا عن شبيه لها فى الشرق والغرب ، والقديم والحديث ، فلن نجد لها مثيلا .

وأعظم آثار هذه الثورة هو الانقلاب الخلقى والنفسانى الذى أحدثه محمد صلى الله عليه وسلم بعمله ومثله وشخصه ، وأحدثه بمبادئه وسننه، فكان نتيجة ملازمة ومباشرة لدعوته . وهو أساس مراتب الاصلاح الاجتماعى ، لأن صلاح الفرد أساس صلاح الجماعة .

يقول تعالى فى وصف محمد صلى الله عليه وسلم : « وانك لعلى خلق عظيم » . ويقول محمد صلى الله عليه وسلم . « انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » و « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » .

نموذج الانسان الكامل

وحقا تمثلت الأخلاق الفاضلة فى شخصه الكريم ، فالصدق والبر ومعرفة الواجب وأداؤه والحلم والحياء والصبر والشجاعة والعزة والتواضع والعفة والوفاء ، كل أولئك كان بعض صفاته البارزة التى قربته الى القلوب ، فتعلق الناس به ، وتركوا فى حبه جاهليتهم وآباءهم وأبناءهم

وقد أدرك العلماء من غير المسلمين هذه الحقيقة فى شخص محمد صلى الله عليه وسلم ، ولكنهم لم يوفقوا الى الايمان به رسولا من الله تعالى ، ولعل ذلك أثر من اثار البيئة فيهم .

كنت مرة فى (لندرة) أتحدث فى القطار الى السير (دنسون روس) وكان من العلماء المستشرقين ، فذكرنا محمدا صلى الله عليه وسلم ،فسألته: هل يعتقد أن محمدا كان ينافق ويكذب ؟ فقال : كلا . ان صدقه واستقامته لاشك فيهما ، ولكنه كان مخدوعا ، يعتقد أنه يوحى اليه ولم يكن يعمل الا بما يعتقد .

فهاهى ذى القــرون تتتابع ، وأخلاق محمد صلى الله عليه وسلم من الوضوح والقوة بحيث لايستطيع أن ينكرها عليه جاحد برسالته مصداقا لقوله تعالى : « فانهم لايكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ».

أثر القدوة العملية

كان لمثله الشخصى أكبر الأثر فى الانقلاب الروحى والخــلقى الذى تم فى أيامه وبعد وفاته . وكذلك كان أثر المبادىء التى سنها ، والعقيدة التى دعا اليها . فمبادىء المساواة والاخــاء والحرية التى جعلها أجــزاء متممة للايمان قد فعلت فعلها فى اصلاح الأخلاق والسمو الروحى للجماعة

العقيدة فى التوجيه للخير

وكذلك فعلت عقيدة الايمان بالله وحده لاشريك له ، له الملك وله السلطان، بيده النفع والضر والمنع والعطاء ، تتساوى الناس فى ملكوته وفى العبودية له فسما بالروح البشرية وحررها ووجهها الى الخير العام وقصــد وجه الله القدير الذى بيده كل شىء ، وجعــل مناط الأعمال النية التى يعلمهــا ويحيط بها علام الغيوب . فهيأ بهذه العقيدة السبيل الى الأخلاق الفاضلة.

فالذى يدين بها لايكذب ، لأن الكذب لايخفى على الله ولا ينفــع صاحبه ، فصار الصدق من دعامات الأخلاق فى الدعوة المحمدية ، وصار الرياء والنفاق يبعد عن الله ، ولا يكسب الأعمال الا بوارا ، واســتحال بذلك على المسلم المؤمن أن يكون كاذبا أو مرائيا .

والمؤمن شجاع الرأى والقلب لا يهاب الموت ، لأن الذى يملكه هو الله وحده ، وبذلك ترتفع نفسه الى العزة والاباء والاستشهاد فى الحق وترفض الظلم أو التحقير ان وقع عليه أو على اخوانه من عبيد الله .

والمؤمن بهذه العقيدة لا يكون جبانا مستسلما ، بل يحيا مناضلا ، يدفع شرور الحياة عن نفسه وعن الناس بحياته .

المؤمن يعتقد أن الله هو الذى يعطى ويمنع ويرزق من يشاء بغير حساب ، فلا يبخل بما فى يده ، بل يبذل ارضاء لهذا الرازق وطلبا لبره وكرمه ، ويعيش سخيا كريما سمحا مع اخوانه عباد الله .

كذلك لا يكون المؤمن أنانيا ، فان عقيدته تمنعه من أن يختص نفسه بالمتاع ، وهو يعلم أن فى ذلك حرمانا لعيال الله من المشاركة فى فضــل

الله ، فهو انسان يكمل انسانيته بالشعور بجنسه ، يعيش بنفسه وأهـله وجيرته وأمته والناس جميعا .

هو حسن المعاملة والعشرة ، وفى ، ودود ، لأن كل ذلك من متممات ايمانه ومستلزمات خضوعـه للذات العلية التى رفعته واستخلفته فى الأرض .

فالعقيدة الاسلامية التى دعا اليها محمد صلى الله عليه وسلم ، والتى مكنها فى نفوس أصحابه وأتباعه هى بذاتها الدعامة الكبرى للاصلاح الاجتماعى ، فقد نشأ عنها وترتب عليها حياة روحية خلقية فاضلة ، لها المقام الأول فى نفس المسلم ، وما بعدها من مادة انما يكسب قيمتـه وأهميته بقدر صلاحه لاعزاز هذه الروح وتمكينها .

وفى المجتمع الاسلامى الذى تسوده العقيدة الصحيحة لا يمكن أن تسيطر المادة على الأفكار والأعمال والأخلاق والتصرفات البشرية سيطرة تشبه فى قليل أو كثير ما يعانيه العالم اليوم من سيطرة المادة .

سليمان عبد الملك وابو حازم

روى أن سليمان بن عبد الملك الخليفة الأموى قدم المدينة للزيارة ، وبعث الى أبى حازم ، فلما دخل عليه قال : تكلم يا أبا حازم قال : نعم أتكلم يا أمير المؤمنين : لا تأخذ الأشياء الا من محلها ، ولا تضعها الا فى أهلها . قال : ومن يقوى على ذلك ؟ قال من قلده الله من أمر الرعيـة ما قلدك . قال : عظنى يا أبا حازم . قال : أعلم أن هذا الأمر لم يصـل اليك الا بموت من كان قبلك ، وهو خارج من يديك بمثل ما سار اليك . قال : مالك لا تجيىء الينا ؟ قال وما أصنع بالمجيىء اليك يا أمير المؤمنين ؟ ان أدنيتنى فتنتنى ، وان أقصيتنى أخزيتنى ، وليس عندك ما أرجوك له ، ولا عندى ما أخافك عليه . قال : فارفع الينا حاجتك . قال : قد رفعتها الى من هو أقدر منك عليها ، فما أعطانى منها قبلت ، وما منعنى رضيت .

ذلك هو أثر الدعوة المحمدية فى أخلاق الرجال ، ترفعها وتطهرها .

وتاريخ الصحابة والتابعين ، بل تاريخ المسلمين فى جميع الأقطار يفيض بصفحات من الأمثلة العالية فى الورع وحسن المعاملة والبعد عن الفحش والاخلاص فى النصح لعباد الله .

التاجر الناصح الزاهد

يروى أنه كان عند يونس بن عبيد حلل مختلفة الأثمان ، ضرب قيمة كل حلة منه أربعمائة ، وضرب كل حلة قيمتها مائتان ، فمر الى الصلاة وخلف ابن أخيه فى الدكان ، فجاء أعرابى وطلب حلة بأربعمائة ، فعرض عليه من حلل المائتين فاستحسنها ورضيها واشتراها ، فمضى بها ، وهى على يديه ، فاستقبله يونس فعرف حلته . فقال للأعرابى بكم اشتريت ؟ فقال : بأربعمائة . فقال : لاتساوى أكثر من مائتين ، فارجع حتى تردها . فقال : هذه تساوى فى بلدنا خمسمائة وأنا أرتضيها . فقال له يونس : انصرف فان النصح فى الدين خير من الدنيا بما فيها ، ثم رده الى الدكان ، ورد عليه مائتى درهم وخاصم ابن أخيه فى ذلك وقال له : أما استحييت ؟ أما اتقيت الله ؟! تربح مثل الثمن وتترك النصح للمسلمين ! . فقال والله ما أخذها الا وهو راض بها . قال : فهلا رضيت له بما ترضاه لنفسك ؟!

وروى عن محمد بن المنكدر أن غلامه باع لأعرابى فى غيبته شقة خمسيات بعشرة ، فلم يزل يطلب ذلك الأعرابى طول النهار حتى وجده . فقال له : ان الغلام قد غلط فباعك ما يساوى خمسة بعشرة . فقال ياهذا قد رضيت . فقال وان رضيت فانا لانرضى لك الا ما نرضاه لأنفسنا ورد عليه خمسة .

تلك أخلاق من تمكنت الدعوة المحمدية من نفسه ، فعمل بقوله صلى الله عليه وسلم « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » .

فالمسلم لا يخدع ولا يغش ولا يغبن .

قيل لعبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه : ما سبب يسارك ؟ قال : ثلاث : ما رددت ربحا قط ، ولا طلب منى حيوان فأخرت بيعه ، ولا بعت بنسيئة .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « رحم الله امرأ سهل البيع ، سهل الشراء ، سهل القضاء ، سهل الاقتضاء » .

وكذلك كان أثر الدعوة المحمدية حاسما فيمن اهتدوا بهديها ، وكان الدين المعاملة ، فلم يكن تنطعا ولا تكلفا ولا تظاهرا ، بل ايمانا وعملا ظاهرا وباطنا ، لأن الله أحق أن يخشاه الناس من خشية بعضهم بعضا .

نظرة عمرية لحقيقة الصلاح

شهد عند عمــر رضى الله عنه ، شاهد .. فقــال ائتنى بمن يعرفك . فأتاه برجل ، فأثنى عليه خيرا . فقال له عمر : أنت جاره الأدنى الذى يعرف مدخله ومخرجه ؟ قال : لا . قال كنت رفيقه فى السفر الذى يستدل به على مكارم الأخلاق ؟ قال : لا . قال : فعاملته بالدينار والدرهم الذى يستبين به ورع الرجل ؟ قال : لا . قال : أظنك رأيته قائما فى المسجد يهمهم القرآن ، يخفض رأسه تارة ويرفعها أخرى ؟ قال : نعم . فقــال : اذهب فلست تعرفه ! . وقال للرجل اذهب فأتنى بمن يعرفك ...

التكافل

أمة واحدة ـ جماعة المسلمين تقوم على التكافل ـ مسئولية الفرد ومسئولية الجماعة ـ ايقاظ ضمير الفرد وضمير الجماعة ـ حراسة الرأى العام ـ عزائم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ـ العلاج بالتشريع ـ مرد الاصلاح عامة الى الاحسان ـ تكافل المهاجرين والأنصار ـ مثل من التكافل فى قبائل الطوارق

أمة واحدة

يقول تعالى « ان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون » ويقول صلى الله عليه وسلم « مثل المؤمنين فى توادهم وتعاطفهم مثل الجسد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » .

جماعة المسلمين تقوم على التكافل

والفرق بين الاسلام وأكثر الملل الأخرى أنه لم يكتف بتنظيم العبادات وترك ما وراء ذلك لقيصر أو لغيره من الناس ، بل نظم المعاملات والعلاقات والحقوق والواجبات بين أفراد الأسرة ، وأفراد الأمة ، وبين الأمم المختلفة وجعل هدفه الأول المجتمع وصلاحه ، حتى ان العبادات نفسها قد تكون من وسائل هذا الاصلاح ، والأمة الاسلامية فى المجتمع البشرى وحدة موثقة العرى ، متساندة متكافلة متعاونة تدفع ما يتطرق اليها من الفساد بوحداتها ومجموعها .

هذا التكافل الاجتماعى واضح فى جميع نواحى الدعوة المحمدية ، وأظننا لو قلبنا تاريخ البشر لا نجد حالة ظهر فيها التكافل والتعاون والتراحم بين جماعة ما : كظهوره فى جماعة المسلمين فى العصور الأولى ، بل فى كل عصر من العصور قبل أن تلتاث العقول وتفسد القلوب ويفتتن الناس بالحضارة الأوربية الحديثة .

مسئولية الفرد والجماعة

ان مسئولية الفرد فى المجتمع الاسلامى عن الجماعة ، ومسئولية الجماعة عن الفرد ، مسئولية عظمى هى أمانة الحياة ومناط تكليفاتها ، ولذلك كره الاسلام للفرد أن يتوحد ويعتزل ويشرد عن المجتمع وينكر الصلة بينه وبين غيره ، حتى لقد كره الاسلام ذلك فى العبادة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان هذا الدين متين فأوغل فيه برفق فان المنبت

لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى » كما كره للجماعة أن تهمل العناية بالفرد وأوجب عليها أن تصون مصالحه ، وتحترم حقوقه وحريته ، وتوفق بين المصالح المختلفة ، وفضل الصلاة فى جماعة على صلاة الفرد وحده بسبع وعشرين درجة .

فالفرد فى المجتمع الاسلامى جزء فى كل ، يكمله ويكتمل به ، ويعطيه ويأخذ منه ، ويحميه ويحتمى فيه .

ايقاظ ضمير الفرد وضمير الجماعة

هذه المسئولية الفردية عن الجماعة ، وهذه المسئولية الجماعية عن الفرد ، هما أولى وسائل الاسلام فى الاصلاح والتكافل الاجتماعى . وقد أكد الاسلام معانى هاتين المسئوليتين فى ضمير الفرد وضمير الجماعة ، ليضمن للمسلمين حياة الجسم الواحد الصحيح القوى السعيد المنتج ، فقال للفرد : « أنت على ثغرة من ثغر الاسلام فلا يؤتين من قبلك » الحديث .

« كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، والأمير راع والرجل راع على أهل بيته ، والمرأة راعية على بيت زوجها وولده ، فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » الحديث

« أوحى الى أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد » الحديث .
« أرأيت الذى يكذب بالدين . فذلك الذى يدع اليتيم . ولا يحض على طعام المسكين » الآية « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » .

وجعل فى دعاء الفرد قوله : « ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا » الى آخر النصوص التى توجه قلب الفرد للجماعة وتدمجه فيها ادماجا تاما.

وقال للجماعة : « انما المؤمنون اخوة فأصلحوا بين أخويكم » الآية « المسلمون تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم » الحديث « انصر أخاك ظالما أو مظلوما فقال رجل : أنصره اذا كان مظلوما ، أرأيت ان كان ظالما كيف أنصره ! ؟ قال : تمنعه من الظلم ، فان ذلك نصره » الحديث

وضرب مثلا رائعا لوصاية الجماعة على الفرد ومسئوليتهم ازاء جناياته ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان قوما ركبوا سفينة فاقتسموا ، فصار لكل منهم موضع ، فنقر رجل موضعه بفأس ، فقالوا له : ما تصنع ! ؟ قال : هو مكانى أصنع فيه ما أشاء ! فان أخذوا على يده نجا ونجوا ، وان تركوه هلك وهلكوا » .

* * *

هذا التقابل بين الفرد والجماعة فى المسئولية العامة عن المصالح هو أساس مقاومة الآفات الاجتماعية ، وجميع وسائل الاصلاح لا تنتج نتائجها اذا لم تكن قبلها هذه الوسيلة .

وخلافة الانسان عن الله فى الأرض ووصايته على مقدراتها ، لاتتحققان الا بهذا التكافل الاجتماعى .

فعلى الذين يريدون مقاومة الآفات الاجتماعية أن يوقظوا أولا ضمير الفرد للجماعة وضمير الجماعة للفرد ، وأن يؤكدوا معانى المسئوليتين السابقتين ، حتى يحس الفرد احساس البنوة والبر بالجماعة ، وتحس الجماعة احساس الأمومة والرعاية للفرد .

حراسة الرأى العام

ينشأ من ادراك المسئوليتين السابقتين والاضطلاع بهما ، ما يسمى حديثا « الرأى العام » ذلك الحارس اليقظ لكيان الأمة اذا كان مبنيا على بصيرة ووحدة فى القصد والهدف ، وهو السلطة الرهيبة التى تقوم الحكام والأفراد ، وبه تهتز الأمة وينتفض جسمها انتفاضة الغضب اذا أصابه سوء أو فساد ، كما يهتز جسم الفرد وينتفض لما يصيبه من مكروه وهو أمضى سلاح للقضاء على الآفات الاجتماعية ، ويفعل مالا تفعل القوانين . وهو العين الساهرة على تنفيذ القوانين ، واحترام القواعد الأدبية ، والسنن الصالحة التى أقرها المجتمع .

عزائم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

ولذلك عنى الاسلام بتكوينه كرقيب يهذب من شذوذ الفرد ، ويحد من غلو الجماعة ، فجعل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من أكبر عزائم الاسلام وأعظم أسس الحياة الاجتماعية الصالحة .

والقرآن يقول : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » وقال : « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون » وفى الحديث النبوى الشريف : « لما وقعت بنو اسرائيل فى المعاصى نهتهم علماؤهم فلم ينتهوا ، فجالسوهم فى مجالسهم وواكلوهم وشاربوهم ، فضرب الله قلوب بعضهم ببعض ، ولعنهم على لسان داود وعيسى بن مريم ؛ « ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » . ثم جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان متكئا ، وقال « لا والذى نفسى بيده ! حتى تأطروهم على الحق أطرا » أى تعطفوهم وتميلوهم .

فكل ما هو من حق الله أو حق الجماعة ينبغى ألا يجامل فيه اذا اعتدى عليه معتد كائنا من كان .

كبر آفاتنا الاجتماعية ناشىء من أن الرأى العام الصالح لم يتكون بيرا ما نرى أفرادا يجاهرون بالاعتداء على حرمات الدين والدولة حقوق العامة ، ومع ذلك لا يحرك الجمهور ساكنا للانكار ، أو الاعتراض لأن الجماعة هنا تعيش فى ذهول عن نفسها وحقوقها وواجباتها ؛ اذ هى جماعة موزعة مشتتة الأهواء غير متجانسة التربية والتعليم ، التربية والثقافة فيها غير مطبوعتين بطابع واحد ، قد صبت فيهما جداول مختلفة بلبلت أخلاق الأمة وتفكيرها وايمانها ، وجعلت الشىء الواحد حسنا وقبيحا لديها فى آن واحد : حسنا لدى جماعة وقبيحا لدى أخرى .

فتقدير المسئولية الفردية ومسئولية الجماعة ، وايجاد الرأى العام الصالح لا يكون الا بالدعوة والاقناع ، ومتى أدرك الكل الحقوق والواجبات ادراكا صحيحا ظهر الرأى العام موحدا قويا ، فيقوم المعوج ويصلح الفاسد .

فالدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة التى تصل الى أعماق النفوس فتبذر بذور الخير وحب الحق وتجتث أصول الشر وأسباب الآفات ، هى الفاتحة التى لا بد منها .

ومفتاح كل أمر من أمور الاصلاح هو الوصول الى النفس أولا . وقد أشار القرآن الكريم الى ذلك فقال : « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

وقد كان الارشاد الاجتماعى المبنى على الاقناع أحد الأسلحة القوية التى لجأ اليها الاسلام للاصلاح الاجتماعى ؛ فكان الرسول صلى الله عليه وسلم يقرع الآذان بالقرآن والحديث ليصل الى القلوب والعقول ، حتى تعرف الحق وتدرك الرشد ، وتقوم عليها الحجة ويسقط عذرها أمام نفسها وأمام الله ؛ ولذلك سبق عهد الدعوة عهد التشريع والالزام ؛ ومكث رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو الناس ثلاث عشرة سنة ، حتى تسربت دعوته الى قلوب القوم واشتغلت بها أنديتهم فتساءلوا عن نبئها العظيم .

العلاج بالتشريع

فلما انتشرت الدعوة ، ووجد الرأى العام لها فى المدينة ، ابتدأت مرحلة التشريع والالزام .

كذلك عالج الاسلام آفات المجتمع العربى وقتئذ بالدعوة ثم بالتشريع . واليوم ، على الذين يريدون علاجها أن يسلكوا هذه السبيل ، فيجب أن تتخذ الدعوة أساسا للاصلاح قبل التشريع ، ويجب أن يلحظ التدرج فى التشريع وترك الطفرة ، حتى يتهيأ الجو الصالح وتستعد طباع الجماعة لقبول ما يلقى عليها من الأوامر والالزامات .

وقصة تحريم الخمر فى الاسلام بالدعوة أولا ، وبالتدرج فى التشريع ثانيا ، تبين لنا أسلوب الاسلام فى التوصل الى أغراضه خطوة خطوة .

* * *

مرد الاصلاح عامة الى الاحسان

قلنا ان الاسلام اتخذ الدعوة وسيلة للاصلاح الاجتماعى ، ثم لجأ الى التشريع لحماية مقاصد هذه الدعوة ، وقد جعل الحياة كلها ترمى الى الايمان والاحسان فى العمل فهو يحدد للفرد والجماعة الحقوق والواجبات على أساس هذا الاحسان . فكل تكليف وكل حق ينشأ فى المجتمع الاسلامى انما ينشأ بسبب واحد هو الاحسان للفرد أو للجماعة ، وأى

عمل من شأنه أن يباعد من الخير أو يقرب من الشر ، سواء أعاد هـذا العمل على صاحبه أم على غيره ، فهو محرم .

لذلك نجد الاسلام قد تناول جميع نواحي الحياة ، وحدد فيها المسئولية لتحقيق قصده ، وهو الحياة السعيدة التى يريدها للناس فى هذه الدنيا ، والتى جعلها وسيلتهم لحياة أرقى وأسعد فى الآخرة .

فمثلا يقول نبى الاسلام « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » الى آخر الحديث السابق . فلم يخل أحـدا من مسئوليته عن الآخر ، فأمير المؤمنين مسئول عن المؤمنين ، ووكلاؤه وأمناؤه مسئولون عما بين أيديهم من سلطته ، ورب الأسرة مسئول عن أسرته ، والمرأة مسـئولة عن بيتها ، والفرد مسئول عن نفسه وجاره ، وكل فرد فى المجتمـع الاسلامى مسئول عن حسن قيام المجتمع كله ؛ لأنه مكلف كما قلنا بالعمل والدعوة لصلاح هذا المجتمع ، وبالتواصى بالحق والتعاون على البر والتقوى .

وهو مكلف بكل أولئك لغرض واحد ، هو الاحسان قاعدة الاسلام الثانية بعد الايمان وليس أنجع لمقاومة الشر وآفات المجتمع من التربية الاسلامية التى جعلت هذه المسـئولية تهبط من الأسمى الى الأدنى ، وتصعد من الأدنى الى الأعلى ، فهى التى تشد البناء الاسلامى وتمسكه من الخلل .



تكافل المهاجرين والأنصار

اتخذت الدعوة الاسلامية لتدعيم التضامن والتكافل بين المسلمين وسائل شتى ، حتى آخى الرسول بين المهاجرين والأنصار فى المدينة ذلك الاخاء الذى حل محل النسب والقربى .

ونشأت بالدعوة المحمدية جماعة متضامنة موحـدة هى مصـدر السلطات جميعا ، رأيها شرع ، وقولها فصل ، وأصبحت هذه الجماعة تكفل أفرادها كما أصبح أفرادها قوى حيـة مسئولة لا يتم ايمانها ، ولا يكمل دينها الا بالاخلاص للجماعة والتفانى فيها ، والفناء فى سبيلها . « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون »

وقد شهدت فى بعض الجماعات الاسلامية التى احتفظت بتقاليد المسلمين ، تضامنا وتكافلا لا نظير له ، لا يتمنى المصلح الاجتماعى أحسن منه لأية جماعة بشرية .

مثل من التكافل فى قبائل الطوارق

رأيت بعض قبائل (الطوارق) فى شمال افريقية يحيون حياة هـذا التكافل السعيد ، فليس فيهم من يعيش لنفسه ، وانما لجماعته . وأعظم ما يفخر به ويعتز ، هو ما يصنع لهـذه الجماعة . وأول ما لفت نظرى لحالتهم هذه أن رجلا من أهل الحضر هاجر من الفرنسيين ونزل بينهم فى فزان ، فجاورهم وعاش بفضلهم ، ثم خرج يطلب الرزق ويريد أن يرد الجميل ، وترك أسرته فى جوار هذه الجماعة الاسلامية . غير أن النحس لازمه ولم يستطع كسبا ، فجاءنا فى (مصراته) يستمدنا فأعناه ليعود الى أهله ، ولكنه عاد الى بعد نحو سنة مرة أخرى فظننت أنه رجع من أهله ، فقال لا ، وانما الآن أستطيع الرجوع الى أهلى ، فقلت وكيف ذلك ؟ قال : بعد لقائنا الأخير اتجرت بما حصلت عليه وأصبح الآن فى يدى ما أعود به الى جماعة الطوارق . فقلت : الى أولادك أم الى جماعة الطوارق ؟ قال : الى الطوارق أولا ، فهم آووا أولادى فى غيبتى ، وأنا سأكفل أولاد من أجـده غائبا منهم ، وأقسم ما أعطى الله بين أولادى وأولاد جيرانى .

فقلت : هل تعيش جماعتكم كلها كما تعيش أنت مع جيرانك ؟

قال : كلنا فى الخير والشر سواء ، والفضل لصاحب الفضل ، والواحد من جماعتنا يستحيى أن يعود الى النجع خاليا ، لا حياء من أهل بيته ، بل حياء من جيرانه الذين ينتظرون عودته كأهل بيته سواء بسواء .

ليست جماعة الطوارق هذه أو أضرابها من أهل البادية وسـكان القفر مختصة بهـذه الروح الجماعية ولا هى من مستلزمات عصبيتها ، وانما هى الروح الاسلامية أكثر ظهورا فى هؤلاء الذين لا يزالون بمعزل من الحياة الحديثة المادية وقد وجدت هذه الروح فى الدساكر والقرى الاسلامية التى لا تزال مطبوعة بالطابع الاسلامى ، سواء أكان أهلها عربا

أم عجما ، بيضا أم سودا ، فى المشرق أم فى المغرب . فقد رأيت جماعة المسلمين فى كثير منها لا يزالون يحيون حياة الخير والتضامن والتكافل والتعاون على البر .

لا يزالون أقرب الى المجتمع الصالح كما أراده صاحب الدعوة من عشرات الملايين الذين فتنوا بالحضارة الغربية المادية ، فهم يعيشون لأنفسهم ولو انقرضت جماعتهم ، ويؤثرون شهواتهم على البر بأهلهم ، فضلاً عن جيرانهم .

البـر

كلمة جامعة ـ نظرة الاسلام الى مشكلة الفقر ـ الفقر العلة والفقر لفقد الوسيلة ـ العمل هو الاصل ـ مطاردة الترف والبؤس ـ القانون والضمير ـ اشتراكية أبى ذر ـ محاربة الترف والاكتناز والربا ـ سلطة واسعة لولى الأمر ـ المواساة بشعور المساواة ـ المساواة عقيدة وشعور ونظام ـ الأشكال والمظاهر ليست غاية فى الحكم ـ حق الفقير حق الله ـ البر بغير المسلمين ـ فلننظم البر على طريقة الاسلام

كلمة جامعة

البر ركن عظيم من أركان الدعـوة ، وسبيل واضحة للاصـلاح الاجتماعى .

وقد وردت كلمة البر فى القرآن على معان شتى تحددها القرينة ، فهو الصدق والخير والاحسان على أوسع معانيه ، وطاعة الله .

ونقصد بالبر فى هذا الحـديث معنى الاحسان والمواساة للفقراء والمساكين ومن تخلف من اخواننا فى المجتمع عن السير معنا الى حياة مرضية مستغنية لعجز به أو يتم أو مصاب أو جهل ، أو غير ذلك ممـا يعرض من أسباب الضعف والفقر .

وقد سبقت الدعوة المحمدية جميع الدعوات الصالحة فى تحديد البر وتنظيمه ، وفى تعيين واجبات الأفراد والأمة والدولة فى هذا الشأن . وهى من هذه الناحية ذات نظام اجتماعى شامل يستحق من أهل الرأى والنظر فى جميع الملل عناية ودرسا .

وهذه الحرب التى قامت بين النظم الفاشية والشيوعية والديمقراطية ، داعية الى المسارعة فى بيان القواعد الاسلامية ، والسنن المحمدية ، لعل فى ذلك هدى ومخرجا مما اختلف الناس فيه .

وقد بينا كيف حارب الاسلام الفساد الاجتماعى بالدعوة والرأى العام ، وكيف يجعل من التكافل والروح الجماعية أساسا دينيا لا تستقيم السبيل الى الله الا به ، ولا يتم ايمان الفرد ، ولا تؤدى الأمة واجبها ، والدولة أمانتها الا بالعمل المتواصل على تمكينه فى النفـوس ، وجعله نظاما من نظم الحياة .

نظرة الاسلام الى مشكلة الفقر

ولننظر الآن كيف عالج الاسلام مشكلة الفقر وهى أعظم آفات المجتمع البشرى .

لم يجعل الاسلام الفقر سببا لازدراء صاحبه ، بل جعل أقرب الناس الى الله أتقاهم ؛ فالفقير على حاجته قد يكون فى نظر الاسلام أعلى من أى رجل آخر مهما كان ماله وجاهه ، وبهذا ابتدأ المواساة الأولى للفقير .

ثم نظر فى حال الفقير ؛ فاما أن يكون هذا الفقير عاجزا عن الكسب لعلة به ، واما أن يكون عاجزا عن الكسب لفقد الوسيلة الى العمل .

الفقر لعلة والفقر لفقد الوسيلة

فأما الذى يعجز لعلة لا علاج لها فقد جعل مواساته حقا على المجتمع لا تبرعا وتطوعا . قال الله تعالى : « والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » فصان بذلك كرامته الانسانية .

وأما الذى يعجز لفقد الوسيلة الى العمل فقد أوجب على الدولة ايجاد الوسيلة لتكسبه . وقد قبح الاسلام السؤال ودعا المسلم للترفع عنه ؛ « فاليد العليا خير من اليد السفلى » . وقد أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم سائلا درهما وأمره أن يشترى به فأسا وحبلا ويحتطب ، ولا يتعرض لذل السؤال .

العمل هو الأصل

والأصل فى الاسلام هو العمل والتكسب ، وقد حض عليه بجميع الوسائل ، حتى لقد فضله على الانقطاع لعبادة الله ، ولكنه كذلك أنصف المجتمع بالزام الدولة أن تعين على ايجاد العمل لمن لا يجده ، وأن تحمى من يعجز عنه .

مطاردة الترف والبؤس

وقد أراد الاسلام أن يجعل مستوى المعيشة متناسقا ومتقاربا بين أتباعه ، فحارب الترف فى أعلى المجتمع ، وطارد البؤس فى أسفله ، واتخذ لذلك وسيلتين : وسيلة الضمير وهى أقواهما ، ووسيلة القانون ؛ فجعل الحياة السعيدة الخالدة لا تنال الا بالانفاق على المستحقين من الأهل والأقربين والمساكين ، ولا ينال متاعها المترفون الذين جعلوا شهواتهم فى هذه الحياة أهدافهم .

القانون والضمير

جعل ضمير المسلم لا يستريح اذا طعم ولبس وتمتع ، وجاره ومن حوله قد عجزوا عن القوت ، وحضه حضا قويا على البذل والقناعة والحد من شهواته فى سبيل اغاثة الملهوفين والمحتاجين ، حتى لقد أمر أن يطعم السيد الخادم مما يطعم ، ويكسوه مما يكتسى .

اشتراكية أبى ذر

قال المعرور بن سويد : « رأيت أبا ذر رضى الله عنه عليه حلة وعلى غلامه مثلها ، فسألته عن ذلك فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « هم اخوانكم وخولكم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم من العمل ما يغلبهم فان كلفتموهم فأعينوهم عليه » .

محاربة الترف والاكتناز والربا

ولم يكتف الاسلام بايقاظ الضمير لهذا ، بل جعل للدولة أن تقتضى من فضلة مال الفرد مقادير لا يستهان بها لتتكفل بوسائلها هى أيضا حاجات الفقراء والمساكين .

وفى الحقيقة حين يحارب الاسلام الترف والاكتناز والربا ، ويقول : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم . هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » وحين يقول : « الذين يأكلون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس » وحين يقول : « يمحق الله الربا ويربى الصدقات » وحين يقتضى الزكاة على الأموال المكنوزة ويحرم الربا ، انما يريد بذلك كله أن يرفع مستوى الطبقات الفقيرة ، ويخفض من مستوى المترفين ، ليجعل حياة الجميع سعيدة متناسقة .

فتحريم الترف يوجه الأموال الى انتاج أكثر فائدة للجميع ، وتحريم كنزها يوجب تداولها ، وتداولها من غير ربا يؤدى الى المشاركة فيها . واذا لم يجد الناس فى الترف لذتهم وجاههم ، وجدوهما فى الاحسان والبر . واذا لم يجدوا فى الكنز ضمانا لهم ، وجدوه فى ضمانة المجتمع الاسلامى المتكافل الذى لم يهمل أحدا ولم يحتقر أحدا ، واذا لم يجدوه

فى الربا وجدوه فى لذة الكسب والمشاركة مع اخوانهم الذين يعملون فى أموالهم .

هذا الاسلام الذى حارب آفة الفقر بايقاظ الضمير وبالتشريع : جعل العمل أس المقاصد ، فأمر بالسعى وفضله على الانقطاع للعبادة ، وأمر بالجد والاتقان . وذلك لا شك أفضل الوسائل لمحاربة الفقر ، ولم يجعل جزاء العمل مقصورا على هذه الحياة ، بل وعد به فى الآخرة .

والاسلام يدفع الفقر بالدعوة الى الأخلاق الفاضلة ، ويقاوم بالحجة والحدود الشرور والرذائل . فلو أن وسائله استخدمت فى ردع أرباب الشرور والآثام ، وفى الدعوة للفضيلة والخير ، لتماسكت الأسرة الاسلامية وأدرك كل عضو فيها واجبه ، وكبح من نزعاته ، وكان ذلك من أمضى الأسلحة فى مقاومة الفقر ، اذ أن أعظم أسباب الفقر هى الاسراف فى الشهوات ، وارتكاب الآثام كتعاطى الخمور والمخدرات ، واهمال صحة البدن والأوامر الدينية التى من شأنها تقويم الأرواح والأبدان . ولو اتخذنا وسائل الاسلام فى التراحم والتعاطف ، ومبادئه فى الأخوة والتعاون ، وأيقظنا ضمير الأمة الدينى فى هذه الناحية ، لطعنا الفقر طعنة تعجزه عن أن يدخل أكثر البيوت .

ولو قامت الدولة بواجبها فى كفالة المتخلفين من اخواننا لما يصيبهم فى أنفسهم أو أبدانهم ، أو لما يصيبهم من انقطاع السبل بهم مع رغبتهم فى العمل ، وذلك بأن تكون سياستها قائمة على أساس التكافل الذى جاء به الاسلام فى قول رسوله : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » فوزعت الصدقة على من لا سبيل له غير الصدقة ، ووزعت العمل على الناس بقصد الخير العام ، ولو على سبيل الاجبار على عمل معين للقادر عليه : لو فعلت ذلك : لقاتلت هى أيضا الفقر بوسائلها الفعالة .

سلطات واسعة لولى الامر

وقد جعل الاسلام فى هذا سلطات واسعة لولى الأمر ، فله فى سبيل الاصلاح العام أن يحدث أقضية بقدر ما يحدث من المشكلات ، وله أن يكيف الأحوال لتسير وفق الغرض الأساسى للاسلام ، وهو الاحسان .

المساواة عقيدة وخلق ونظام

وقد قرر الاسلام فى وضوح وعزم مبدأ المساواة ، وهو أعظم المبادىء فى مقاومة الشرور الاجتماعية وأخصها الفقر ، وجعل هذه المساواة مستقرة فى ضمير المسلم ، ومالكة زمام تصرفاته فى العبادة والمعاملة والأدب .

ومن فضل الدعوة المحمدية على البشر أنها تبغض فى الاستعلاء والترفع على الناس ، حتى ليكاد المسلم أن يفر من مجرد الخاطر الذى يخطر بذهنه بأنه أفضل من غيره . والمسلم الصادق لا يضمر فى نفسه أنه خير من خادمه مع سيطرته عليه .

والله تعالى يشتد على الرسول نفسه ويعاتبه بالقرآن ، لأنه تصدى لقوم من رؤوس العرب يرجو من وراء ايمانهم ايمان أقوام يتبعونهم ، وتلهى بهم عن رجل فقير ضعيف جاء راغبا فى الايمان فقال :

« عبس وتولى أن جاءه الأعمى ، وما يدريك لعله يزكى ، أو يذكر فتنفعه الذكرى .. أما من استغنى فأنت له تصدى . وما عليك ألا يزكى . وأما من جاءك يسعى وهو يخشى . فأنت عنه تلهى » .

ولست تجد فى أى تشريع احتفالا بالفقراء واعتناء بشأنهم مثل ما جاءت به الدعوة المحمدية اذ تحض المسلمين على رياضة أنفسهم على احترام الغير وتقديره : « يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ، ولا نساء من نساء ، عسى أن يكن خيرا منهن ، ولا تلمزوا أنفسكم ، ولا تنابزوا بالألقاب ، بئس الاسم الفسوق بعد الايمان » .

ومتى رسخ هذا المعنى فى أذهان الملوك والأمراء والحكام والعامة والفقراء والأغنياء والملاك والعمال كما أرادته الدعوة المحمدية ، استحالت الفرقة الاجتماعية وما يثيرها من حسد وبغض ، وما يترتب عليها من خلاف وشر ثم قتال وحرب ، وما يكون من تسلط الأقوياء على المستضعفين ، أو ما يكون من ظهور المستضعفين واستذلالهم لمن كانوا أقوياء .

نعم قد يقال : ان مبدأ المساواة شائع الآن فى أوربا وأمريكا ، ومؤيد بشرائع وقوانين ، ولكنه لم يمنع من القتال والحرب والفساد ، وهو قول ظاهره فيه الحق ، وباطنه من قبله الباطل ، فان الأنانية والمادية لم تبلغا فى عهد من العهود ما بلغته فى عهد المساواة القائمة على القوانين الحديثة فى الغرب ، ولم تصل القطيعة والأثرة حتى فى العهد الاقطاعى الى ما وصلت اليه اليوم ، ولم تسيطر روح الشر بما فيها من غل وحسد ســيطرتها فى السنوات المائة الأخيرة ، مع شيوع حق المساواة فى التصويت لانتخاب الهيئات البلدية والعامة ، ولم ينتظم الناس فى مجموعات الطوائف والحرف لينازعوا غيرهم من الطوائف كما انتظموا فى القرن الحالى ، والكل يتحدث بحق المساواة .

لك ، أن التسليم بحق المســاواة فى الدعوة المحمدية
.ه والايمان ، فهو فى صميم قلب المؤمن ، وهو المسيطر على
خداع فيه ولا نفاق .

ان المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ! » .

هذا فضلا عن أن النظام الاجتماعى والاسلامى ليس قائما على تنازع السلطات ، ولا على استقرار الأمر كنتيجة لهذا النزاع ، ولا على توازن القوى حتى يفسد باختلال هذا التوازن ، وانما يقوم على التكافل بين أهل الملة ، وعلى الروح الجماعية وعلى المقصد الأسمى للوجود ، وهو الكمال الروحى للفرد والأمة ، وعلى أن جميع الأعمــال عمادها النيــة وقصدها رضاء الله .

فالنظام الاجتماعى فى الدعوة المحمدية يجعل كفالة الحق فى ضمير الفرد وضمير الجماعة وسلطة الدولة ، ويلعن الجماعة كلها اذا ضاع الحق بينها .

ولا يخلى أحدا فيها من مسئولية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

الاشكال والمظاهر ليست فى غاية الحكم

والأشكال والمظاهر فى النظام المحمدى لا قيمة لها الا بقدر ما تصلح من العمل وتؤكد من حسن النية فى ذلك العمل .

فلم يعن المسلمون بطرائق الحكم ولا بكونه ملكيا أو جمهوريا أو أوتوقراطيا أو ديمقراطيا ، وانما عنوا كل العناية بتحقيق الغاية من الحكم ، وهى التكافل الاجتماعى ، وأن يكون الناس سواسية ، لا فضل لأحدهم ولا لأجناسهم الا بالتقى والعمل الصالح ، ولا خير فى أحدهم ولا خير فيهم جميعا ان لم تكن الغاية من حياتهم هى الخير العام .

وكل نظام يحقق الغاية من الدعوة المحمدية . وهى مصلحة الكافة وضمان حقوق الأفراد ، فهو نظام اسلامى .

فاذا كانت المساواة على النظام الغربى لا تحد من الأثرة والمادية والشهوات والهوى ، ولا تمنع نزاع الطبقات ، ولا حرب الأجناس ، فانها صورة لا حقيقة ، والاسلام يريد الحقائق لا الصور « ان الله لا ينظر الى صوركم ولكن ينظر الى قلوبكم » .

ظاهر اذن أن مبدأ المساواة بالمعنى الاسلامى هو من أكبر دعامات البر وأفتك الأسلحة بآفة الفقر .

وقد دعا الاسلام الى البر بكل وسيلة ، دعا اليه بالترغيب والترهيب ، ودعا اليه بقوة القانون والدولة ، فقال تعالى : « يمحق الله الربا ويربى الصدقات » « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » وقال « أرأيت الذى يكذب بالدين . فذلك الذى يدع اليتيم ، ولا يحض على طعام المسكين » وقال : « كلا بل لا تكرمون اليتيم ولا تحاضون على طعام المسكين » .

حق الله حق الفقير

وكتاب الله وحياة رسوله يفيضان بفضل الانفاق فى سبيل الله ، واتخاذ الدنيا مطية للآخرة . ولم يكتف صاحب الدعوة صلى الله عليه وسلم بأن تكون دعوته موجهة بكل قوتها للبر بالفقراء والمساكين والضعفاء والمصابين والمعوزين ، بل جعل البر بهم حقا مفروضا لا سبيل الى المماطلة فيه ؛ حتى ان العرب لما ارتدت عن دفع الزكاة عقب وفاة الرسول ، ونصح الخليفة الأول بأن يداريهم ، وقد تفاقم الشر ، قال رضى الله عنه : «والله لو منعونى عقال بعير كانوا يؤدونه لرسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم عليه »

أى أنه يوجه كل قوى الدولة لقتال قوم يمنعون حق الفقير فيما قيمته قيمة حبل يعقل به بعير !

فحقوق الفقراء فى الدولة الاسلامية مصونة ، وليس لأحد أن يمن بها ، فهى حق الله فى ماله وكسبه وملكه . وقد بينت الشريعة الزكاة وأنواعها بينت مستحقيها وما لهم وما عليهم بتفصيل دقيق .

الدعوة المحمدية للبر والاحسان تلك الأوقاف المحبوسة رق والمغرب ، وكان من أثرها أن تطهرت نفوس المسلمين . ا من أملاكهم على القطط والكلاب والحيوانات . ومن أمثلة الدين محمود وقف أرضا فى دمشق لتكون مأوى للحيوان فيها حتى يموت .

المسلمين فى كل أوطانهم يفيض بالبر والعطف والرحمة غرباء ، وما الكرم الذى كان به فخر البيوت والأسر والشعوب ثار روح البر والاحسان الاسلامى .

ن البر فى الدعوة المحمدية خاصا بأهل الجنس أو الدين ، عاما للمساكين من البشر ، فما منع اختلاف فى الدين دون البر « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم ن تبروهم وتقسطوا اليهم ، ان الله يحب المقسطين » ، « انما فقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب فى سبيل الله وابن السبيل » .

اسس الاسلام

ـسيم البر فى العصر الحاضر يجب أن يقوم على نفس الأسس والوسائل التى جاءت بها الدعوة المحمدية ، لأنها أفعل وأدوم ، ولكن يجب كذلك أن نتصرف ونجتهد كى نحقق المقصد والغاية ، وأن ننظر فى عصرنا ، وموارد الثروة فيه ، ومصادر الغنى ، وحالات الناس لنكفل الخير للجماعة ونرضى الله سبحانه وتعالى ، حتى يعود للظهور بيننا من كانوا يأبون أن يتعرضوا لوجوب أداء الزكاة عليهم بانفاق أموالهم كلها ، حتى قيل لبعضهم : كم يجب من الزكاة فى مائتى درهم ؟ فقال : أما على العوام بحكم الشرع فخمسة دراهم ، وأما نحن فيجب علينا بذل الجميع .

لهذا المعنى تصدق أبو بكر رضى الله عنه بجميع ماله ، وعمر رضى الله عنه بشطر ماله .

ولا عجب فـ « ان الله اشترى من المؤمنـــين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة » .

وروح الدعوة المحمدية واضحة فى أن الزكاة وحدها لا تبرىء أموال المسلمين من حقوق المحتاجين فيها . فما دام هناك محل للبر والصدقة فهى واجبة ، وحق المسلم على المسلم لا ينتهى بأداء الزكاة .

يجب اذن أن نستلهم من شريعة الاسلام الهدى ، وأن نستوحى من روح الدعوة المحمدية نظاما للبر تقوم عليه الدولة ، لنوازن بين الثروات والحاجات ، ونقيم التكافل الاجتماعى ، ونقضى على حرب الطبقات « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » .

العـــدالة والحريـة

صـــورة جاهلية ـ العالم بين الفرس والرومان ـ تحطيم القيود وازالة الفوارق ـ مبادىء فى السياسة وعقـائد فى الدين ـ خليفة يبيع فى الاسواق ـ خليفـة يلبس المرقع ـ فجر العـــدالة الدولية ـ ميزانية الخليفـــة ـ ميزان الشريعة ـ كفالة الحريات جميعهـا ـ الدفاع عن الحريات

صور جاهلية

نتحدث فى هذا الفصل عن مبدأين أساسيين لا بد منهما لصلاح حال المجتمع وتوجيه الحياة فى طريق الخير العام ، وهما : الحرية والعدالة .

وكان الناس قبل الاسلام يعيشون اما على نظام القبيلة ، كالحـــال فى بلاد العرب ، واما رعايا لدول أو أمراء ، كما كان الأمر حول شـــبه الجزيرة العربية فى ملك الرومان والفرس والأحباش وقد كان لكل أرض حال ونظام حسب ظروفها لا تنظمه مبادىء جامعة ، وأصول ثابتة مسلم بها ؛ ففى البلاد العربية تسود مبادىء القوة ، وتتجلى الأثرة والأنانية ، ويعتز الناس بالفتك والسلب ، ويفتخر كثير منهم باستباحة حقوق الغير والتسلط على ما فى أيديهم ، ينـــكرون الاخاء البشرى والقومى وحتى الدينى ، ويرفضون المساواة خارج القبيلة مع الموالى وغيرهم من العرب ، ويسخرون من العدل الذى لا يقوم على ما تبيحـــه القوة ، ويحبون الحرية المطلقة ويتعشقونها ، بل يموتون موتا كريما فى سبيل التمتع بها ، على أنها حرية خاصة بهم لا يمتعون أحدا بها .

العالم بين الفرس والرومان

وكان الفرس والرومان البيزنطيون جيران العرب ، يحقرون العرب ، ولا يعترفون بحق لهم فى مساواتهم أو عدلهم ، وكان ملك الفرس يقوم على رجل له كل الحقوق هو كسرى ، وعلى جماعة لهم من هـــذه الحقوق ما يمنع كسرى أو يعطى ، اذ يسخر له ما فى الأرض جميعا ليكون ملك الناس جميعا وحوله أعوان وأمراء وجند يسندون العرش ، ويحظون ببعض المتاع . الا أنهم عرضة فى كل لحظة لاباحة أرواحهم وأموالهم وأبنائهم .

نعم كانت الامبراطورية الفارسية ثابتة القواعد ، دائمة الملك ، فقد عاش حكم آل ساسان أربعة قرون ، ولكنه عاش على نظام عسكرى ، وحكم عرفى ، لا على مبادىء العدل والحرية والمساواة والاخاء . وكذلك عاشت (بيزنطة) ألف سنة ولم تكن عقليتها بأحسن حالا من عقلية (المدائن) ، فكان قيصر امبراطور المغرب ، بل على دعواه امبراطور العالم ، وكان كسرى خصيمه فى المشرق . وما كان لعبادة النار أثر يذكر فى هذه ، ولا للمسيحية أثر فى الأخرى ، بل كانت مسيحية بيزنطة مما لا يشرف المسيحيين ، بعيدة كل البعد عما جاء به سيدنا عيسى عليه السلام من اخاء وسلم ورحمة . وبلغ الغرور بسلاطين بيزنطة أنهم كانوا لا يعترفون لدولة بالوجود المستقل ، فسيادتهم عالمية فى نظرهم ، والناس اما معترف بذلك ، واما جاهل لا يدرى أنه فى نطاق هذه السيادة .

ومن أظرف ما يروى أن سفير شارلمان فى القرن التاسع الميلادى كان فى حضرة الأمبراطور فى بيزنطة ، فذكر له أن سيده شارلمان مشغول بحرب السكسون وأن هؤلاء السكسون برابرة دائمو الشغب . فقاطعه الأمبراطور قائلا : من هؤلاء الهمج الذين لم أسمع باسمهم ، ولا قيمة لهم ليتعبوا سيدك كل هذا التعب ؟ ! انى قد وهبتك اياهم ، وبذلك أرحت سيدك منهم . فلما رجع سفير شارلمان حدث سيده بما وهبه الامبراطور ، فقال شارلمان : لو وهبك حذاء بدل السكسون لأعانك به على سفرك الشاق الطويل !

كذلك كان العالم فى تصور قيصر وكسرى ، وفى مخالب الفوضى القبلية حين جاءت الدعوة المحمدية تذكر الناس بأنهم من آدم وآدم من تراب « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم » .

تحطيم القيود وازالة الفوارق

وكذلك كان العالم لما بعث (عمر) مقوض ملك قيصر وكسرى الى واليه يوبخه لاستكبار ابنه على قبطى مسيحى ويقول له « ياعمرو متى تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا » .

جاءت الدعوة المحمـــدية بالطريف الغريب من الدعوة الى العـــدل والمساواة والحرية . فأصبحت الشريعة ينبوع الحريات والحقائق ، تحدد الحقوق والواجبات للأفراد والجماعات . فقام المستضعفون وسخر الطغاة المتجبرون وقالوا ما قال أسلاف لهم من قبل « ما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا بادى الرأى » وما دروا أن الله أراد أن يقوض عالم الأثرة والأنانية والظلم والاستبداد ، وأن يحق الحق ، ويبطل الباطل . وأن الشريعة مبادىء واضحة كريمة تنظم ما بين الناس ، أوحى بها العليم الخبير الى أفضل رجل عرفه البشر فى تاريخهم الطويل ، هى المبادىء التى أقرت العدالة والحرية فى ضمائر المؤمنين وجعلتها جزءا لا يتجزأ من عقيدتهم وصميم نفوسهم .

مبادىء فى السياسة وعقائد فى الدين

جعل الاسلام هذه المبادىء جزءا من العقيدة لا ينفصم منها وبذلك ثبتها وخلدها وصانهـــا من عبث التحايل والرياء والتظـــاهر والدعاوى المغرضة أو الموقوتة .

فالمسلم لا يكون مسلما اذا شك فى أن أقل اخوانه وأعجزهم يعادله فى الحقوق ، فهما فى حضرة الله فى الدنيا والآخرة عبدان ، أكرمهما أتقاهما .

هذه العدالة هى التى جعلت الصدقة على من يستحقها ، حقا فى أموال من يقدر عليها لا منة فى رقبة مستحقيها .

خليفة يبيع فى الاسواق

وكانت هذه العدالة والمساواة واضحة فى العهـــد الاسلامى الأول ، وقت سيادة العقيدة وتملكها النفوس ؛ فهى التى جعلت من أبى بكر ، وقد انتخب للخلافة رجلا يخرج الى السوق عقب البيعة له ليعمل كما يعمل أى فرد من الناس فيها لكسب قوته وقوت عياله . فلمـــا كلم فى ذلك ، تشاور المسلمون فى الأمر واعتبروه أجيرا لعملهم ، ومنعوه من العمل ، ورتبوا له راتبا حددوه بالحاجة ، وكانت فى عرفهم بضع دريهمات ، لبيت الخليفة لا تجعله فى زيه ومطعمه أكثر حظوة من سواد رعيته .

خليفة يلبس المرقع

وجاء بعده عمر والعقيدة الاسلامية فى أعز أيامها ، وأمكن سلطانها ، فكان خليفة مختارا من الشعب ، غلب الفرس والرومان وهو يرقع ثوبه بيده ويخصف حذاءه بنفسه ، ولم يخطر بباله ولا ببال المسلمين أن الخلافة

تميزه عنهم بشيء غير ما أعطتـه من حق الأمر وألزمتهم من حق الطاعة ما دام وليا للأمر .

كانت العدالة والمساواة عقيدة لا تصنعا يتكلفها الناس أو يلزمونها بقانون رادع ، فكانت حقيقة نفسية تعمل فى الظاهر والخفاء لاقامة مجتمع صالح مستقر . وفى هذا المعنى قال أحمد شوقى رحمه الله فى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم :

أنصفت أهل الفقر من أهل الغنى — فالكل فى حق الحياة سواء
فلو أن انسانا تخير ملة — ما اختار الا دينك الفقراء
الاشتراكيون أنت امامهم — لولا دعاوى القوم والغلواء
داويت متئدا وداووا طفرة — وأخف من بعض الدواء الداء
والبر عندك ذمة وفريضة — لا منة ممنونة وجباء

وقد قدمنا أن الشريعة قررت أن المؤمن أخو المؤمن ، وأنه فى مشرق الأرض أو مغربها له من الحق ما لا سبيل لنكرانه ، له البر ، وله النصرة والحماية ، والولاء والاخلاص والنصح . له هذا كله بمقتضى العقيدة والشريعة لا نزاع ولا جدال ، فله النصفة غاب الحاكم أم قام ، وجد القانون أم اختفى ؛ لأنها حق يؤديه من ضميره بمقتضى ايمانه . هذا العدل قضى على القومية والعصبية والوطنية ، وجعل المساواة فوق كل اعتبار ، فللمسلم ما للمسلم فى كل زمان ومكان .

فجر العدالة الدولية

وقد سبق الاسلام كل نظم العدالة الحديثة . حين قال : « ان الله يأمر بالعدل والاحسان » وقال « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ، ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين » وقال : « ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا . اعدلوا هو أقرب للتقوى » .

وقال : « واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » .

وقال : « واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى » .

وفى الحديث القدسى « يا عبادى انى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا » .

ميزان الخليقة

بل جعل العدل أساس نظام الخليقة كلها فقال : « والسماء رفعها ووضع الميزان . ألا تطغوا فى الميزان . وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان » .

فالاسلام قد جعل العدل فوق كل شيء ، فهو يزن بالقسطاس المستقيم بين الكافر والمسلم ، والعدو والموالى والمعاهد ، فهم جميعا فى نظره أمام العدالة سواء .

«ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى».

والشريعة الاسلامية فى هذا الباب تستحق من جميع الناس ، آمنوا بها أم لم يؤمنوا ، نظرة صادقة ، فانها لا تزال سابقة فى زمننا على ما به من تقدم الحضارة الحالية فى هذا الشأن .

ميزان الشريعة

انظر الى أقوال بعض أئمة المسلمين قبل مئات السنين . يقول ابن القيم : « ان الله سبحانه وتعالى أرسل رسله وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط وهو العدل الذى قامت به الأرض والسموات ، فاذا ظهرت أمارا العدل وأسفر وجهه بأى طريق كان فثم شرع الله ودينه » . ويقول الامام الشاطبى « ان أحكام الشريعة ما شرعت الا لمصلحة الناس ، وحيثما وجدت المصلحة فثم شرع الله » .

فأئمة المسلمين متفقون على أن العدل هو غاية الشريعة ، وانما تقيد الأحكام بالعدل الذى يريده الله قبل أن تقيد بشيء آخر .



كفالة الحريات

وأما الحرية فى الاسلام فهى من أقدس الحقوق : الحرية السياسية ، والحرية الفكرية ، والحرية الدينية ، والحرية المدنية ، كلها كفلها الاسلام ، وخطا بها خطوات لا تزال الحضارة الحديثة متخلفة عنها .

ولا يزال التاريخ يحدثنا بأمثلة منها وقعت فى مجالس الخلفاء والأمراء حتى بعد أن صار الحكم فى الاسلام ملكا عضوضا ، فكان الناس فى أيام عمر بن عبد العزيز يتكلمون فى حضرته فى استحقاق بيته الملك والخلافة ،

وكذلك روى عن مجالس المأمون ما كان يجرى فيها من نقاش حول بيت الخلافة وأحقيته بها .

وهذا دعبل بن على الخزاعى الشاعر ، هجا جماعة من الخلفاء العباسيين واحدا بعد آخر وهم فى عنفوان سلطانهم ، وانتصر لخصومهم العلويين دون أن تصادر حريته أو يناله أحد . ولما بويع لابراهيم بن المهدى فى العراق وخلع المأمون فى غيبته قال دعبل :

نعق ابن شكلة بالعراق وأهله فهفا اليه كل أخرق مائق
أنى — ولا يكون — ولم يكن يرث الخلافة فاسق عن فاسق

وما أظن أن مثل هذه الحرية سمح بها فى عهد ملك من الملوك فى زمن من الأزمان الحاضرة أو الماضية . وتقديس الاسلام للحرية هو الذى جعل من المسلمين فى أحسن أيامهم ، وخصوصا العهد العربى لقربه من ظهور الدعوة ، قوما يسعون فى ملكهم بين المشرق والمغرب من الصين الى الأندلس جميع الملل والنحل تعيش فى جوارهم وأمنهم .

بل أقام الاسلام بشرعه من المسلمين حماة لأرباب العقائد المخالفة لهم ، وألزم أهله أن يقاتلوا لصيانة حرية العقيدة وقدسية أماكن العبادة لمن دخلوا فى عهدهم وجوارهم من مخالفين فى الدين .

الدفاع عن الحريات

تشبعت نفوس المسلمين بمعنى الحرية ، فلم يضطهدوا بمقتضى شريعتهم ، ولا ارضاء لعقيدتهم رجلا نظر فى الكون واستنبط لنفسه نظرية من النظريات ، أو ادعى رأيا من الآراء ، فكانت الحرية العلمية مكفولة للصابىء والمجوسى والنصرانى واليهودى ، يقول ويكتب ما يشاء . كذلك كان المسلمون أحرارا فى هذا لا تعترضهم شريعتهم . ولا أعرف أن حرية الرأى والعقيدة والعلم قد اعترضها معترض فى الدول الاسلامية ، الا خشية الفتنة ، أو حيث كانت سببا فى فتنة أو عرضت سلامة الدولة لخطر .

وكان أمراء المسلمين وحكامهم على وجه العموم لا يعبأون فى سياستهم بالنظر الى الأفكار والآراء والمعتقدات والأبحاث العلمية الا بقدر أثرها المباشر السريع على سلطانهم ، فخاض المسلمون وغير المسلمين فى الكلام ،

وفى نظريات علمية ودينية فى العصور الوسطى بحرية لم تتسع لها صدور الأوربيين والأمريكيين الى يومنا هذا .

ولقد تركت الدعوة المحمدية آثارا خالدة فى نفوس المسلمين بالنسبة لحرمات العدل والحرية لم تقو على محوها عهود الجهالة والفساد فى قرون طويلة . ذلك لأنها آمنت بأن العدل والحرية حقان أساسيان للناس كافة لا تحجبهما أية دعوى من النظم أو الضرورة ، لأنهما سبب الوجود لأى نظام وحكومة اسلامية . واذا كانت الدعوة المحمدية لم تهتم كثيرا بصور الحكم ونظمه فقد يكون ذلك لأنه لا يهمها منها الا أن تكون محققة للعدل حامية للحرية .

تلك بعض المبادىء العامة المتفق على ضرورتها وفضلها ، والتى بها يصلح المجتمع ، أقامها الاسلام فى ضمائر الناس ، وناضل عنها وحماها بسلطانه ، لأنه يعلم آثارها الصالحة فى اقامة مجتمع صالح .

(٣)

فى العلاقات الدولية

الدولة الإسلامية الأولى وعلاقاتها

من تاريخ علاقات المسلمين بالمناهضين للاسلام – اول معاهدة « دولية » بين المسلمين واليهود والوثنيين – نموذج قديم لعصبة الامم – الاذن بالحرب الدفاعية – حرب للاغراض السامية – تنظيم علاقات الشر خير !

من تاريخ علاقات المسلمين بالمناهضين للاسلام

ابتدأت الدعوة الى الاسلام سرا ، فلما جهر بها اشتدت الخصومة ، وترتب على ذلك اضطهاد المسلمين اضطهادا تمثلت فيه جميع أنواع الأذى ، فأشار الرسول على أنصاره المستضعفين بالهجرة الى الحبشة فهاجروا اليها . وبهذه الهجرة ابتدأت أولى الصلات الدولية ، وبقى هو بمكة فى منعة من قومه ، يدعو الى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، فلم تستطع قريش صبرا على دعواه ضد آلهتها ، بل ضد حياتها الاجتماعية والاقتصادية ، فتشاورت فى قتـله ، وفاوضت بنى هاشم فى ذلك على أن تدفع اليهم ما يرضيهم دية له فأبوا ، فتحالف أهل مكة على قطيعة بنى هاشم ، وكتبوا بذلك صحيفة علقوها فى الكعبة ، فلجأ بنو هاشم ومعهم بنو المطلب الى شعب من شعاب مكة واعتصموا فيه ضد أصحاب الصحيفة الذين تعاهدوا على أن يقاطعوا محمدا ومن يمنعـه منهم ، فلا يزوجوهم ولا يعاملوهم ولا يؤاكلوهم . واشتد الكرب بمن دافعوا عن الرسول ممن آمنـوا به أو نصروه عصبية وأنفة ، ودام هذا الحال سنين ، فلما خرجوا من الشعب ذهب الرسول الى (الطائف) مستنجدا طالبا حماية بعض زعمائها ، ليمضى فى دعوته فرجع مهيض الجناح ، وقد رد على أشنع صورة ، يتبعه الصغار ، وهو يمشى دامى القـدمين ، يقيمونه كلما قعـد ، فلا يستريح الى ظل ولا يأوى الى كهف ، حتى دخل مكة فى حماية أحد المشركين ، يسخر منه أهلها ويبكى لحاله أتباعه المستضعفون .

وجاءت فترة من الهدوء ظن فيها المهاجرون المستضعفون من الرجال والنساء والولدان أن مكة تؤويهم فرجعوا ، فاشتد الكرب مرة أخرى ،

وأمرهم الرسول بالهجرة الثانية الى الحبشـــة ، ولقوا بلاء شديدا حتى فى مهجرهم ، فقد أوفدت قريش رسلها ، وعلى رأسهم عمرو بن العاص (فاتح مصر فيما بعد) يحمل الهدايا الى النجاشى وكبار أهـــل الحبشة ليغروهم على تسليم المهاجرين اليهم ، فدافع المسلمون عن أنفسهم بالحجة وتمسكوا بحق الجوار للملتجىء ، وأسسوا بذلك أول علاقة دولية بين الأمة المحمدية والدولة الحبشية .

واستمرت قريش تكيد للمستضعفين فى مكة حتى استقر رأيها على قتل محمد وتوزيع مسئولية قتله على بطونهـــا ، فتعجز بنو هاشم عن المطالبة بثأره .

وفى الليلة التى تم فيها التآمر على قتل النبى خرج من مكة ومعه رفيقه أبو بكر ، فلما أحس القوم بذلك تبعوهما ، وكانا مختفيين بغـــار ثور ، فضلوا ثم خابوا فى ادراكهما .

اول معاهدة دولية بين المسلمين واليهود والمشركين

ووصل المدينة فوجد فيها من سبقه من المهـــاجرين ومن بايعوه من الأنصـــار ، وما لبث أن عقد أول معاهدة دولية بين المســـلمين واليهود والمشركين ، وهى من أنفس العقود الدولية وأمتعها وأحقها بالنظر والتقدير من الناس كافة ، وأولاها بأن تكون نبراسا للمسلمين فى أصول العلاقات الدولية بينهم وبين مخالفيهم من أهل الأديان الأخرى . هذا فضلا على أن عقدها ابتدأت به الدولة الاسلامية حياتها ، وابتدأ الاعتراف بالمسلمين كدولة .

هذه الوثيقة هى عقد حسن جوار وتحالف دفاعى ، وتعـــاون ضد العدوان ، قصد بها صيانة مجموعة من دويلات ، كل منها يتمتع فى نطاق الميثاق بسيادته الخاصة على قومه ، وبحرية الدعوة لدينه .

ويتكافل الموقعون عليها على نصرة بعضهم بعضا ، وحماية عقائدهم ممن يريد أوطانهم أو جماعتهم بسوء . وهم بذلك يكفلون حرية العقيدة وحرية الدعوة لأعضاء الميثاق على تباين معتقداتهم . واليكم الميثاق (١) :

(١) نقلا عن كتاب « الوثائق السياسية فى العهد النبوى والخلافة الراشدة » للدكتور محمد حميد الله الحيدرى أبادى أستاذ الحقوق الدولية بالجامعة العثمانية بحيدر أباد دكن

بسم الله الرحمن الرحيم

١ — هذا كتاب من محمد النبى (رسول الله) بين المؤمنين والمسلمين من قريش و (أهل) يثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم .

٢ — أنهم أمة واحدة من دون الناس .

٣ — المهاجرون من قريش على ربعتهم (١) يتعاقلون (٢) بينهم وهم يفدون عانيهم (٣) بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

٤ — وبنو عوف على ربعتهم ، يتعاقلون ، معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

٥ — وبنو الحارث (من الخزرج) على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

٦ — وبنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

٧ — وبنو جشم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

٨ — وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

٩ — وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين

١٠ — وبنو النبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

١١ — وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

(١) امرهم الذى كانوا عليه .

(٢) أسيرهم .

(٣) يأخذون ديات القتلى ويعطونها . وأصله من العقل وهو ربط ابل الدية لدفعها لاهل القتيل .

١٢ — وأن المؤمنين لا يتركون مفرحا (١) بينهم أن يعطوه بالمعروف فى فداء أو عقل .

١٢ ب — وأن لا يخالف مؤمن مولى مؤمن دونه .

١٣ — وأن المؤمنين المتقين (أيديهم) على (كل) من بغى منهم أو ابتغى دسيعة (٢) ظلم أو اثما أو عدوانا أو فسادا بين المؤمنين ، وأن أيديهم عليه جميعا ولو كان ولد أحدهم .

١٤ — ولا يقتل مؤمن مؤمنا فى كافر ولا ينصر كافرا على مؤمن .

١٥ — وأن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم ، وأن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس .

١٦ — وأنه من تبعنا من يهود فان له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم .

١٧ — وأن سلم المؤمنين واحدة لا يسالم مؤمن دون مؤمن فى قتال فى سبيل الله الا على سواء وعدل بينهم .

١٨ — وأن كل غازية غزت معنا يعقب (٣) بعضها بعضا .

١٩ — وأن المؤمنين يبيء (٤) بعضهم على بعض بما نال دماءهم فى سبيل الله .

٢٠ — وأن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه .

٢٠ ب — وأنه لا يجير مشرك مالا لقريش ولا نفسا ، ولا يحول دونه على مؤمن .

٢١ — وأنه من اعتبط (٥) مؤمنا قتلا عن بينة فانه قود (٦) به الا أن يرضى ولى المقتول (بالعقل) ، وأن المؤمنين عليه كافة ولا يحل لهم الا قيام عليه .

---

(١) هو من أثقله الدين والغرم فأزال فرحة .

(٢) الدسع الدفع . والمعنى : طلب دفعا على سبيل الظلم أو ابتغى عطية على سبيل الظلم .

(٣) أى يكون الغزو بينهم نوبا يعقب بعضهم بعضا فيه .

(٤) من أباءه القاتل بالقتيل اذا قتلته به .

(٥) قتله بلا جناية أو جريرة توجب قتله .

(٦) فان القاتل يقاد به ويقتل .

٢٢ — وأنه لا يحل لمؤمن أقر بما فى هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثا أو يؤويه ، وأنه من نصره أو آواه فان عليه لعنة الله وغضبه يوم القيام ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل .

٢٣ — وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فان مرده الى الله والى محمد .



٢٤ — وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين .

٢٥ — وأن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم الا من ظلم أو أثم فانه لا يوتغ [1] الا نفسه وأهل بيته .

٢٦ — وأن ليهود بنى النجار مثل ما ليهود بنى عوف .

٢٧ — وأن ليهود بنى الحارث مثل ما ليهود بنى عوف .

٢٨ — وأن ليهود بنى ساعدة مثل ما ليهود بنى عوف .

٢٩ — وأن ليهود بنى جشم مثل ما ليهود بنى عوف .

٣٠ — وأن ليهود بنى الأوس مثل ما ليهود بنى عوف .

٣١ — وأن ليهود بنى ثعلبة مثل ما ليهود بنى عوف الا من ظلم وأثم فانه لا يوتغ الا نفسه وأهل بيته .

٣٢ — وأن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم .

٣٣ — وأن لبنى الشطيبة مثل ما ليهود بنى عوف وأن البر دون الاثم .

٣٤ — وأن موالى ثعلبة كأنفسهم .

٣٥ — وأن بطانة يهود كأنفسهم .

٣٦ — وأنه لا يخرج منهم أحد الا باذن محمد .

٣٦ ب — وأنه لا ينحجز على ثأر جرح ، وأنه من فتك فبنفسه وأهل بيته الا من ظلم ، وأن له على أبر هذا .

---

(١) يهلك ويفسد .

٣٧ — وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الاثم .

٣٧ ب — وأنه لا يأثم امرؤ بحليفه ، وأن النصر للمظلوم .

٣٨ — وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين .

٣٩ — وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة .

٤٠ — وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم .

٤١ — وأنه لا تجار حرمة الا باذن أهلها .

٤٢ — وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فان مرده الى الله والى محمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وأن الله على أتقى ما فى هذه الصحيفة وأبره .

٤٣ — وأنه لا تجار قريش ولا من نصرها .

٤٤ — وأن بينهم النصر على من دهم يثرب .

٤٥ — واذا دعوا الى صلح يصالحونه ويلبسونه فانهم يصالحونه ويلبسونه ، وأنهم اذا دعوا الى مثل ذلك فانه لهم على المؤمنين الا من حارب فى الدين .

٤٥ ب — على كل أناس حصتهم من جانبهم الذى قبلهم .

٤٦ — وأن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة ، وأن البر دون الاثم لا يكسب كاسب الا على نفسه ، وأن الله على أصدق مافى هذه الصحيفة وأبره .

٤٧ — وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم ، وأنه من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة الا من ظلم وأثم ، وأن الله جار لمن بر واتقى ، ومحمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

دستور الدولة المحمدية

فى هذا الميثاق وضع أساس الدولة المحمدية وأصبح المؤمنون والمسلمون رعايا هذه الدولة على اختلاف أجناسهم وعصبياتهم أسيادا أو موالى أمة واحدة دون الناس .

نموذج قديم لعصبة الامم

هذه الأمة تتعاقد فى هذه الصحيفة مع أمم أخرى من ديانات أخرى ، فينشأ فى أول تعاقد لها ميثاق « لجمعية أمم » أساسه النصر للمظلوم والنصح والنصيحة ، والبر دون الاثم ، وحرمة الأوطان المشتركة وحرمة من يدخل فى الميثاق ويقبل جواره ، على أن تصان عقائد المتعاقدين وشعائرهم وحريتهم فى الدعوة لدينهم مهما تباينت هذه الأديان ، فهو ميثاق من الأمم الاسلامية واليهودية بل والوثنية ، لما فى يثرب وقتئذ من الوثنيين الداخلين مع طوائف الميثاق المكونين لأطراف العقد . ولو كان فى المدينة حينئذ مسيحيون لنص عليهم الميثاق .

ولقد سبق الاسلام بهذا الميثاق عهد « عصبة الأمم » الحديثة بأكثر من ثلاثة عشر قرنا ، وهذا التحالف ابتدأ به رد الفعل لاضطهاد وظلم دام أربع عشرة سنة ، لم تمنع منه عظة حسنة ، ولا لين ولا قربى ولا رحم ولا هجرة .

سلطت قريش ومن معها جميع أنواع الأذى والظلم ، فأصابت المسلمين فى أنفسهم وأموالهم وأعراضهم ومزقتهم وشتتهم فى الأرض ، وهم يأبون الرد ، ويدعون الى تحكيم العقل ، ويناظرون ليتبين الرشد من الغى . لا يدفعون قوة بقوة ، ولا يلجأون الى عنف .

فلما بلغ السيل الزبى جاء أمر الله وأذن بالقتال وأحلت الحرب للدفاع عن النفس وعن الوطن وعن حرية العقيدة ، ونزل حكم الله فى هذه الآية الجليلة .

الاذن بالحرب الدفاعية

« أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وان الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله . ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ، ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز . الذين

ان مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر » .

وضع الرسول الأساس المتين للدولة العالمية وللعلاقات الدولية فى الميثاق الذى ذكرنا على أساس الحرية للمشتركين فيه والاستقلال .

حرب للاغراض السامية

ثم نزل حكم الله باباحة الحرب لأغراض سامية محدودة ، منها ما هو سلبى ، وهو دفع العادية ومنع الظلم ، ومنها ما هو ايجابى وهو الخير العام أو الصالح العام فقال تعالى .

« الذين ان مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر » .

فتبين الواجب بعد النصر ، وحدد المقصود منه ، فليس توسعا فى الملك كما تفعل الدول المستعمرة ، وليس تعجيزا للآخرين وانهاكا لهم ليضعفوا عن المزاحمة فى العيش ، ويطردوا من الأسواق وميادين التجارة ، ولا لوضع اليد على موارد الثروات وكنوز الأرض وخامات الصناعة ليستأثروا بها ، ولا علوا واستكبارا فى الدنيا ، لكى تكون أمة أربى من أمة ، وجنس أعلى من جنس ، ولكن لغاية واضحة محدودة ، هى أن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ويأمروا بالمعروف وينهو عن المنكر .

ولما حاول الأوروبيون والأمريكيون بعد أن أكلتهم الحرب الماضية أن يبينوا الحالات التى تكون الحرب فيها مشروعة ، وأن يحددوا أغراضها ، ويسيطروا على شهواتهم ، فعقدوا لذلك المواثيق فى عصبة الأمم وفى ميثاق (كيلوج) استبشرنا وقلنا ان سنن محمد صلى الله عليه وسلم قد أخذت تسود التفكير العالمى . وانا لنرجو أن تكون الحرب الأخيرة خاتمة الضلال ، وأن يجد الناس فى قواعد العلاقات الدولية التى سنتها الشريعة المحمدية هدى ومخرجا مما هم فيه . فميثاق محمد مع اليهود والمشركين فى المدينة هو أول عهد دولى فى سبيل صيانة السلم على أساس المنفعة العامة والحرية للجميع .

تنظيم علاقات الشر خير

ومشروعية الحرب لدفع الظلم وضمان الحرية ، وتحديد الغرض منها بالخير العام ، هما أيضا الأساس الصالح الذى يجب أن تبنى عليه العلاقات الدولية فى المستقبل .

أتت الشريعة المحمدية قبـل ثلاثة عشر قرنا بنظام كامل من عهود التحالف والتكافل والتحكيم ، وجعلت الحرب ضد المعتدين زجرا وتأديبا لا محوا وتعذيبا « وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله » « وأن احكم بينهم بما أنزل الله » « فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء الى أمر الله فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ان الله يحب المقسطين » .

وسيتبين فى الفصول التالية هدى الاسلام فى سبيل التنظيم الدولى واقرار السلم الدائم على أساس العهود المقدسة الصالحة .

الحـــرب المشروعة

تحديد أسباب الحرب وأغراضها – الحرب الدفاعيـــة هى المباحة – وصايا وتحميس اذا وقعت الحـــرب – الاسلام دين عملى – فريضة الجهاد على المسلم والمسلمة – الحرب الهجومية غير مباحـــة – الحـــرب لأغراض مادية غير مشروعة – ضرورة تقدير بغدرها – الضعف والذل ظلم للنفس .

تحديد أسباب الحرب واغراضها

أشرنا الى ما كان من اضطهاد وظلم للمسلمين استلزم الاذن بالقتال ، وقد أصبحوا فى منعة بالهجرة الى المدينة وبالميثاق الذى عقدوه مع جيرانهم من أهل الملل والنحل الأخرى .

والآن لننظر فى الحرب من الوجهة الاسلامية : أسبابها وملابســاتها وأغراضها ، فان ذلك مما يعين على تصور حالة قد يكون فيها العلاج لداء العالم الحاضر ، ويفتح الأذهان الى الهدى والتبصر .

أذن بالقتال فى هذه الآية الكريمة « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وان الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله . ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا . ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز . الذين ان مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور » .

فالاسلام حين أباح الحرب قد علل هذه الاباحة ، وحدد المقاصـــد والأغراض منها : فهى دفع الظلم ، واحترام حق الاقامة ، والحـــرية فى الوطن ، ومنع الفتنة فى الدين ، وكفالة حرية العقيدة للناس جميعا .

وهذه الحرية للناس جميعا واضحة من تعديد أماكن العبادة لسلل مختلفة ، من صوامع وبيع للنصارى وصلوات لليهود ، ومساجد للمسلمين ، فقد أباح الحرب لصيانتها من عدوان المعتدين . كذلك يقول تعالى :

« وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله . فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين » .

ففى هذه الآية الجليلة تعلو الدعوة المحمدية على جميع الدعوات ، لتحديدها الغرض من الحرب برد الطغيان ، وباسقاط مشروعية الحرب بمجرد أن ينتهى المعتدى من اسرافه واعناته فى فتنة الناس ، وعندئذ لا يتجدد القتال وتستمر الحرب الا على ظالم ، يصر على الظلم ، ممن يكرهون الناس على ترك دينهم . والفتنة والاكراه وسلب الناس حريتهم فى دينهم أبغض الى الله حتى من ازهاق النفوس « يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه . قل قتال فيه كبير . وصد عن سبيل الله ، وكفر به والمسجد الحرام ، واخراج أهله منه أكبر عند الله .. والفتنة أكبر من القتل . ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا » .

الحرب الدفاعية هى المباحة

واذا تقصينا آيات الكتاب الكريم فى القتال ، ورجعنا الى ظروف التنزيل ، وتتبعنا الحوادث فى حياة الرسول وحروبه وسراياه ، حربا حربا وسرية سرية ما خالجنا شك فى أن الحرب المشروعة فى الاسلام هى الحرب الدفاعية ، ولا يسمح المقام باستقصاء وتفصيل للحوادث ، ففى كتب السنة والكتاب الكريم وكتب السيرة من البيان والتفصيل ما يعين الباحث على الاطمئنان لما ذكرنا من أغراض الحرب المشروعة الاسلامية ، ومن التزام الاسلام جانب الدفاع . وما جاء من قتال المشركين حيث وجدوا ، والأغلاظ عليهم ، والقعود لهم كل مرصد ، والتشريد بهم من خلفهم ، وشد الوثاق ، هو ما كلفنا به بعد وقوع الحرب ، فهو نتيجة لها لاسبب لاعلانها .

فأقواله تعالى :

وصايا وتحميس اذا وقعت الحرب

« يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين وأغلظ عليهم ، ومأواهم جهنم وبئس المصير » . « وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة » . « فقاتلوا أئمة الكفر انهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون . ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهموا باخراج الرسول ، وهم بدءوكم أول مرة أتخشونهم ،

فالله أحق أن تخشوه ان كنتم مؤمنين . قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين ، ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشاء ، والله عليم حكيم » . « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله » . « واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم » . « انفروا خفافا وثقالا . وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله » « يا أيها النبى حرض المؤمنين على القتال ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ، وان يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون » .

هذه الأقوال انما هى آيات توحى الى القارىء بنفسها أن حالة الحرب قائمة ، وأنها تحريض على الاستمرار فيها والصبر عليها والترغيب فى الوصول بها الى خاتمة يطمأن اليها ، من الأمن والسلام للمؤمنين ، والحصول على ثبات واستقرار للدين ، ومنع من الفتنة والارتداد بضغط المشركين وقهرهم ، وأمل فى أن ينتهى المعتدون عما هم عليه .

الاسلام دين عملى

ومن مزايا الشريعة المحمدية الجليلة أنها شريعة عملية تواجه الحقائق البشرية والفطرية ، وتجابه المعضلات بالحل العملى ، فما دامت الموعظة الحسنة لا ترد الظلم والاعتداء ، وما دام أعداء الاسلام لا يرضون حسن الجوار والعهد القائم على الانصاف وحرية العقيدة ، وما دام أهل الشر ذوى سلطان خطر ، فان الحرب واقعة بين الناس ، فلم يقف الاسلام أمام هذه الحقائق مكتوف اليدين بل واجهها بالحزم والعزم اللذين لازما الرسول فى دعوته طول حياته ، فأمر بالاستعداد لها : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » فجعل العدة نفسها للارهاب الذى قد يمنع الحرب ويحفظ السلم .

وحين لم يبق للمسلمين سبيل الا الحرب ، وأصبح حقهم فى ذلك واضحا ، أبيح القتال وكانت السلم هى المقصد الأسمى له ، لقوله تعالى « فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين » ولقوله تعالى « وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله » .

والحرب فى حق لديك شريعة ومن السموم الناقعات دواء

فان قامت الحرب الدفاعية المشروعة وقد استحكمت أسبابها ، وجب القتال على الناس كافة ، وأصبحت فريضة الجهاد على كل مسلم ومسلمة تؤدى من صميم الوجدان وفق أوامر القيادة الاسلامية الممثلة فى شخص ولى الأمر ، وعندئذ تتجلى الهمم العالية التى يريدها الاسلام ، فيحرم النكوص والفرار ويطلب الصبر والمصابرة والفداء والاستبسال وبذل الأرواح والأموال بسخاء ، وهجر المنازل والأوطان فى حالة استيلاء العدو عليها .

« يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار . ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرفا لقتال أو متحيزا الى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير » .

ولا يكلف الاسلام بقتال عنيف يستحقون على الفرار منه لعنة الله وغضبه وعذابه الا اذا كان هذا القتال حقا مشروعا ، دفاعا عن أقدس ما يدين له المؤمن . وهو فى هذا التكليف يأمر المؤمن . بالصبر والثبات وألا يولى الكفار دبره ، حتى ولو كان يقاتل بنسبة واحد لعشرة ! والتكليف بهذا هو التكليف بالمستحيل ان لم يقتنع المقاتل تمام الاقتناع بأنه يقاتل عن حق لا محل للشك فيه ، هو حق الدفاع عن النفس والعقيدة ضد من يعتدى عليهما . ولا يمكن فى حرب العدوان أن يحمل الناس على الصبر واحدا لعشرة ، وهم يعرفون أنهم هم الذين اعتدوا وأضرموا نار الحرب ، فانهم عندئذ لا يجدون من أنفسهم صبرا ، اذ لا داعى للفداء بالنفس والرغبة فى الموت دون الحياة .

فتلك الآيات الجليلة التى تحرض على القتال والاستبسال والاستشهاد والتشديد على العدو ومفاجأته والغلظة عليه والتربص له ، وسد جميع المسالك والمنافذ فى وجهه ، والتى تدعو الى بذل الأموال وهبة النفوس وهجر الأوطان فى سبيل نصر الله ، واضحة فى أنها تحرض على حرب دفاعية مشروعة بشرعية الاسلام .

الحرب الهجومية لا يبيحها الاسلام

واذن يظهر لنا من مجموع آيات الكتاب الكريم الواردة فى القتال ، ومن عمل النبى نفسه فى سننه ، ومن السيرة وتاريخ حروبه ، أن الاسلام لا يبيح حرب الاعتداء ، ولا يحل الحرب لعرض الحياة الدنيا ، فعند الله مغانم كثيرة . أما الغايات الأخرى التى يقاتل من أجلها الناس ، كسيادة عنصر على عنصر ، أو شعب على شعب ، أو استعلاء ملك على ملك ، أو طبقة من الطبقات الاجتماعية على طبقة أخرى ، أو توسيع رقعة مملكة ، أو أغراض حربية واستراتيجية ، أو الأغراض الاقتصادية ، أو الاستئثار بالمواد الخام والأسواق التجارية ، أو تمدين المتخلفين عن الحضارة ، أو غير ذلك مما تتخذه الدول وسيلة لاشعال الحرب ونقض العهد وهدم السلم الدائمة ، فليس ذلك كله فى شىء مما أباح الاسلام القتال لأجله ، ذلك لأن غايات الاسلام انسانية سامية يعم نفعها الناس جميعا ، ونظرته علوية تقع على البشر جميعا كأسرة واحدة متكافلة ، والله تعالى ليس رب المسلمين وحدهم ، بل رب العالمين ..

الحرب لاغراض مادية غير مشروعة

« يا أيها الناس ان خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا . ان أكرمكم عند الله أتقاكم » « كلكم من آدم وآدم من تراب » « ولا تقولوا لمن ألقى اليكم السلام لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا » « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين ، انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على اخراجكم أن تولوهم . ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون » . « فان اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا اليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا » .

ضرورة تقدر بقدرها

فالاسلام على استعداد دائم لعقد اتفاقات منوعة مع جيرانه والأمم الأخرى تكفل دوام السلم ، ولا تكلف هذه الأمم أكثر من أن تكون لها رغبة حقيقية فى السلم ، ونية صادقة للوفاء بالعهد ، وهو مع هذه الرغبة الأكيدة فى دوام السلم لايستعجل الحرب ولا يباغت بها ، بل يقيم حجته ويبسطها لمنازعه وينذره ، ويضع أمامه المخارج من مأزقه ، فاذا عاند وأبى الا قتالا وأصر على عدوانه ، كانت الحرب ، وكان ذلك التحريض عليها

والاستبسال والفتك بمن اعتدى ، والصبر والمصابرة والبذل والتضحية والهجرة وكل ماينطوى عليه الفداء بالأموال والأنفس مما جاءت به الآيات الجليلة التى ذكرنا بعضها ، والتى يتخذها بعض الناس ، وخصوم الاسلام وسيلة لتصوير الدعوة المحمدية بأنها دعوة دموية جعلت الحرب عنصرا دائما لقهر الناس واستباحة أموالهم وأنفسهم .

فالدعوة المحمدية واضحة النهج مستقيمة ، ابتدأت بتحريم القتال ، فلما ظلم أهلها واستحال ظهورها بغير دفع القوة بالقوة ، أباحته ، فلما أذنت به أمرت أن يكون على أكمل وجه يؤدى للنصر ، فلما كان لها النصر نادت بأن « لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » .

وهى دعوة موفقة تواجه الحق بالحق وبالصراحة والاخلاص . فما دام أهل الشر لا يريدون الا شرا فان من ظلم النفس أن يصبر الناس على الضيم ، وأن يستضعفوا فى الأرض .

الضعف والذل ظلم للنفس

« ان الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم ، قالوا فيم كنتم ؟ قالوا كنا مستضعفين فى الأرض . قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ؟ فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا . الا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا . فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم » .

فكما ان الدعوة المحمدية بغضت أتباعها فى العدوان اذ قال الله تعالى : « ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين » ، أمرت كذلك بالهجرة عن الأوطان ، بل بالاستشهاد والموت دون قبول الذل والهوان .

الحرب لنصرة المظلوم

مبدأ شريف فى الجاهلية والاسلام ـ قصة حلف الفضول ـ حلف مرغوب فيه دائما ـ لاتحالف فى الاثم والعدوان ـ وصايا قرآنية بالعدالة المثالية ـ حرب أخرى مشروعة ـ حلف جاهلى آخر يجدد بروح اسلامية ـ المسيحية والحرب ـ اختلاف المسيحيين فيها ـ الحرب العادلة عند بعض المسيحيين ـ لجوء المسيحيين الى شبيه بالنظرية الاسلامية .

مبدأ شريف فى الجاهلية والاسلام

مما يشرف الدعوة المحمدية أنها أباحت القتال ، بل جعلته من الفضائل لرد المظالم ودفع العدوان عن الضعيف ، سواء أكان فردا أم جماعة ، رغبة منها فى اقامة حصن العدل الذى يريده الله على الأرض .

وقد جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم لرد المظالم ، كما جلس لذلك خلفاؤه من بعده ، وبيده سلطان الدولة لقهر المعتدى ودفع الظالم .

قصة حلف الفضول

وأقر صلى الله عليه وسلم « حلف الفضول » ، وهو ذلك الحلف الذى عقد فى الجاهلية لنصرة المظلوم ، وقال «لو دعيت اليه فى الاسلام لأجبت» .

وسبب ذلك الحلف أن رجلا من اليمن قدم مكة ببضاعة ، فاشتراها منه رجل من بنى سهم ، قيل انه « العاصى بن وائل » ، وامتنع بسلطانه عن أن يدفع للرجل ثمن بضاعته ، أو يرد اليه ماله ، فقام الرجل بجوار الكعبة وصرخ بأعلى صوته :

يا لقصى لمظلوم بضاعته ... ببطن مكة نأيى الدار والنفر !

فقام نفر من قريش وردوا عليه ماله ، ثم اجتمع بنو هاشم والمطلب وأسد بن عبد العزى وزهرة بن كلاب وتيم بن مرة فى دار عبد الله بن جدعان وتحالفوا على رد المظالم وانصاف المظلوم من الظالم . وكان النبى صلى الله عليه وسلم معهم ، وسنه وقتئذ خمس وعشرون سنة ، وكان اذا ذكر حلف الفضول يقول : « لقد شهدت فى دار عبدالله بن جدعان حلف

الفضول ، أما لو دعيت اليه فى الاسلام لأجبت وما أحب أن لى به حمر النعم وأنى نقضته ، وما يزيده الاسلام الا شدة » .

فاذا قد أقر النبى صلى الله عليه وسلم حلفا تعاقد فيه طائفة من الناس على القتال لنصرة المظلوم وقال انه يفضله على خير ما فى الدنيا ..

وبذلك أصبحت الدولة الاسلامية مكلفة شرعا برد المظالم ، بل والقتال لنصرة المظلوم .

ونستطيع اذن أن نقرر ان الاسلام الذى أباح الحرب للأسباب الواردة فى الآية الجليلة : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير » . وما بعدها ـ وقد ذكرناها فى الفصل السابق ـ يبيح القتال كذلك لنصرة المظلوم فردا أو جماعة ، مسلما أو غير مسلم ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى نزهه الله عن ضلالات الجاهلية منذ صباه قد اشترك فى حلف الفضول قبل بعثته ، وأقره فى الاسلام ، وقال ان الاسلام ، لا يزيده الا شدة .

فكما أن الحرب تقع للدفاع عن النفس من مظلوم ضد ظالمه ، انها تقع كذلك من قوى على قوى لنصرة مظلوم لا ينتمى لأحدهما .. واذن يجوز لدولة اسلامية أن تتحالف مع دولة أو دول أخرى لدفع الاعتداء والظلم عن المظلومين .

حلف مرغوب فيه دائما

فارتباط مصر كدولة اسلامية فى ميثاق (هيئة الأمم المتحدة) مثلا لا ضرر فيه من الناحية الشرعية . ومتى حسنت النية وكان الميثاق قائما على حب الخير والعدل والانصاف وحماية المظلوم ومنع الاعتداء بالقوة فانه يكون ميثاقا مرغوبا فيه من المسلمين ، حكمه حكم حلف الفضول الذى لم يزده الاسلام الا توثيقا وشدة ، والذى كان من أحب الأشياء الى قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

لا تحالف فى الاثم والعدوان

أما اذا كانت المواثيق للتعاون على الظلم ولقهر المغلوبين واستباحة المستضعفين ، فان الاسلام يعدها تعاونا على الاثم والعدوان الذى ينهى عنه ، وبعدا عن التقوى والبر الذى يدعو اليه . قال تعالى « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان » .. والأعمال فى

الاسلام كلها مرجعها النية فهى التى تصلحها أو تفسدها ، والعبرة فيها بما تقصد اليه من خير ، وما تريده من العدل الذى هو أساس نظام الخليقة كلها . يقول تعالى « والسماء رفعها ووضع الميزان » ويقول تعالى « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين » الى آخر الآيات التى ذكرناها فى فصل سابق .

فكتاب الله وسنة رسوله وأئمة المسلمين متفقون على أن العدل هو غاية الشريعة . وعليه فان القتال لنصرة المظلوم من عباد الله هو أمر يستحق ثواب الله ، وللدولة المسلمة أن تعلن الحرب وهى فى حدود الشريعة ما دام مقصدها الانصاف ودفع الظلم عن الغير .

حروب اخرى مشروعة

وفى نظرى أن هذه هى الحالة الوحيدة التى تكون فيها الحرب مشروعة ولو لم تكن دفاعية بالنسبة لجماعة المسلمين الذين هم فى منعة بقوتهم عن أن يعتدى عليهم .

وعلى هذا الأساس يجوز للدولة الاسلامية كما قلنا أن تشترك فى ميثاق كميثاق (هيئة الأمم المتحدة) أو ميثاق (كيلوج) مثلا متى ثبت لها أن ذلك يقيم العدل بين الناس ، كما ان لها أن تدعو الى ميثاق أو حلف لرد المظالم وانصاف المستضعفين .

وليس لها بالطبع أن تقاتل أو تشترك فى قتال تدعى اليه ما لم تتبين بكيفية لا محل للريب فيها أنها تقاتل دفاعا عن النفس ، أو دفعا لظلم بين يقع على مستصرخ مستضعف لا يكون العدل والانصاف الا باغاثته ونصرته ، كالحالة التى أشرنا اليها فى حلف الفضول .

حلف جاهلى آخر يجدد بروح اسلامية

واليكم حلفا آخر عقد فى الجاهلية وجدد فى الاسلام ، وهو بين فى اباحة الحرب لنصرة المظلوم ، وبين فى منع التعاون على الباطل والاعتداء .

فى هدنة الحديبية بين قريش والرسول صلى الله عليه وسلم ، كان الشرط الرابع من شروط الهدنة « أن من دخل فى عهد قريش دخل فيه ، ومن دخل فى عهد محمد دخل فيه » وبناء على هذا الشرط تحالف بنو بكر

مع قريش ، وتحالفت خزاعة مع النبى صلى الله عليه وسلم ، وكانت قبيلة خزاعة حليفة فى الجاهلية لعبد المطلب جد النبى صلى الله عليه وسلم ، فأرادت خزاعة أن يكون ميثاقها مع الرسول مجددا كما كان مع آبائه .

وهذا نص محالفتها مع عبد المطلب « باسمك اللهم . هذا حلف عبد المطلب بن هاشم لخزاعة حلفا جامعا غير مفرق ، الأشياخ على الأشياخ ، والأصاغر على الأصاغر ، والشاهد على الغائب ، وقد تعاهدوا وتعاقدوا أوكد عهد وأثق عقد لا ينقض ولا ينكث ما قام الأخشبان (جبلان بمكة) واعتمر بمكة انسان . وان عبدالمطلب وولده ورجال خزاعة متضافرون يتعاونون ، وعلى عبد المطلب النصرة لهم ، وعلى خزاعة النصرة لعبد المطلب وولده على جميع العرب فى شرق وغرب وحزن وسهل ، جعل الله على ذلك شهيدا وكفى به وكيلا » .

فأقر النبى صلى الله عليه وسلم نصوص هذه المحالفة وجدد عهدها ؛ غير أنه زاد فيها شرطين : الأول ألا يعين خزاعة اذا كانوا ظالمين ، والثانى أن ينصر خزاعة اذا ظلموا ، وبعد أن زاد هذين الشرطين كتبت نسختان من هذه المعاهدة تسلم كل طرف نسخة منها .

لم تكن خزاعة وقتئذ قد أسلمت بل كانت لا تزال على شركها ، وكل ما بينها وبين الرسول هو تلك العلاقة الجاهلية التى كانت مع جده ، وكان أساسها تحالفا على الحق والباطل . فشرط الرسول صلى الله عليه وسلم فى هذه المحالفة يدل على عدة أشياء .

اولا — أنه لا يقر المحالفة على أساس تعاون غير معين قد يجره الى باطل ، وهو الذى بعثه الله لاقامة العدل ، بل اشترط فيها صراحة ألا يعين خزاعة حليفته اذا كانت ظالمة .

ثانيا — أنه لا يمتنع عن نصرة مظلوم ولو كان مشركا .

ثالثا — أنه تعهد بنصرة هذا المظلوم ولو أنه مشرك مخالف فى الدين .

رابعا — أن أساس الحرب المشروعة هى الحرب الدفاعية ، سواء أكانت هذه الحرب دفاعا عن النفس أم دفاعا عن طرف ثالث يستحق

النصرة ، وهى مباحة فى حالة عدم الالتزام بها وواجبة فى الحالة المماثلة لحالة خزاعة ، اذا كانت لنصرة معاهد مظلوم ».

* * *

لقد حاولت بعض الأديان الأخرى قبل الاسلام آن تخفف من ويلات الحرب ، وأن تضعف من شرها وأن تحدد بلاءها ، حاولت محاولات صادقة ولكن مع الأسف قد طغت طبيعة الشر .

المسيحية والحرب

جاءت المسيحية بتحريمها الحرب بتاتا بقول السيد المسيح عليه السلام فى انجيل متى « أما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشر بالشر ، بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضا ، ومن سخرك ميلا واحدا فاذهب معه ميلين » .

ويستند كذلك أنصار الرأى القائل بتحريم الحرب تحريما مطلقا الى قول المسيح عليه السلام للقديس بطرس « أعد سيفك الى مكانه ؛ لأن كل الذين يأخذون السيف بالسيف يهلكون » وعلى هذا تحرم المسيحية الحرب بل التسليح أيضا .

اختلاف المسيحيين

ولكن المسيحيين اختلفوا فيما بعد ؛ فبينما كان رجال الكنيسة الغربية فى القرون الأولى للمسيحية يقاومون بكل سلطانهم الحرب حتى ولو كانت دفاعا عن النفس ، فان رجال الكنيسة الشرقية فى بيزنطة قد خلطوا بين شخص الامبراطور سيد العالم وبين الرئاسة الدينية ، فجمعوا فى ذاته سلطان الله وسلطان الدولة ، وسارت بيزنطةفى طريق مخالف تماما لرأى رجال الكنيسة الغربية ، فلم تكتف بتحليل الحرب التى حرمها المسيح ، ولا هى اتخذت طريقا وسطا فأحلتها للدفاع عن النفس أو نصرة المظلوم كما فعلت الشريعة المحمدية ، ولكنها رضيت أن يكون حق اعلان الحرب حقا مطلقا للامبراطور ، لايحده الا المصلحة التى يراها ذلك الامبراطور جامع كل السلطات .

لقد كان ظهور المسيحية فى العصور الأولى خيرا وبركة على البشر ، فقاومت أصول الشر فى نفوس أتباع المسيح ، وصانت دماء غزيرة كان

بريقها السلب والنهب والعدوان والطغيان . ولا شك أن المسيحية استمرت طويلا تكافح الى أن نسى الناس دين المسيح ودعـوته ، وأقاموا من شهواتهم وأغراضهم ومصالحهم كل الأسباب لحروب الطغيان التى اكتوى البشر بنارها فى الشرق والغرب طول العصور الوسطى وما بعدها الى يومنا هذا .

الحرب العادلة عند بعض المسيحيين

ولقد بذل رجال من المسيحيين حياتهم فى سبيل التمسك بتحـريم الحرب بل تحريم صناعة الجندية ، وبذل آخرون جهودا جبارة فى سبيل التوفيق بين نص الانجيل وضرورات الدولة ، فخرجوا بالتفريق بين الحرب المباحة والحرب الممنوعـة ، وأثاروا البحث فيما هى الحرب العادلة ؟ فحددوها بأن يعلنها الأمير ، وأن تكون عادلة ، واشترطوا فيمن يعلنها أن يكون سليم النية صادقا بلا طمع ولا وحشية .

والحرب فى نظر هؤلاء المصلحين من المسيحيين تعتبر وسيلة لتنفيذ حكم عادل قضى به قاض ، فلا تبعثها الأنانية وانما يحدوها العدل وتلبسها الرحمة .

ولا يسمح المقام بسرد النظريات المسيحية وتطورها ، فيمكن للراغبين فى التفصيل الرجوع اليها فى مراجعها .

ولكننا نستخلص من ذلك الجـدل وتلك الأبحاث ، بعد أن دامت أكثر من ألف سنة ، أنها اهتدت الى مبادىء هى أشبه شىء بالقواعـد الاسلامية للحرب المشروعة والحرب العادلة التى أشرنا اليها فى هـذا الفصل وما قبله .

وفى اعتقاد أن القـواعد الاسـلامية هى الأسس الصـحيحة التى جمعت بين ما يقتضيه اقامة صرح العدل العالمى ، وما تقتضيه الرحمـة والأخوة البشرية ، وما يقتضيه الانصاف وكبح أهواء النفوس الشريرة ، وما يقتضيه صون الدماء واقامة السلم الدائمة على حرمة مقدسة .

لجوء المسيحيين الى شبيه بالنظرية الاسلامية

لذلك فانى أدعو ذوى البصيرة والنظر لاستمداد الشريعة المحمـدية فى وضع نظام للعلاقات الدولية والسلم العالمى ؛ فعلى ضـوء المبادىء

السامية العملية التى دعا اليها محمد صلى الله عليه وسلم يمكن تجديد ميثاق جامعة الأمم ، ويمكن اجتناب اتخاذ الحرب وسيلة لتحقيق الأغراض والمطامع البشرية .

« ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » .

ولتكن روح هذه الآية الكريمة روح الميثاق الدولى :

«وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فان بغت احداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء الى أمر الله ، فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ان الله يحب المقسطين » .

ولا شك أن هذا النظام للمؤمنين يمكن أن يكون نظاما للناس جميعا ، ويمكن للدول الاسلامية أن تتعاهد عليه ، وأن تقاتل لاحترامه ورد من ينتهك حرمته .



نصرة المظلوم ضرب من التكافل

« وبعد » فالحرب لنصرة المظلوم لا يراد بها أغراض دنيوية ولا تحقيق مطامع دولية ، ولا شفاء حسد أو حقد ، وانما تقع لمجرد احقاق الحق ودفع الباطل ، وهى حالة ظاهرها التدخل بين طرفين آخرين والاعتداء على أحدهما لنصرة الآخر ، الا أن حقيقتها الدفاع ، لأن المقصود منها رد العدوان عن مستضعف . واذا اعتبرنا أن التكافل البشرى سبب العمران ، وأن العدل أساسه ، فالحيلولة بين المعتدى وبين نقض أساس العمران هى دفاع عن العمران نفسه ، وهو على هذه الصورة دفاع حتى عن المعتدى يمنعه من شر نفسه . واذا قيل ان هذا يأذن بالتدخل المستمر فى شئون الغير ، والتدخل اعتداء من الدولة الاسلامية ، وقيل ان الدولة غرضها نفسها ، وليس لها أن تقيم من نفسها شرطيا عالميا ، قلنا ان هذه الحالة

هى الوحيدة فى نظرنا ، وهى مبررة ، وان العالم يحس من أعماق نفسه الحاجة الى من ينصف المستضعف ، وان الدول الأوربية بعد أكثر من ثلاثة عشر قرنا من حلف الفضول وحلف خزاعة ، حاولت أن تقيم فى ميثاق عصبة الأمم عهدا مماثلا لما أراده الاسلام من نصرة المظلوم ، فأقرت مبدأ التدخل الجماعى للسلامة الجماعية ، ولاحقاق الحق وازهاق الباطل . والعبرة فى الأعمال بالنية ، فهى التى تصلح الأعمال أو تفسدها . ولا شك فى حسن نية الدولة الاسلامية ما دام الباعث لها على التدخل الذى يجر الى الحرب هو ما يوصى به الضمير وتستلزمه العقيدة من غرض سام يقصد به وجه الله وحده واحقاق الحق .

أدب الحرب

الحرب والرق والقضاء عليهما تدريجيا — أدب عام وأدب خاص — بين الانذار والمباغتة — حماية حقوق المستأمن المنتسب للعدو — من سماحة الفقهاء — واصل ابن عطاء والخوارج — مسالمة غير المحاربين — الغارات العصرية على الآمنين — قرار الى وصايا الرحمة فى الاديان — التخريب القاسى — حوادث ونصوص — نظرات فى أحكام الاسر والاسترقاق — حادثة بنى قريظة وغموض بعض ظروفها — لاقتل بسبب الشرك أو الكفر وحدة — احترام للنفس البشرية لايعرف التخصيص — اداب أخرى للحرب

الحرب والرق والقضاء عليهما تدريجيا

أجازت الدعوة المحمدية الحرب فى أضيق نطاق كما تغاضت عن الرق لأنه كان أيضا نظاما عالميا ، وعملت تدريجيا على منع الحرب ومنع الرق بأساليبها المختلفة ، وجعلت القاعدة العامة بالنسبة للأسير المن أو الفداء ، فصار تشريعها العام بالنسبة للأسير مانعا للرق . وبالحض بجميع الوسائل على تحرير الرقيق ، وتخصيص سهم من الزكاة لفك الرقاب ، وبالاحسان اليه وفقا لآداب خاصة تستلزمها الشريعة ويستلزمها الورع ، قاومت الدعوة المحمدية الرق مقاومة كانت بالتدريج أفعل فى تهيئة الضمير البشرى للقضاء عليه من المفاجأة بالتحريم البات .

كذلك الحرب ، جاءت الدعوة المحمدية والقتال نظام عام متأصل فى نفوس البشر وفى حياتهم الاجتماعية ، فلم يبدأ الاسلام بتحريمها ، ولكنه حصرها فى دفع العدوان ونصرة المظلوم فحدد أغراضها ، ثم أمر بوقفها بمجرد جنوح الخصم الى السلم ، وأنهاها بالعهود والمواثيق التى لها حرمة الايمان ، حتى جعل حق الميثاق فوق حق صلة الاسلام ، فأحاط الحرب بحدود ونظم وأسباب وأغراض وعهود وعرف فى أثناء القتال ، مما يقلل وقوعها ويخفف من ويلها . ولو ان المسلمين وفقوا فى هذه كما وفقت الدعوة المحمدية فى مقاومة الرق لشمل العالم سلام دائم كما

شمله اليوم النفور من الرق . وانا لنرجو أن تدرك هدفها فى العصر الآتى ، وقد طغى شر الحرب الى درجة غير مسبوقة . ولا يزال أمام العالم مجال اذا اهتدى بهدى الاسلام .

أدب عام وأدب خاص

عرفت الدعوة المحمدية الحرب شرا واقعا متأصلا فأحاطتها بأدب عام من تعيين غرضها ، وحصرها فى دفع العدوان وحماية حرية العقيدة ، وانهائها بالعهود المصونة العادلة ، واحاطتها كذلك بأدب خاص فى أثناء الحرب نفسها ، وفيما يجب أن يكون بين المتحاربين من عرف يرعونه ، فمتى وقع بين المسلمين وغيرهم ما يستوجب الحرب ، وجب على المسلمين أن ينذروا عدوهم بنيتهم ، ويمهلوه للرد والتفاهم ان أراد . وقد قال بعض الفقهاء ان هذه المهلة التى تعقب ما يسمى اليوم بالانذار النهائى يجب أن تكون كافية ليخبر العدو بها أطراف أهله ودولته ، وهو أدب يتفق مع القانون الدولى الحديث . ولكن بعض الدول فى هذا العصر تختار المباغتة بالحرب والهجوم على الخصم من غير انذار ، بل قد بلغ من احتياط بعضها لتتمكن من تمام المفاجأة للدولة الأخرى أن تتظاهر بالرغبة فى دوام السلم وأكثر من ذلك أن تخفى غضبها وتظهر عدم اهتمامها بالنزاع الذى تنوى الحرب من أجله !

الانذار

افتن أهل الحضارة الحديثة فى الخديعة الى درجة غير مسبوقة فى تاريخ الأقوام ، حتى صاروا يعقدون عهودا المقصود منها تغفيل المعاهد وطمأنته ، حتى تكون مباغتته وأخذه على غرة كاملة .

ذلك أدب جديد ، أو سوء أدب جديد فى الحروب ، ليس أبغض الى الاسلام منه ، والشريعة المحمدية تأباه روحا وفعلا ، وتعد فاعله آثما مستحقا غضب الله .

حماية حقوق المستأمن المنتسب للعدو

والشريعة الاسلامية بعد أن تنذر الخصم بالحرب ، وبعد أن تنقطع الحجة ، لا تلجأ الى مثل ما تلجأ اليه الدول فى العهد الحاضر من مفاجأة المستأمنين فى ديارها من رعايا الدولة أو الجماعة التى أعلنت عليها الحرب ؛ فللمستأمن فى الشريعة الاسلامية حقوق لا يمكن العدوان عليها لمجرد وقوع الحرب بين قومه والقوم الذين ينزل ديارهم ، أو يقع فى متناول

سلطانهم ، فلا يجوز الاعتداء عليه بمصادرة ماله، أو الاضرار بعمله أو شخصه ، وله كفالة كل ذلك حتى تهيأ له العودة الى وطنه الأصلى ويدخل فى حماية قومه . عندئذ وعندئذ فقط يجرى عليه ما يجرى على المحاربين ، وذلك بنص القرآن بقوله تعالى (وان أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه) وقد بلغ من حرص المسلمين على احترام حق المقيم فى ديارهم والنازل بهاعن رضا منهم قبل الحرب أو حتى أثناء الحرب ، أن قرر فقهاؤهم أنه يجب على الامام اذا وقت للمستأمن مدة ألا يجعل هذه المدة قليلة كالشهر أو الشهرين ، فان فى ذلك الحاق العسر به ، خصوصا اذا كانت له معاملات يحتاج فى اقتضائها الى زمن طويل .

من سماحة الفقهاء

وقد بلغ من انصافهم هذا الأجنبى المقيم فى ديارهم ، والذى يقاتلون أهله ودولته ، أن أباحوا له التمتع بكامل حريته ، كأن لم تكن بينهم وبين أهله حرب ، مادام خاضعا لأحكامهم ، مستقيما فى سيره وعمله ولم يركن الى أذاهم بحال من الأحوال .

أقام الاسلام هذا الأدب مع المستأمن فى حالة الحرب على أساس العدل والانصاف . وما الحروب فى جملتها الا نتائج مباشرة لفقدان العدل والانصاف .

لطيفة بين واصل ابن عطاء والخوارج

ومن أظرف ما قرأته مما يدل على مقدار ما للمستأمن من حرمة ، ما روى من أن واصل بن عطاء (زعيم المعتزلة) وقع هو وبعض اصحابه فى أيدى الخوارج ، وهم كما هو معلوم من أشد المسلمين تمسكا بأهداب الدين وتعصبا فى آرائهم ، فخشى واصل وأصحابه شرهم ، فقال لأصحابه : دعونى واياهم ، وكانوا قد أشرفوا على العطب ، فقالوا : شأنك ، فخرج اليهم ، فقالوا : ما أنت وأصحابك ؟ قال : مشركون مستجيرون ليسمعوا كلام الله ويعرفوا حدوده . فقالوا : قد أجرناكم . فجعلوا يعلمونه أحكامهم ثم قالوا : امضوا مصاحبين فانكم اخواننا . قال واصل : ليس ذلك لكم فان الله تبارك وتعالى يقول : « وان أحد من المشركين استجارك فأجره

حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه » فأبلغونا مأمننا فنظر بعضهم الى بعض ثم قالوا ذلك لكم . فساروا بأجمعهم حتى بلغوهم المأمن .

تلك القصة تدل على أن الحرمة التى للمستأمن كانت فى نظر بعض أنصار الدعوة المحمدية أعظم من الحرمة التى المسلم على المسلم ، حتى ان أحد علماء المسلمين وجد فيها خلاصا لنفسه ومن معه من يد مسلمين يقطعون طريق السابلة ويعصون الامام .

مسالمة غير المحاربين

ومن القواعد الأساسية التى بنى عليها أدب الحرب فى الدعوة المحمدية ذلك المبدأ السامى ، وهو الامتناع عن محاربة غير المحاربين وقصدهم بالأذى ؛ فهو لا يجيز قتل الشيخ أوالصبى أو المرأة أو العجزة ، أو من انقطعوا للعبادة أو العلم وامتنعوا بذلك عن أن يشتركوا فى القتال ، أو العامة من الصناع والزراع والتجار الذين لا يقاتلون ، أو بعبارة أعم ، تلك الطبقات التى نطلق عليها اليوم : المدنيين .

هؤلاء المدنيون لا يجوز قتلهم ، وقد بلغ حرص الشريعة على تجنيبهم ويلات الحروب وابعاد شرها عنهم ، وحصر الضرر فى القوات المقاتلة أن الفقهاء قالوا بوقف القتال اذا وقع بين صفوف المقاتلين من لا يجوز قتله وكان هلاكه محققا بالاستمرار فى القتال .

أين هذا الأدب ونبل الفروسية مما نحن فيه وما صار الناس اليه فى الحرب الأخيرة والتى قبلها من القاء القنابل على غير هدى ، تصيب النساء والأطفال والزراع والصناع والشيوخ والعجزة فتنسف بهم الأرض نسفا ، أو تحرقهم وديارهم حرقا ؟ !

أين تلك الحرمة للنفوس البشرية ؟ وأين تلك النظرة للحرب على أنها تحكيم للسيف بين حامليه وحدهم ، من هذا الأدب الحديث الذى لايشبهه من قرب الا ما قيل عن المغول أيام (جنكيز خان) ومن بعده ، مما لا يزال مثلا فى الغابرين لأقسى ما وصلت اليه وحشية الهمج فى قتل غير المحاربين ، وتخريب المدن والقرى ؟ !

ليس لما يأتيه اليوم المتحضرون بغاراتهم الجوية ، أو مدفعياتهم الأرضية شبيه فى السوء والقسوة حتى ما كان أيام ذلك الطاغية المغولى قبل سبعة قرون ، بل ان ما يحدث اليوم من استباحة كاملة لكل الحرمات بالغارات الجوية منقطع النظير . والشريعة الاسلامية تحرمه وتأباه فى سلطانها وضعفها غالبة أو مغلوبة . وان أباح الفقهاء الرد على أعمال التخريب والتقتيل غير المباحة بمثلها متى ابتدأ بها الخصم ، مستندين على قوله تعالى « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » وقوله «وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله» فهم متفقون على تحريم الابتداء بهذه الأعمال . وواضح من نص الآية وروحها أن المقصود الرد بالمثل لانذار الخصم واقناعه بالعدول عما اقترف من اثم . وقوله « فمن عفا وأصلح فأجره على الله » هو توكيد كذلك لرغبة الشارع فى الا يجاب على أعمال العدوان المخالفة للرحمة والأدب الا اذا قضت الضرورة القصوى .

أين هذا العرف الدولى والأدب الحربى الذى تريد تثبيته الدعوة المحمدية ، فتجعله جزءا من العقيدة والايمان ، مما تفعله الدول اليوم من التعويل على وسائل قتل المدنيين وتخريب العمار وحرق الناس وأموالهم وثمرات الأرض لتخضع خصومها وتجبرهم على القاء السلاح !

الغارات العصرية على الآمنين

بل أين هذا مما فعلته بعض دول الحضارة الحديثة من استخدام الأسلحة الجوية بقنابلها ومدافعها الرشاشة لقتال بدو لا يملكون من وسائل الحرب غير بنادق من بقية القرن الماضى ، وتسليط هذه المدافع الرشاشة على بيوت من الشعر ، وعلى السائمة من الابل والغنم فى مراعيها ؟!

فرار الى اخلاق الرحمة فى الاديان

حقا لقد آن أن يفزع الناس الى عقائدهم ، الى ما جاء به موسى وعيسى ومحمد ، لتكون للحرب حرمات وآداب تخفف من ويلها ، وقد كان الهمج يعرفون بعضها ويرعونه .

وأين ما نحن فيه مع شديد الأسف والحزن مما وصلت اليه الدعوة المحمدية من الآداب فى الحرب ، وتقريرها أن ليس المقصود من الحرب

التنكيل والتخريب ، بل أن تكون كلمة الله هى العليا ، وكلمة الله لا تكون الا حقا وعدلا وانصافا شاملا للناس جميعا ؟ !

هذا المبدأ مبدأ الرفق والرحمة على المسلمين فى حروبهم أن يلجأوا لقهر عدوهم بتجويع الأمة المحاربة ، أو منع أسباب الحياة من قوت أو دواء أو لباس من الوصول الى غير المحاربين منها

التخريب القاسى

ولقد بلغت القسوة فى الحروب الحديثة أن الجيوش اذا انسحبت من أرض دمرت ما بها ، ولو كان فى ذلك هلاك أهلها فضلا عن أعدائها ، وهو عمل لا تبيحه الشريعة المحمدية بحال من الأحوال ، فهى فوق أنها لا يمكنها أن تتصور الاعتداء على ممتلكات أهلها ممن تتركهم الجيوش الاسلامية وراءها ، ممنوعة قطعا بدينها من أن تحرق الزرع أو تقطع الشجر أو تحرم المدنيين المقيمين وسائل العيش فى الأرض التى صارت ساحة للجيوش المتقدمة والمتأخرة .

ولا خلاف بين المسلمين فى أنه يجوز فى الحرب قتل المشركين الذكران البالغين المقاتلين ، وكذلك لا خلاف بينهم فى أنه لا يجوز قتل صبيانهم ، ولا قتل نسائهم ما لم تقاتل المرأة أو الصبى (١) ، وان اختلفوا فيما عدا هؤلاء ، والنهج الواضح هو أنه لا يصح القصد بأذى لمن ليس شأنه القتال ممن نسميهم اليوم المدنيين ، ولا تخريب العمار وحرق الزرع وقطع الشجر .

حوادث ونصوص

وروى رباح بن ربيعة : أنه خرج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة غزاها ، فمر رسول الله وأصحابه على امرأة مقتولة ، فوقف عليها ، ثم قال : « ما كانت هذه لتقاتل ! » ، ثم نظر فى وجوه أصحابه وقال لأحدهم : « الحق بخالد بن الوليد فلا يقتلن ذرية ولا عسيفا (أجيرا) ولا امرأة » .

وروى مالك عن أبى بكر الصديق أنه قال : « ستجدون قوما زعموا أنهم حبسوا أنفسهم لله ، فدعوهم وما حبسوا أنفسهم له ، ولا تقتلن امرأة ولا صبيا ولا كبيرا هرما » .

---

(١) انظر بداية المجتهد ونهاية المقتصد للامام ابن رشد .

وقال زيد بن وهب : « أتانا كتاب عمر رضى الله عنه ، وفيه لا تغلوا ولا تغدروا ولا تقتلوا وليدا ، واتقوا الله فى الفلاحين » ، وروى كذلك عن عمر أنه قال : « لا تقتلوا هرما ولا امرأة ولا وليدا وتوقوا قتلهم اذا التقى الزحفان وعند شن الغارات » . ويقول الامام ابن رشد : « انه ثبت عن أبى بكر رضى الله عنه أنه قال : لا تقطعن شجرا ولا تخربن عامرا » . ولا يجوز لأبى بكر أن يخالف رسول الله مع علمه بفعله من قطع نخل بنى النضير والفقهاء يفسرون ذلك بأن أبا بكر رضى الله عنه كان يعلم أن حادثة بنى النضير التى تشير اليها سورة الحشر كانت خاصة ببنى النضير كما أنه لا يعرف عن رسول الله أنه قتل حيوانا ، والمسلمون متفقون على تحريم المثلة ، ولم يذكر الكتاب الكريم حادثة بنى النضير فى سورة الحشر بتفصيل غير الاشارة اليها فى سياق القصة والموعظة ، كما لم يشر الى حادثة بنى قريظة الا على سبيل العظة كذلك بهذه الآية فى سورة الأحزاب : « وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف فى قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا . وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطئوها وكان الله على كل شىء قديرا » .

نظرات فى أحكام الاسر والاسترقاق

وليس فى القرآن الكريم نص واحد على قتل الأسير ، ولا على استرقاقه ، ولم يرو عن رسول الله أنه استرق أسيرا ، والنص الصريح هو تخيير الامام بين أمرين لا ثالث لهما : المن والفداء . يقول تعالى : « حتى اذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق ، فاما منا بعد واما فداء حتى تضع الحرب أوزارها » . ويقول الامام ابن رشد رواية عن الحسن بن محمد التميمى : ان اجماع الصحابة على أنه لا يجوز قتل الأسير .

فالتشريع العام اذن : هو أنه لا يجوز قتل المدنيين ، ولا قتل المحاربين بعد تسليمهم ، وما شذ عن ذلك فى الماضى ، أو ما يشذ عنه فى المستقبل من عمل الامام المسلم العادل انما يكون لظروف وأسباب خاصة تقتضى تخصيصا فى الحكم . وحادثة بنى قريظة تحيط بها أسباب معلومة وأسباب نجهلها . أما المعلوم فهو أنهم خانوا عهدهم واستغلوا ظروف كرب وقع للمسلمين لما حصرت الأحزاب المدينة ، وقد زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ، فنقضوا عهدهم ، وطعنوا المسلمين من خلفهم .

حادثة بنى قريظة وغموض بعض ظروفها

وسبب آخر ، هو أنهم نزلوا على حكم سيد الأوس سعد بن معاذ ، وهم من مواليه فحكم فيهم بما حكم ؛ فهم سلموا على شرط ، وكان الشرط عليهم . وقيل كذلك : ان ما حكم به عليهم من القتل جاء موافقا لشريعة اليهود ، وان سعدا حكم عليهم بشريعتهم . والحادث فى جملتــه يشعر بغموض يكتنفه ، مما يدعونا الى الظن بوجود أسباب أخرى مجهولة لنا .

لاقتل لعلة الشرك او الكفر وحدها

وما يبرر به بعض الفقهاء قتل المشركين أو من فى حكمهم بعلة الكفر أو الشرك وحدها ، لا يستقيم فى نظرنا مع نصوص الكتاب الكريم وروحه فى موضوع القتال ، ولا مع عمل النبى والمسلمين فى فتوحاتهم أربعين سنة من الهجرة الى نهاية أيام الخلفاء الراشدين .

أدلة العقل

والقول بالقتل لعلة الكفر لا يستقيم فى دين يجعل لقتل رجل مشرك من قوم لهم ميثاق ما للمؤمن من حق . يقول تعالى « وان كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة الى أهله وتحرير رقبة مؤمنة » . بل ميزه على المؤمن من قوم ليس لهم ميثاق .

أدلة التاريخ

ولو كان القتل لعلة الكفر أصلا كما يقول بعض الفقهاء لقتل النبى مشركى مكة أثناء فتحها ، ولقتل مشركى هوازن بعد «حنين» ، ولما حالف النبى صلى الله عليه وسلم خزاعة وهى مشركة ، ولكان المســلمون فى فتوحاتهم من الهند الى فرنسا وباء على العالم ما تركوا على ظهره هذه الساحة من الكفار حيا . وقد روى عن رسول الله حوادث كثيرة فى العفو والرحمة مع خصوم أشداء ومع قتــلة أعز أصحابه وأهله . ويكفى أن تقرءوا فى كتب الســيرة معاملته بعد فتح مكة لعكرمة بن أبى جهــل وصفوان بن أمية ، وهما عدوان وابنا عدوين له ، وعفوه عن وحشى قاتل عمه حمزة ، ولم يكن الا عبدا حبشيا لا فى العير ولا فى النفير ، وصفحه عن أبى سفيان ابن الحارث بن عبد المطلب ، بعد أن أسرف فى خصومته وهجوه . فهذه أمثلة واضحة على العدل الذى يأبى قتل المدنيين ، أو قتل الأسرى ، أو من جنحوا الى السلم .

رفع اليه صلى الله عليه وسلم بعد احدى الوقعات أن صبية قتلوا بين الصفوف ، فحزن حزنا شديدا ، فقال بعضهم : ما يحزنك يا رسول الله

وهم صبية للمشركين ؟ ! فغضب النبى وقال ما معناه : ان هؤلاء خير منكم ، انهم على الفطرة . أو لستم أبناء المشركين ؟ فاياكم وقتل الأولاد ! اياكم وقتل الأولاد !

ويروى البخارى عن جابر بن عبد الله قال : مرت بنا جنازة فقام لها النبى وقمنا ، فقلنا يا رسول الله : انها جنازة يهودى . فقال « أو ليست نفسا ! اذا رأيتم الجنازة فقوموا » .

احترام للنفس البشرية بدون تخصيص

فهذا احترام للنفس البشرية لا يعرف التخصيص ، ولا يمكن أن يجيز قتل غير المحاربين ، أو قتل الأسرى لعلة الكفر وحدها .

فنحن مطمئنون تمام الاطمئنان لما ذكرنا من تحريم وقتل المدنيين وتجويعهم ومن تحريم تخريب العمار والزرع والشجر ، وقتل الأسرى ، وتحريم المثلة والاجهاز على الجرحى .

ونعتقد أن الوسائل الحديثة من الغارات الجوية وما يترتب عليها ، والرماية بالمدفعية على غير هدى ومن غير انذار على المدنيين أطفالا ونساء ، شيوخا ومرضى ، زراعا وأجراء فى البر أو البحر أو الجو ، لا تبيحها الشريعة المحمدية .

اداب أخرى للحرب

وقد جاءت السنة والعرف بآداب أخرى كثيرة للحرب ، من مجاملة رسل العدو وعدم التعرض لهم بأذى ، ومن الاحسان للأسرى بما جعلهم مستحقين للبر ، متساوين فى ذلك مع أيتام المسلمين وفقرائهم . يقول تعالى « ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا . انما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا » .

السلم الدائمة

السلم دائمة والحرب طارئة — دفع تهم واوهام — من أسباب اضطراب السلام — نصوص فى تدعيم حياة السلام — روح سلمية واحدة فى مكة والمدينة — شهادة الاجانب — شهادة التاريخ

السلم دائمة والحرب طارئة

لننظر فى أساس العلاقات الدولية فى نظر الدعوة المحمدية ، هل هو قائم على فرض أن الحرب هى الحالة الدائمة بين جماعة المسلمين وغيرهم ؟ أو أنها حالة عارضة والسلم الدائمة هى أساس العلاقات الدولية ، ينقضها العدوان والظلم وحده ؟

دفع تهم واوهام

يظن بعض الناس ، لما صحب الدعوة المحمدية فى العصر الأول من الفتوحات والحروب ، أنها دعوة قامت على السيف وتقوم به ، ويظنون كذلك أن الاسلام بصفته دينا وبصفته دولة ، فى حالة نزاع دائم مع من يخالفونه فى دياره وخارج دياره ، وأنه يشبه بعض الأديان الأخرى اختصاصه باله هو للمسلمين خاصة ، وهو معهم دون سواهم ، أو كبعض الأديان التى جاءت فى أول عهدها برسالة السلام على أشمل معانيها فحرمت الحرب وأيضا صناعة الجندية ، ثم انقلب رؤساؤها الدينيون وانقلبت مؤسساتها اللاهوتية الى النقيض ، فأباحت الحرب وباركت الحراب والمدافع فضلا على الجندية ، ووصل بها الغلو فى عهود طويلة الى اهدار دماء المخالفين فى الدين ، بل اهدار دماء المخالفين فى بعض مظاهر الدين وطقوسه لأهل الطائفة الواحدة ، بل وصل الحال بهؤلاء الرؤساء الدينيين أنهم حرموا على الأمراء من دينهم أن يهادنوا مخالفيهم فى المذهب فضلا على مخالفيهم فى الدين ، فجعلوا لأنفسهم حق فسخ العقود والمواثيق ونقض الأيمان التى يرتبط بها أمير مع أمير أو مع ملك آخر ، أو دولة مع دولة ، وان كان من شأنها أن تصون الدماء وأن تقيم العدل بين طوائف متناحرة ،

فلم تكن للمواثيق والأيمان فى نظرها حرمة ، لأن الملحد والكافر ، بل المنشق والمخالف فى المذهب مهدور الحق ، فلا حرمة لعهد معه اذا جازت مفاوضته ومعاهدته .

من أسباب اضطراب السلام

وبذلك اختل نظام الاجتماع كله ، بل استحال قيام نظام دولى ، لأن زعماء الأديان كانوا يملكون حل الناس من أيمــانهم وعهودهم ، وكانوا يفترضون أن الأصل هو الحرب مع المخالف ، وأن السلم عرض ينقض بمجرد القدرة على نقضه ، وأنه لا ذمة لكافر أو منشق على الاطلاق .

وذلك كله عكس ما جاءت به الدعوة المحمدية ؛ فهى أولا تدعو الى اله هو رب العالمين ، منزه عن الغرض والهوى ، خلق الجميع على فطرة واحدة ، يهــدى من يشاء ويضل من يشاء ، وهو القاهر فوق عبــاده ، لا سلطان لهم على سلطانه يقول تعالى : « ولو شاء ربك لجعل النــاس أمة واحدة » .

هذه الدعوة من شأنها أن تفرض أن حالة الســلم بين الناس دائمة وأنها هى الأصل ، وأن عدوان بعضهم على بعض هو وحده الذى يزعج هذه السلم ، ويضرم لظى الخصومة ، ولذلك اعتبرت الحرب حالة ضرورة يطلقها من عقالها العدوان والظلم ، ويبيحها التكافل البشرى ، فتقع كذلك لنصرة مستضعف مظلوم مستصرخ .

وقد بينا فيما سبق كيف كان الاذن بالقتال ، وما هى أسباب الاذن ، كما بينا ماهية الحرب المشروعة ، مما يعين على تفهم الدعوة المحمدية ، ومما يبين أن الحرب التى أباحتها الشريعة تقع استثناء للقاعدة العامة ، وهى السلم الدائمة بين البشر .

نصوص فى تدعيم حياة السلام

واليكم أدلة أخرى من الكتاب والسنة ، وما جرى عليه المسلمون . يقول صلى الله عليه وسلم « لا تتمنوا لقاء العدو وسلوا الله العافية » . فهو ينهى عن الرغبة فى الحرب وتمنيها ، حتى مع العدو ويسأل الله أن يديم نعمة السلم .

وفى البخارى أن رجلا جاء الى النبى ، فقال : الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل للذكر ، والرجل يقاتل ليرى مكانه ، فمن فى سبيل الله ؟ قال

صلى الله عليــه وسلم : «من قاتل لتكون كلمة الله هى العليــا فهو فى سبيل الله » .

وهــذا واضح فى نقض معظم أســباب الحروب التى قاسى العــالم ويلاتها ، وحصرها فى الحق والعــدل الذى يريده الله ، وواضح فى أن الأصل هو السلم .

وكان صلى الله عليــه وسلم يوم الأحزاب ، والحرب قائمة ، ينقــل التراب ، وقد وارى التراب بياض بطنه ، ويحفر مع أنصاره الخندق وينشد :

لاهم(١) لولا أنت ما اهتدينا و لاتصــــدقنا ولا صلينا
فأنزلن ســكينة علينــــا وثبت الأقدام ان لاقينا
ان الألى هم بغوا علينــا اذا أرادوا فتنــة أبينــا

ففى هذا النشيد تتجلى روح التقوى والتنزه عن البغى الذى يفعله الخصوم ، والدفاع عن حقه فى اختيار دينه الذى تريد الأحزاب أن تفتنه فيه وترده عنه .

فلولا هذا البغى لاستمرت السلم التى هى الأصل .

ثم انظروا وتبصروا فى هذه الآيات الجليلة بروحها ونصها .

يقول تعالى « يأيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين » ، ويقول تعــالى « وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله ، انه هو السميع العليم . وان يريدوا أن يخدعوك فان حسبك الله » ، ويقول تعالى « ولا تقولوا لمن ألقى اليكم السلام لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا » .

ويقول « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين » . « فان اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا اليكم السلم فما جعــل الله لكم عليهم سبيلا » .

---

(١) بمعنى اللهم .

ثم انظروا الى روح السلم والمحبة التى تشع من هذه الآيات الجليلة .

يقول تعالى خطابا لرسوله « فلذلك فادع ، واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم ، وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب ، وأمرت لأعدل بينكم ، الله ربنا وربكم ، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا واليه المصير » .

« وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم ؟ فان أسلموا فقد اهتدوا ، وان تولوا فانما عليك البلاغ » .

« قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ليجزى قوما بما كانوا يكسبون » .

« ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هى أحسن ، الا الذين ظلموا منهم » .

ويقول « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات ، الى الله مرجعكم جميعا » .

« ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا . أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ! » .

« وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا » .

روح سلمية واحدة فى مكة والمدينة

قد يقول بعض الناس ممن آمنوا أو ضلوا : ان الآيات المكية تفيض بهذه الروح ، بينما الآيات المدنية تشتد على الكفار والمنافقين وتحض على القتل والفتك ، وهو قول باطل لأن كتاب الله لا يتجزأ وقد سبق أن بينا أن الحض على الحرب فى معظم آيات الحرب هو تحريض على الصبر والاستشهاد والفتك فى حرب واقعة فعلا ، ولم تنته الى مستقر من السلم يطمئن اليه المؤمنون ، فهى نتيجة للحرب لا دعوة اليها . ومع ذلك فاليكم بعض الآيات المدنية :

« لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » .

« قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، فان تولوا فانما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم ، وان تطيعوه تهتدوا ، وما على الرسول الا البلاغ المبين » .

ويقول تعالى لرسوله : « ولا تزال تطلع على خائنة منهم الا قليلا منهم فاعف عنهم واصفح ان الله يحب المحسنين » .

فالاسلام فى جميع أدوار الدعوة فى المدينة أو فى مكة لم يعول الا على الحجة ولم يلجأ للسيف الا دفاعا بل ان تاريخ انتشار الدعوة المحمدية واضح فى أن هذه الدعوة قد انتشرت فى الآفاق ، وانتصرت انتصارات باهرة فى المشرق والمغرب فى أضعف أيام الدولة الاسلامية ، بل فى الانحطاط العسكرى والمسلمون سائمة فى يد برابرة المشرق ومتوحشى الفرنج فى المغرب .

شهادة الأجانب

وفى ذلك يقول السير توماس أرنولد فى كتابه (انتشار الاسلام) : ان الفتح الروحى الاسلامى لم يتأثر بسقوط الدولة الاسلامية ، ويضعف القوى السياسية ؛ ففى أيام هزيمته السياسية نال أعظم انتصاره الروحى.

شهادة التاريخ

وفى تاريخ الاسلام حادثان عظيمان يثبتان ذلك ؛ فحين وضع الكفار المتوحشون من المغول والأتراك السلجوقيين أقدامهم على رقاب المسلمين فى القرن الثالث عشر الميلادى غزا الاسلام قلوبهم فاعتنقوا — وهم الغالبون — دين المغلوبين ، ولم يكن للاسلام عون من سيف أو سلطان .

واذا رجعنا البصر الى صلح الحديبية ، ذلك الصلح الذى حزن له المسلمون لقبولهم شروطا مذلة ، والذى قرر وضع السيف فى غمده عشر سنين ، رأينا أن أعظم فتح معنوى للاسلام كان فى أيام هدنة الحديبية ، وفتح الحديبية السلمى هو الذى هيأ لفتح مكة ودخول الناس فى دين الله أفواجا .

هذا ولم يفكر المسلمون فى اقامة جيش دائم ، ولا اعتبروا الجندية صناعة الا تقليدا لعدوهم ، وقد صارت له معهم حدود وثغور لا بد للسلامة من الرباط فيها .

فلم تكن الدعوة المحمدية فى حاجة لنقض السلم لتعيش ، ولا كانت فى وقت من الأوقات معولة على الاكراه فى الدين لتنتشر ، ولا رضيت بالحرب لعرض الدنيا ومنافعها وسلطانها وبسطتها ، ولا لسيادة جنس على جنس ، ورجحان طبقة على طبقة .

فالحرب عند المسلمين طارئة وللسلم الحياة الدائمــة ، ولذلك كله قامت العلاقات الدولية فى نظر المسلمين على أساس سلم دائمة بين البشر ينقضها العدوان وحده ، فعنيت الدعوة المحمدية كل العناية باقامة هذه السلم الدائمة على حرمة الأيمان والعهود .

العهود والمواثيق

المسلم والمعاهد ومن لا عهد له ــ رأى فى مسألة التخيير بين الاسلام والجزية والسيف ــ السلم بين المؤمنين ــ الاسلام وطن المسلم ــ لا اقليمية فى الاسلام ــ عالمية شاملة ــ يسعى بذمتهم ادناهم ــ أخوة الذمة والعهد ــ حقوق الذمى وواجباته ــ الغنم أكثر من الغرم ــ بين الذمة الاسلامية ونظام الحماية الحديثة ــ الاستعمار الحديث لايعرفه الاسلام ــ كفالة الله وشهادته على العهود ــ الذمى فى كفالة الاسلام أينما كان من بلاد المسلمين ــ عهود الأمان والمنافع ــ من وصايا الراشدين ــ الى الأخوة والوفاء ــ حق واحد للغالب ــ موجهات الصلح ــ من حرب سنة ١٨٧٠ الى حرب سنة ١٩٣٩ ــ حرمة العهود فوق صلة الدين ــ عبد يعاهد وخليفة يقر عهده ! ــ امرأة تجير والرسول يقر جوارها ــ تكريم الفرد ــ مثل رائع لاحترام كلمة لم تكتب ــ متى يجوز نقض العهد .

المسلم والمعاهد ومن لا عهد له

أقامت الدعوة المحمدية قواعد العلاقات الدولية بين الناس على افتراض أنهم اما مؤمنون ، واما معاهدون ، واما لا عهد لهم . فأما المؤمنون فأخوتهم تامة ، وأما المعاهدون فيعاملون بمقتضى عهدهم ، وأما من لا عهد له فأمره يختلف باختلاف أحواله ، ومصير العلاقات معه يتبع أحوالا كثيرة . وعلى كل حال لا يجوز قتاله مفاجأة من غير انذار ، و لايكون هذا الانذار من غير سبب ، ولا يكون السبب هو الطمع فى ملك أو سلطان أو استغلال لخيرات أرضه ، أو تحكم فى منافعه وتجارته ، أو استئثار بما عنده من المواد الخامة والمعادن ، أو أغراض عسكرية واستراتيجية ، أو تهذيبه وتمدينه كما يدعى أهل الغرب فى العصور الأخيرة ، أو كى تكون أمة هى أربى من أمة ، أو جنس أعلى من جنس ؛ فليست هذه الأسباب صالحة لمهاجمته حتى بعد انذاره الذى تشترطه القواعد الدولية الاسلامية ، وليس هناك فى الحقيقة سبب للخلاف فى نظر الاسلام بينه وبين الناس الا الفتنة ومنع الدعوة .

وقد قررنا سابقا بالاطمئنان أن الاسلام حصر أسباب الحرب فى كفالة حرية الدعوة ، فهو يكتفى بضمان حريتها ليكون فى عهد يقر السلم

الدائم مع أى طائفة من البشر . وتاريخ الدعوة المحمدية واضح فى هذا الشأن ، فليس لازما كما يظن بعض الناس أن من قضت الظروف بنزاع وخصام معه ملزم بالاختيار بين ثلاثة : الاسلام والجزية والسيف .

رأى فى مسألة التخيير بين الاسلام أو الجزية أو السيف

وليست هذه الحالات الثلاث التى كانت تعرض على الأعداء آتية فى عمل المسلمين على سبيل الحصر ، فاننا نجد اتفاقات وعهودا وحالات سلم قائمة بين المسلمين وجيرانهم أو دول أخرى ليس لها جوار بغير أن يشترط لذلك حالة من الحالات الثلاث . وهذه النظرية نظرية الخيار بين ثلاثة أمور يظنها بعض الناس من القواعد العامة ، لأنها كانت شائعة فى العهد الأول من الفتوحات الاسلامية ، بينما الحقيقة أنه قد سبقتها عهود للرسول ولحقتها اتفاقات وعهود للدولة الاسلامية لم تستلزم احدى الثلاث . وحق امام المسلمين وجماعتهم فى عقد ما يرون فيه المصلحة من العقود متفق عليه ؛ فصلح الحديبية مثلا لم يشترط شيئا منها ، بل بالعكس كان فيه شرط اعتبره عمر رضى الله عنه اعطاء للدنية فى الدين واذلالا للمسلمين قبل مشركين محاربين ، ولم يرض به الا طاعة وتفويضا للرسول صلى الله عليه وسلم .

واذا رجعنا للعهود المنوعة والبيعات والمحالفات التى عقدها النبى صلى الله عليه وسلم بنفسه ، رأينا فيها أمرا واحدا مطردا ، هو القصد الى نشر دعوته ، والوصول بهذه الدعوة الى الظهور ، وألا يعترض شيوعها وظهورها قوة . وكثيرا ما كان الوصول الى حالة سلم مستقرة هو الهدف الأسمى لتمكين الدعوة من الحرية اللازمة لظهورها ، فلا يشترط له شيء آخر ، بل يكون شرط الجزية أو الاسلام مؤخرا ومانعا للتفاهم ، فتصدم الدعوة ، ويؤجل انتشارها .

ففى هذه الحالة يصبح شرط الجزية أو الاسلام مضرا ويكون فاسدا ، وعلى ذلك ليس حقيقيا أن امام المسلمين أو جماعتهم ملزمون باقامة السلم على شرطى الاسلام أو الجزية والا كانوا فى حالة حرب دائمة مع أكثر البشر وامتنع ظهور الاسلام كدعوة عالمية .

* * *

السلم بين المؤمنين

قلنا ان العلاقات الدولية الاسلامية قائمة على افتراض أن الناس مؤمنون أو معاهدون أو لا عهد لهم . فأما المؤمنون فالسلم بينهم أبدية لا ينقضها الا الكفر والردة ، فان بغت طائفة على أخرى فهم جميعا على الفئة الباغية حتى تفيء الى أمر الله وتقبل التحكيم ، فاذا قبلته كان الانصاف والقسط ، لا الغلب والقوة ، هما الميزان الذى توزن به شرائط الصلح . يقول تعالى :

« وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فان بغت احداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفيء الى أمر الله ، فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ان الله يحب المقسطين » .

الاسلام وطن المسلم

فالمؤمنون فى جميع أطراف الأرض اخوان لا تفرقهم الأوطان ولا العصبيات و لاالمذاهب ولا المنافع ولا الخوف ولا المنعة ولا العبودية ولا سبب من الأسباب ، للمسلم حق الأخوة على المسلم أينما حل وأينما كانت الدار ، فلا جنسية غير الجنسية المشتركة التى يكفى لثبوتها شهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رسوله .

لا اقليمية فى الاسلام

فالمسلم فى أى وطن من أوطان المسلمين وطنى له جميع حقوق (المواطن) وعليه جميع الواجبات المفروضة على المواطن أينما وجد ، فان فرض مثلا أنه وجد مارا الى الحج فى مصر وهو آت من المغرب ، أو وجد فى العراق وهو قادم من الصين ، وكانت مصر أو العراق فى حرب ، وجب عليه الجهاد مع أهلها كما يجب عليه لو كان فى بلده وقد هوجمت . كما أنه لو انقطع به السبيل ، أو شق عليه الأمر ، فله فى زكاة هذا البلد فريضة ، وجماعة المسلمين تكفله ، بل له كافة ما لهم من حقوق . فالأخوة الاسلامية كاملة بين الأسود والأبيض والعبد والحر ، ليس فى ذلك أدنى ريب ولا شك لدى أى طائفة من المسلمين أو أى مذهب من مذاهبهم .

و على ذلك فالملايين الأربعمائة من المسلمين فى الأرض هم اخوان لا يمكن بمقتضى الشريعة الاسلامية تصور حالة حرب بينهم يخوضونها فى سبيل الله أو الوطن أو الدولة ، فاذا وقع فيها بعضهم فالحكم لكتاب الله ، ولا بد للمسلمين من التدخل لانهاء القتال ، ولا تستقر ضمائرهم حتى ينتهى على صورة مرضية بالقسطاس المستقيم .

عالمية شاملة

ومن هذا يتضح أن الاسلام عالمى ودولى ، بمعنى أنه يضع قواعده على أساس علاقات بشرية عامة ، ومنفعة بشرية مشتركة . وهو كذلك ينظر بهذه النظرة العالمية للمخالفين فى العقيدة ، فهم فى نظره بشر ، وتكاد تكون مسئولية الفرد فى نظامه العالمى كمسئولية الدولة ، فتبعة الفرد كتبعة الجماعة ، وحقوق هذا كحقوق هؤلاء ، وللفرد فى نظامه شخصية وسيادة تكاد تماثل شخصية الجماعة وسيادتها .

يسعى بذمتهم أدناهم

فمثلا يسمح النظام الاسلامى للفرد أن يجير ويؤمن ويعطى عهدا لفرد أو جماعة من الناس ، وأمانه وعهده محترم ، لقوله صلى الله عليه وسلم « ذمة المسلمين واحدة يسعى بها أدناهم » . فاذا تصورنا العالم الاسلامى اليوم وهو ممتد من المشرق الى المغرب ، وتصورنا أممه وطوائفه وأفراده ، وتصورنا ما لهؤلاء من العلاقات مع جيرانهم ومواطنيهم ، وما بينهم من عهود واتفاقات ، وعلمنا أن هذه الصلات والعهود مرعية من المسلمين جميعا ، أمكن أن نتصور أن البشرية كلها كادت أن يشملها نطاق واحد من الأمان المشترك .

أخوة الذمة والعهد

هذه هى الأخوة الاسلامية ، لها من القوة ما يكفل السلم الدائمة بين أقوامها وأجناسها وأوطانها ومذاهبها . أما ما بين المؤمنين وغيرهم فالمعاهدون منهم اما أن يكون لهم عهد ذمة ، واما أن يكون لهم عهد أمان أو تبادل منافع ، فأما عهد الذمة فهو عهد أبدى لفرد أو جماعة فى دار الاسلام قبلها المسلمون فى جوارهم وأعطوها ذمة الله ورسوله والمسلمين مقابل ضريبة سنوية تسمى الجزية . وهؤلاء هم الذين سرى عليهم لفظ الذمى ولو أنه مع شديد الأسف أصبح ثقيلا فان أصله نبيل ، فالتسمية جاءت من ذمة الله ، وهى أكبر تأكيد لحقه فى أن يتمتع بكامل حريته الدينية والادارية والسياسية ، وأن تصان له هذه الحقوق مقابل الولاء وقدر يسير من المال ينفق عليه لنفقات الدولة .

حقوق الذمى وواجباته

هذا الذمى المعاهد هو جار المسلم يواليه ويؤاخيه ، لا ينقص من حقه شيئا ولا يتدخل فى الشئون التى له بعهده ، فان احتكم اليه فعليه العدل الذى عليه للمسلم سواء بسواء ، ظلمه حرام ، واضطهاده حرام ، واهانته حرام ، وحرمانه من حقه حرام ، له دينه وللمسلم دينه ، وعلى

المسلم أن ينصره ويمنعه ويحوط حريته الدينية والشخصية وحرية جماعته ويكفلها بقوته ، وليس له عليه الا الوفاء والامتناع عما يضر المسلمين فى عقائدهم أو سلامتهم .

وليس أدل على ادراك المسلمين هذه الحقيقة وعملهم بها مما فعل أبو عبيدة ، وقيل خالد بن الوليد (١) ، مع نصارى (حمص) فانه لما علم أنه لا قبل له بدفع الروم عنهم ، رد ما كان أخذه من الجزية اليهم ، وقال : انما أخذناها جزاء منعتكم والدفاع عنكم وقد عجزنا ، وكذلك فعل صلاح الدين الأيوبى فى حروبه مع الصليبيين حيث رد الجزية الى نصارى الشام حين اضطر الى الانسحاب منها ، فلم تكن الجزية حقا تعطيه القوة للغالب على المغلوب ، وانما كانت منفعة جزاء منفعة ، وأجرا جزاء عمل .

غنمه أكثر من غرمه

واذن فمجرد الاتفاق ودفع الجزية يكفل للفرد أو الجماعة المعاهدة ما للمسلم من الحقوق ، بل لو دققنا النظر نجد أن هذا المعاهد بدفعه هذه الضريبة ، وهى رمز ولائه ورضاه ، يتمتع بكافة الحقوق ، وليس عليه كل التكليفات كتكليف الجهاد والزكاة ، فتبقى ضريبة الدم حملا على المسلم وحده ، وضريبة الزكاة حملا عليه كذلك وحده ، مع جواز حق المعاهد فيما جمع الامام من هذه الزكاة ، فانما الصدقات للفقراء والمساكين مسلمين وغير مسلمين .

فاذا أراد المعاهد أن يقاتل فى صفوف المسلمين كان له ما لهم فى الغنيمة .

بين الذمة الاسلامية ونظام الحماية الحديثة

واذا نظرنا فى عهد الذمة وعهود الحماية لبعض الدول اليوم فى بلاد المسلمين وغيرهم ، تبين لنا الفرق العظيم بين عهد يقوم على أساس الأخوة البشرية ، يرعاه دين يدعو الى عبادة الله رب العالمين ، ويسوى بين الناس جميعا فكلهم من آدم وآدم من تراب ، لا يلتفت للعنصرية ولا للجنسية ولا للغة ولا للثقافة والأدب والعرف بل للحق الانسانى ، وبين عهد يقيمه الغلب ويصونه القهر وتحدوه المنفعة ويديمه الاستغلال ويصحبه الاحتقار .

---

(١) لعل الخلاف فى الرواية نشأ عن أن كلا منهما قاتل الروم متعاصرين وكان أبو عبيدة القائد العام وخالد فى أمرته .

فهذا له حرمة من صميم الوجدان والعقيدة ، وذاك له قوة الغلب وشهوة الهوى والأثرة . وقد كان أثر الأول الحب ، فدخلت الأكثرية العظمى من أصحاب عهود الذمة فى دين الجماعة الاسلامية راغبة متطوعة ، لأن نظام الاسلام عالمى ، واعتناقها لمبادئه لا ينافى كرامتها الانسانية ولا عزتها القومية .

وقد بلغ من ذلك أن والى مصر فى زمن الخليفة عمر بن عبد العزيز شكا اليه أن نصارى مصر وأهل الذمة فيها يتركون دينهم ويدخلون فى الاسلام فتناقصت ايرادات الجزية ، واستأذنه فى منعهم ، فكتب اليه الخليفة بتلك العبارة النيرة « قبح الله رأيك ! ما بعث الله محمدا جابيا ولكن بعثه هاديا » اذن كان الهدف الهداية لا الجباية ، والمساواة لا القهر والتفريق .

الاستعمار الحديث لايعرفه الاسلام

ولم تكن عهود الذمة ذات صلة بما يسمونه الاستعمار فى هذا العصر ، فهذا المعنى لم يدر بخلد المسلمين فى فتوحاتهم ، ولا تعرفه الشريعة الاسلامية ، وانما تعرف حق المساواة لصاحب عهد الذمة ، له ما للمسلم وعليه ما عليه ، وله أن يعيش فى حرية تامة بقوانينه وعرفه وتظمه . له أرضه وله ما تغل هذه الأرض . له ما على ظهرها وما فى بطنها ، وليس عليه ضرائب غير الجزية مقابل المنعة وكفالة نظامه الذى يختاره ويقيمه بكامل حريته ، غير مضار لمعاهديه من المسلمين . فشتان ما بين النظام الاسلامى من حرية وانسانية وما فى الاستعمار من سلب للحريه ، واستباحه لكل ما يملك المغلوب وما ينتج .

كفالة الله وشهادته على العهود

لا قيد فى الاستعمار لارادة الغالب ، وقيد الاسلام المسلم بعهده ، فلا ينقض ولا يتجاوز « وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ، ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا » .

الذمى فى كفالة الاسلام أينما كان فى بلد اسلامى

وكما أن المسلم حقا مساويا لحق كل مسلم آخر فى أى وطن من أوطان المسلمين ، فان الذمى المعاهد له مثل ذلك ، فعهده محترم فى مشارق الأرض ومغاربها ، لما بين المسلمين من التكافل . وعلى ذلك فالمعاهدون أينما كانوا فى سلم دائمة لا ينقضها الا النكث والعدوان ،

وكذلك تمتد ساحة السلم البشرى وتستقر بصفة خالدة بين الأجناس والأديان فى ساحة البشرية بهذه المساواة التى تمليها الشريعة وتكفلها العهود .

* * *

عهود الامان وتبادل المنافع

ليست العهود من نوع واحد ، ولا هى جميعا كعهود الذمة التى أشرنا اليها ؛ فقد تكون عهود أمان ، وقد تكون عهود حسن جوار ، وقد تكون معاهدات صداقة أو تجارة أو أى نوع من أنواع التعاقد الدولى لاقرار السلم وتبادل المنافع .

فهى جميعا فى نظر الدعوة المحمدية عهود مقدسة هى مواثيق جعل الله عليها شهيدا وكفيلا ، لها حرمة دينية لا تسمح بالخديعة والتدليس والكذب .

كتب عثمان ، رضى الله عنه ، الى عماله وولاته عقب توليه الخلافة هذا الكتاب :

من وصايا الراشدين

« أما بعد ، فان الله خلق الخلق بالحق ، فلا يقبل الا الحق . خذوا الحق وأعطوا الحق ، والأمانة الأمانة قوموا عليها . لا تكونوا أول من يسلبها فتكونوا شركاء من بعدكم . الوفاء الوفاء لا تظلموا اليتيم ولا المعاهد ، فان الله خصم من ظلمهم » .

ونظام العالم الذى يقوم على مثل هذه الروح ، وبعهود لها مثل هذه الحرمة ، هو نظام سلم حقيقية ، يستمر ما شاء الله ، واذا اضطرب فلا يعم خطره ولا يدوم شره أما ما نحن فيه من عهود تعقد لتنقض ، وذمم مخفورة وأثرة موفورة ، وأمم تتعالى على أمم ، وأقوام تتسامى على أقوام ، فقد لقينا جزاءه فى تلك الحروب العالمية التى لا تبقى ولا تذر ، هلك فيها البشر ، وعم الشر .

الى الأخوة والوفاء

فالى الأخوة البشرية التى تعلو على الجنس والقبيلة ، والى الوفاء للعلاقة الدائمة التى يريدها رب الناس بين الناس : « يا أيها الناس اتقوا

ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام » .

حق واحد للغالب

وقد تبين أنه ليس للحرب نتيجة ولا خاتمة يرضاها الله الا السلام الذى يستقر على العدل والانصاف والأخوة البشرية ، وأنه ليس للغلب الا حق واحد هو منع الظلم . وكل ما يعقد من العهود نتيجة للحرب يكون مخالفا للروح الاسلامية ان أقام ظلما أو استعبادا ، أو أقر استغلالا واستباحة لما هو من حق الانسان بصفة كونه أخا فى البشرية ، يقول تعالى : « ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هى أربى من أمة » .

أى لا يجوز أن تقوم عهودكم على الدخل أى الفساد والغش الخفى لكى تكون أمة هى أربى من أمة ، أى أكثر مالا ورجالا وقوة وصولة مما يجعلها أرجح .

وليس المراد من معاهدات الصلح فى نظر الاسلام استدامة حالة الغلب الذى تنتج عن حرب اقتضاها العدوان بدوام الحرمان والاذلال للمغلوب ، بل الغرض الوصول الى اقامة العدل الذى يريده الله ويطلبه لأعدائنا وأصدقائنا على السواء . يقول تعالى :

« ولا يجر منكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى » ولو أن دول الأرض فى العصور القديمة والحديثة اهتدت بهدى القرآن فى هذا المعنى لحصرت الحرب فى أضيق دائرة ، ولزالت معظم الأسباب التى تحرك الفتنة من مرقدها ، وتثير النار من مكمنها .

وما يقوله اليوم كثير من الساسة وقادة الشعوب ، وما قالوه من قبل من أن الغرض من حربهم هو اقامة العدل والانصاف ومنع الطغيان يتفق مع الدولة المحمدية ولو أنه لا يستند الى مثل الايمان والتدين الذى استندت اليه ، ففى الشريعة المحمدية كما بينا سابقا لا تجوز الحرب الا لدفع الظلم والعدوان ، ولا تنتهى الا بمنع الظلم والعدوان واقرار العدل والحق الذى يريده الله لا الذى تزوقه وتنمقه المطامع ، ولا الذى يوجبه الخوف من العودة الى الظلم والعدوان .

يقول تعالى : « وان يريدوا أن يخدعوك فان حسبك الله هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين » .

موجهات الصلح

فلا تملى شرائط الصلح عوامل الخوف ولا عوامل الطمع ، لأن الله الذى نصر الحق وأيده بالمؤمنين كفيل بالنصر ما دام المراد وجه الله والبر والعـدل .

من حرب سنة ١٨٧٠ الى حرب سنة ١٩٣٩

فلو كانت الدول الأوربية وغيرها تقسط وتنصف ما انتهت حرب سنة ١٨٧٠ بما سبب حرب سنة ١٩١٤ ، ولا انتهت هذه بما سبب حرب سنة ١٩٣٩ ، وكنا نرجو أن تعقب الحرب الأخيرة حالة تسود فيها روح الدعوة المحمدية أفكار الناس وتستقر مبادئها فى نفوس الزعماء والقادة لتكون خاتمة المآسى .

أما الرياء وابتغاء حسن السمعة والدعاوى التى يراد بها الدخل والغش فلن تزيد أصحابها الا وبالا والعالم الا شتاتا والحضارة الا ضعفا والعمران الا خرابا ، وهى على النقيض تماما مما جاءت به الدعوة المحمدية . ولست فى هذا متهما قوما دون قوم ، ولا مدعيا بأن المسلمين الآن أحسن حالا وأصدق قولا ورأيا من أهل الملل الأخرى ، فليس هؤلاء وهؤلاء على شىء من روح الدعوة المحمدية ، ولا صدق الايمان بمبادئها (١) .

وقد حرم الاسلام الخيانة فى العهد سرا أو جهرا كتحريمه الخيانة فى كل أمانة مادية أو معنوية ، فلا مجال عنده لاباحة نقض العهد بالخيانة فى وقت القوة ، كما أنه لا يرضى العهد الذى يمليه الغلب والظلم . فهل رأيتم أو سمعتم فى الزمن الذى نعيش فيه بعهد عقد وكانت له الحرمة التى يريدها الاسلام ؟ ألا ترون وتسمعون كل يوم بالذمم المخفورة ، والعهود المباحة متى قدر أحد المتعاقدين على استباحتها ، أو ظن فى ذلك نفعا له ؟

ما قيمة العهود والأيمان تعقد لتنقض ويحتال فى تفسيرها والخلاص منها متى لاحت مصلحة ، أو بدت منفعة من قريب أو بعيد ، أو ضمن

---

(١) لعل الصلح الذى عقد عقب الحرب بين الامامين يحيى امام اليمن وعبد العزيز ابن السعود ملك الحجاز ونجد رحمهما الله ، علامة على أنه لازال للروح الاسلامية السامية آثارها فى المسلمين وربما كان ذلك لان الامامين كانا على تقوى وعلم بالشريعة .

قوى بسلطانه وقدرته العسكرية أن يفسرها كما يشاء ، أو ينقضها كما يشـــاء ؟

حرمة العهود فوق صلة الدين

أما ذلك الأدب المحمدى الذى جعل حرمة العهود فوق حرمة الدين فضلا عن عرض الحياة الدنيا فلسنا نحن ولا غيرنا على شيء منه ، فقـــد جعلت الشريعة حق الميثاق فوق حق الدين نفسه ، فللمشترك من قوم بينهم وبين المسلمين عهد حق الدية تدفع الى أهله ، وليس للمسلم من قوم ليس لهم مع المسلمين ميثاق دية .

وقد حرمت كذلك الشريعة نصرة المسلم للمسلم على من بيده ميثاق وهو غير مسلم ، يقول تعالى: « وان استنصروكم فى الدين فعليكم النصر الا على قوم بينكم وبينهم ميثاق » .

هذا هو التقديس للعقود والمواثيق ، وهذا هو الوفاء للأعداء الذى يبقى أبد الدهر للناس فيه الهدى ، هو الأدب العالى فى علاقات الدول وعلاقات البشر ، هو الأدب العالى فى السلم والحرب .

عبد يعاهد وخليفة يقر عهده !

وقد بلغ من احترام المسلمين للعهد أن أقروا عهد الفرد من المسلمين بل عهد العبد منهم يؤمن به طائفة من المحاربين : كتب أبو عبيدة رضى الله عنه وهو قائد الجيش الى عمر رضى الله عنه وهو الخليفة أن عبدا أمن أهل بلد بالعراق وسأله رأيه ، فكتب اليه عمر : « ان الله عظم الوفاء فلا تكونون أوفياء حتى تفوا ، فوفوا لهم وانصرفوا عنهم » . وقد استمد عمر هذا الرأى من قوله صلى الله عليه وسلم : « ويسعى بذمتهم أدناهم » .

امرأة تجير والرسول يقر جوارها

وكذلك أقر المسلمون أمان المرأة ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « قد أجرنا من أجرت يا أم هانىء » . وان اختلف المسلمون فى قيمة العهد الذى يعطيه العبد أو تعطيه المرأة باسم المسلمين واشترطوا اذن الامام فان الجمهور متفق على احترام أمان الرجل الحر المسلم .

كرامة الفرد

ولا يخفى ما فى هذا المعنى من سمو بمكان الفرد يتناسب مع المسئولية التى وضعت على عاتقه ، مما يستلزم أن يكون عالى الجنـــاب موفور الكرامة والأدب مع الخصوم وفى الجيش ، فهذه الثقة به وهذا التقدير

لحسن تصرفه باعطائه حق التعاقد نيابة عن المسلمين جميعا يحدث فى نفسه عزة وتقديرا للحق يكفل استقامته خيرا من القوانين الزاجرة والعقوبة الرادعة . وتاريخ المسلمين فياض بأمثلة من أدب الحرب أشهرت فروسيتهم فى الغرب والشرق فى الفتوحات الأولى وفى الحروب الصليبية .

مثل رائع لاحترام كلمة لم تكتب

وقد ضرب صاحب الدعوة المحمدية بنفسه أعلى مثل فى التاريخ فى هذا الأدب العالى ، وفى الجد فى عهوده وحبه الصراحة وبغضه التحايل والالتواء والكيد ، حينما كان يفاوض سهيل بن عمرو فى الحديبية ، فبينما كان يكتب عقد الهدنة جاءه ابن سهيل نفسه يرسف فى الأغلال ، وقد فر من الأعداء الذين كان يمثلهم أبوه ويتفاوض مع الرسول باسمهم ، وكان هذا الابن ممن آمنوا بمحمد . جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو مستصرخا وقد انفلت الى المسلمين من أيدى المشركين ، فلما رأى سهيل ابنه قام اليه وأخذ بتلابيبه وقال : « يا محمد لقد لجت القضية بينى وبينك » أى فرغنا من المناقشة قبل أن يأتيك هذا . فقال محمد صلى الله عليه وسلم : صدقت . فقال أبو جندل : يا معشر المسلمين أأرد الى المشركين يفتنونى فى دينى ! فلم يغن عنه ذلك شيئا ، ورده رسول الله وفقا للشروط التى اتفق عليها ولم يكن قد كتبها ، ولكنه كان قد انتهى من المناقشة وقبل الشرط فلم يتحايل ولم يتردد . وانى لا أعلم فى تاريخ البشر مثلا لرعاية الكلمة التى قيلت ولما تكتب ولما تمض كهذا الذى ضربه رسول الله فى الحديبية على مرأى من خصومه وعلى كره من أنصاره!

أين هذا الأدب وهذا الجد بين الأعداء مما نحن فيه بين الأصدقاء ؟ بين المسلمين أنفسهم وبين المسيحيين أنفسهم وبين هؤلاء وهؤلاء من تحايل ولجاج ! ذلك لأن الدعوة المحمدية تعلم أصحابها أن حسابهم مع الله، وأنه لا يغنيهم من الله شىء ، فلابد لهم من الصدق فى الظاهر والباطن والقوة والضعف ، فلو أن أدب العهود الدولية فى الحرب وفى السلم قام على مبادىء لها حرمة الايمان وتقديس العقيدة لاستقر السلم على حرمة العهد وخفت ويلات الحروب وتضاءل شرها .

والشريعة المحمدية لا تبيح نقض العهد للطمع أو تحقيق أغراض من عرض الحياة الدنيا ، أو لاستعباد وظلم ، ولكنها تبيحه للصالح العام متى خاف المسلمون خيانة المعاهد وتحقق لديهم ختله وسوء قصده ، فعندئذ يجوز نبذ عهده : « واما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء ان الله لا يحب الخـائنين » ولكن لا يجوز لهم أن يحتـالوا فى ذلك ، أو يفاجئوا بنقض العهد من غير انذار وامهال . وهو أدب وعرف جاءت به الشريعة قبل أن يقره العرف الدولى الحديث ، ومع الأسف لم تبق له حرمة فى السنين الأخيرة ، وقد جرى عليه المسلمون حتى مع من لا عهد لهم . وقد أوصى النبى والخلفاء الراشـدون عمالهم وأمراء جيوشـهم بالانذار قبل البدء بالحرب . وفقهاء المسلمين متفقون على أنه يجب انذار العدو حتى يعلم سبب نقض العهد ، وأنه ليس المراد منه سلب مالهم أو قتلهم أو سبيهم ، فربما أجابوا للمقصود من غير حرب ، وأن القتال من غير دعوة اثم يستوجب غضب الله . فاذا ساءت نية المعاهد وساء قصـده فان العزة التى جعلهـا الله للمؤمنين تأبى عليهم الذل والهوان والرغبة فى السلم الذى يحل ما تحرمه الشريعة ، أو يقر العدوان والتسلط والقهر . وفى مثل هذه الحالة يقول الله تعالى « فلا تهنوا وتدعوا الى السلم وأنتم الأعلون » .

متى يجوز نقض العهد

(٤)

فى أسباب الاضطراب العالمى

الاستعمار

اثارة الرغبة فى بحث شامل — مقاتلون ومحايدون — الأسباب الأساسية للاضطراب — الاستعمار أو الخراب ! — فرانسه هى فرسانه ! — سراب ! — سبب الحروب فى القرنين الأخيرين — شر على الغالب — شر على المغلوب — آثاره فى الغرب وفى الشرق — محاولات لالتماس المخرج — التضحية بالاستعمار لنجاة الحضارة — الدعوة المحمدية تنكره — لا حجة على الاسلام الا من نصوصه وسننه .

اثارة الرغبة فى بحث شامل

تناولت موضوع العلاقات الدولية من وجهة النظر الاسلامية ، ولمست نواحى عدة منها ، ورجوت من هذا العرض العاجل فى كلمات محدودة أن أثير الرغبة فى القارئين ، سواء أكانوا من الأمة الاسلامية أم الأمم الأخرى ، لبحث مستفيض فيما جاءت به الدعوة المحمدية ، لعلهم يجدون فى أصلها وفروعها مخلصا من محنة المدنية الحاضرة ، وذلك الاضطراب الذى أصاب البشرية بحربين شاملتين فى مدى ربع قرن .

مقاتلون ومحايدون

واذا نظرنا للعالم الحاضر فى الحرب الأخيرة ، وقد عم الدنيا شرها ، نجده ثلاث طوائف : طائفتان تقتتلان ، وثالثة تعتز لهما ولا تسلم من شرهما .

فماذا تشكو منه الثلاث ؟ أما الطائفتان المتحاربتان فكانت كل منهما تدعى على الأخرى دعاوى لا سبيل لتحقيقها ولا فائدة من المناقشة فيها ، فكل كان يقول انه مظلوم معتدى عليه ، وانه يحارب للحق واقامة صرح الحضارة . فلندع هذه الدعاوى حقها وباطلها .

وأما الطائفة الثالثة المعتزلة ، فبين محايد قد انتهكت حرماته ، وآخر شاكى السلاح ، ساهر الليل تزخر أرضه بالقوى خشية أن تستباح .

فاذا نظرنا الى أسباب النزاع بين هذه الأمم نظرة اجمالية خلال القرنين الماضيين بدا لنا أنها تتفاقم عصرا بعد عصر ، وقد تكون بلغت الذروة فى الحرب الأخيرة اذ شملت القارات الخمس .

فما هى دواعى هــذا الشر المتزايد ؟ وما هى الأغراض العقيمة التى ظلت عصرا بعد عصر لا تستقر ولا تتحقق ؟

أهى الغرام بســعة الملك ، والتزاحم على حيازة الأمم المستضــعفة والاستئثارة بالتصرف فيها وفيما تملك من مواد ؟

أم هى النزاع والخصومة ، بين الطبقات على المصالح الخاصة والنظم الاقتصــادية .

أم هى الافراط فى النزعة الوطنية أو العنصرية وما يترتب عليها من الأثرة وحب الانفراد بالعزة ، ثم انكار حقوق الآخرين والتسلط عليهم ، جيراننا كانوا أم فى أقصى الأرض ؟

أم هى طغيان المادية وحب الترف ، مما ترتب عليه تركيز الاهتمام فى جمع المال ، والانحدار فى المتاع العاجل كغاية للحياة ، فتبــاعد ما بين طبقات الأمة الواحدة من الفروق ، وأغرى بعضها ببعض ، وآل ذلك الى النزاع الداخلى والخارجى .

أم هى انهزام القوى المعنوية أمام القوى المادية ، مما ترتب عليــه تبلبل الأخلاق والعقائد والعرف الصالح ، فضاعت المروءة وقل الاخاء ، وفشا الاستخفاف بالعهود والمواثيق ، وصار الغدر والخديعة من الأخلاق الشائعة فى علاقات الأمم ، وحل الخوف محل الأمن ، ودأب الناس على الاستعداد للحرب ثم المفاجأة بها ؟

أم هى أسباب أخرى أعظم أو أصغر ؟ أم هى هذه جميعا ؟

قد يكون هناك أسباب وحوادث كثيرة ، لها أثرها الوقتى . غير أن نظرة فاحصة فى الأسباب التى ذكرت تهدى الى الاعتقاد بأن فيها أصول الفساد العالمى ومسببات هذه الكوارث والحروب الطاحنة .

فهل جاءت الدعوة المحمدية بأسباب وقائية وبعلاج لهذا الفساد ؟ ذلك ما سنحاول بيانه .

الاستعمار أو الخرافة

أما السبب الأول الذى أشرنا اليه فيمكن حصره فى كلمة واحدة : هى الاستعمار الحديث . وليس أدل على ما فيه من فساد ، وعلى قوة هذه الآفة من أن الحروب لم تكن عامة الا بعد ظهوره وانتشاره . وبعد أن انتشر فشمل القارات الخمس وصار مظهرا وسببا للصراع المادى انقلبت الحروب الى شر عام . وبانتشاره تطاولت الأعناق اليه ، وظنت جميع الأمم أنه سبيل الغنى والقوة ، فتسابقت وتحاسدت وحقدت ، ولم يصدها عنه أن رأت بعضها فى الماضى وقع فريسة له ، فلقد كان بعض فرسانه الأول من الأسبان والبرتغاليين والفرنسيين فرائس له . وفى فرسانه الأخيرين بعض العظات .

فرائسه هى فرسانه !

يقول (بيتى) رئيس وزراء ايطالية قبل ثلاث وثلاثين سنة (١) فى كتابه (أوربا) « ان الطليان أنفقوا أربعة عشر مليارا ليشتروا غرارة رمل ! » — يقصد ليبيا — فكم بلغ الثمن اليوم بعد أن أنفقت ايطاليا الفاشية ما أنفقت فى ليبيا والحبشة وغيرهما ؟ لقد استنزفت ايطاليا مالها ودماءها وكيانها للاستعمار ولم تحصل الا على الخراب والدمار ...

الاستعمار سراب

سيدركون جميعا بعد هذه الحروب الدامية ، وقد أصيبت هذه الحضار المادية بضربات معجزة ، أن الاستعمار سراب يجرون وراءه ، ويتنازعون عليه ، حتى اذا جاءوه لم يغنهم عن العمل والكد والحياة الطيبة شيئا ، وأنه كالقذيفة تلقى على الصخرة فتصيبها ، وقد تحدث بها حدثا ، ولكنها كذلك ربما ارتدت فقضت على قاذفها .

سبب الحروب فى القرنين الأخيرين

والاستعمار سبب معظم الحروب فى القرنين الأخيرين ، وله أثره فيها جميعا ، واستقصاء البحث فى كل منها يرشد اليه فى مكان ما من الأرض : فى تراث أمة مستضعفة أو فى أحد المعبودات الحديثة من البترول والذهب والفحم والقطن وغيرها من ثمرات الأرض ومعادنها .

شر على الغالب

والواقع ان الاستعمار الأوربى على طرازه الحديث شر على الغالب والمغلوب ، شر على المستعمر والمستعمر . والشعوب الغالبة تستدرج

---

(١) تولى نيتى الوزارة الايطالية قبل العهد الفاشيستى سنة ١٩٢٠ — ١٩٢١ .

بسببه الى حياة التواكل فيصيبها الترف القاتل ، وتقع فى خصومات مع الحاسدين والناقمين وتعرض كيانها القوى للزوال وما أصاب بعض الأمم منه فى الماضى لا تزال آثار عالقة بها الى اليوم .

شر على المغلوب

والاحتفاظ بالمستعمرات كميدان للاستغلال المادى يهبط بمستوى العيش فى سكان هذه المستعمرات فيحد من مقدرتها على الاستهلاك ، فضلا على قلة روح الابتكار والنشاط والانتاج فيها ، ويضع بذلك قسما كبيرا من سكان العالم فى منزلة السائمة ، فيصبحون عالة على البشرية .

كل ذلك مع ما أشرنا اليه مما يحركه الحاسدون والطامعون من المكايد والحروب ، يسرع بالحضارة الى الانهيار والزوال .

آثاره فى الغرب

ألم تكن حروب نابليون وما جرت من ويلات على العالم وعلى فرنسا نفسها منشؤها الحقد والحسد بسبب الاستعمار والرغبة فى السبق الى أملاك المستضعفين ؟ وكذلك حروب روسيا وتركيا والنمسا .

وفى الشرق

ألم تكن كلها للاستزادة من أملاك المستضعفين ؟ وحرب اليابان والروس فى أوائل هذا القرن ، لم تكن لتحدث على بعد الشقة بينهما لولم يلتقيا فى سبيل التوسع على حساب المستضعفين.

والحرب العامة الأولى ، والحرب العالمية الأخيرة مهما أدعى لهما من الأسباب فان الحقد الدفين فى صدور من فاتتهم الغنائم ، والرغبة فى التوسع وحيازة المواد الخامة وأملاك المستضعفين ، هى من أهم أسس النزاع بين الأقوام الغالبة القوية .

محاولات لالتماس المخرج

أليس الشعور الباطنى فى نفوس الأمم الكبيرة بشر الاستعمار هو الذى دعاها بعد الحرب الماضية تتلمس المخرج فى نظرية الانتداب ونظرية حرية تناول المواد الخامة ؟

سيستمر شر الاستعمار مستطيرا حتى يكتشف الناس بالتجربة والتضحية حلا مرضيا للأقوياء والضعفاء على حد سواء .

لقد كانت الحرب الماضية قاصرة على الجيران ، أو على دولة وأخرى ، فلما صار الاستعمار عالميا صارت الحروب كذلك ، فلا بد اذا من مبادىء

التضحية بالاستعمار لنجاة الحضارة

عامة لتسوية المشكلات العالمية . وستكون التضحية بالاستعمار ضرورة لنجاة الحضارة الحالية . وهاهى ذى الشعوب الكبيرة تتلمس السبيل ، فميثاق الأطلنطى وأشباهه من التصريحات التى جهر بها المتحاربون دليل على ادراكهم ما جره الاستعمار من شر على الغالب والمغلوب .

هو شر على المغلوب ما بيناه ولأنه يفقد شخصيته وخلقه وعزته وثقته بنفسه ومقدرته على العمل المنتج الكبير ، فيصبح لا أثر له فى تكييف الحضارة العالمية . فكيف يستقر العالم من اضطرابه ، ومئات الملايين من البشر قد صارت عبئا فى تفكيرها ونشاطها على العشرات ؟ !

الاستعمار لا شك شر على الجميع ، واذا بقى الحكم للقوة فى مصير الأمم بعد هذه الحروب فان المأساة ستستمر وتتجدد .

الدعوة المحمدية تنكره

ومن فضل الدعوة المحمدية أنها تنكر الاستعمار وتحكيم القوة لأغراض دنيوية فهى لا تبيح الحرب لتوسع فى الملك ، أو للحصول على المواد الخامة ، أو لاحتكار الأسواق ، أو لدعوى تمدين الناس ، أو للمواقع الاستراتيجية ، أو لاستعلاء وطن على وطن ، أو ملك على ملك ، أو عنصر على عنصر كى تكون أمة هى أربى من أمة (يا أيها الذين آمنوا اذا ضربتم فى سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن ألقى اليكم السلام لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة) .

وقد أشرت الى ذلك فى كثير من الفصول السابقة وسقت فى سبيل بيانه الآيات والأحاديث وأمثلة من الواقع . ووجهة النظر الاسلامية فى العلاقات الدولية واضحة ، فالناس سواسية كأسنان المشط ، لا فضل لأحد على أحد الا بالتقوى والعافية ، أى حب السلام .

فالاسلام لا يعرف نزاعا ليس المقصود منه أن تكون كلمة الله هى العليا ، وأن تكون الحريات للجميع مكفولة .

لا حجة على الاسلام الا من نصوصه وسننه

قد يقول بعض ا لناس ان فى تاريخ المسلمين ما لا يتفق وما تدعو اليه . ونحن ندعو الى كتاب الله ودينه لا الى ما فعل بعض الدول والملوك ،

مما قد يشبه من قريب أو بعيد ما يفعل الأوربيون ، وقد باءوا بالخسران كما باء المحدثون .

فلا شك أن الاستعمار بجميع أشكاله تأباه الدعوة المحمدية ، وقد ثبت الآن بعد نظرها ، بل ثبت سموها وغرضها الالهى بما فعل الاستعمار بالناس قديما ، وبما يفعل فى العصور الأخيرة ، وقد اتسع شره وعم بلاؤه وجر الويل والخراب فى حروب عالمية متعاقبة .

وانا لنرجو أن يستفيق الناس الى الهدى ، وأن يجدوا فى هذا المبدأ المحمدى وسيلة لاقامة العلاقات الدولية على غير ما تقضى به نظريات الاستعمار ، وأن تقوم هذه العلاقات على الاخاء وعلى تلك الروح الدولية الاسلامية التى لا تعرف الجنس ولا اللون ولا الوطنية الضيقة ، ولا العلم ولا الجهل ، ولا التقدم ولا التأخر ، ولا تعرف البشر الا اخوة من آدم ، وآدم من تراب .

نزاع الطبقات

التفاوت قديما وحديثا ـ أمثلة من التاريخ العالى ـ التعقيد العصرى فى المذاهب والدعوات ـ من آثار البخار والكهرباء ـ الراسمالية والعمالية ـ فى الدول الشيوعية والنازية والفاشية والديمقراطية ـ البساطة الاسلامية فى معالجة مشكلات المال ـ المبدأ ثابت والتنفيذ مرن ـ الشرع مع المصلحة ـ مثلان رائعان من حرية التصرف للدولة ـ أكبر مهام الدولة ـ لا نزاع متى خلصت النوايا لله ـ الايمان هو الحارس الاول على المصلحة العامة ـ الزام الدولة بمنع النزاع وبالتامين الاجتماعى ـ العنصر الروحى التهذيبى ـ محاربة الترف والبذخ ـ الرسول الزاهد ـ المتاع الباقى ـ جمع بين الوجدان والسيف

التفاوت قديما وحديثا

نزاع الطبقات ظاهرة للحضارة الأوربية ، وقد فشادائوه وعم بلاؤه . والناس منذ النشأة الأولى متفاوتو الحظوظ فى هذه الدنيا ، منهم الفقير والغنى ، والحاكم والمحكوم ، والضعيف والقوى ، والمريض والصحيح ، يعيشون متعاونين متفاهمين فى حدود القبيلة أو مجموعة القبائل ، أو اتحادات القرى حول مدينة ، أو مجموعات المدائن والقرى حول أعظمها ، فكانوا بطبيعتهم مأخوذين بغريزة الاجتماع والتعاون الذى أدركوه بالفطر والتجربة .

وكانت هذه المجموعات البشرية كخلايا النحل ، تتعاون للانتاج على نظام مقبول من الجميع ، فان لم يكن مقبولا عن رضا فهو مسلم به طواعية وعرفا .

وكان هذا النظام يضطرب ويختل أحيانا بعدوان مجموعة أخرى ، أو بفساد داخلى ينشأ عن شذوذ أو ظلم بانحراف هيئة قوية أو فرد قوى واستبداده وأثرته ، ولا يلبث هذا الاضطراب أن يستقر بعودة الأمور الى نصابها ، وسير التعاون فى الخلية على مقتضى الغريزة والعرف المتفق عليه .

ولم يعرف الناس نزاع الطبقات عنصرا للاضطراب والخلل كما هو

اليوم ، ذلك النزاع الحاد الدائم بين الفقراء والأغنياء ، والعمال والصناع والملاك والمديرين .

أمثلة من التاريخ العالمى

نعم قد نجد فى تاريخ البشر دعوات قوية متطرفة كدعوة (المزدكية) فى فارس ، وكانت تقول بالمساواة التامة فى المعاش ، ونجد فى أعقاب الدولة الرومانية نزاعا بين العامة والخاصة ، أو بعبارة أخرى بين العبيد والأحرار ، ونجد فى صدر الاسلام أمثال أبى ذر رضى الله عنه يهجر الشام محتجا على الثراء وملكية الأرض ، ونجد الخوارج يشهرون سيوفهم ويستبسلون فى سبيل نظرياتهم الاجتماعية ، فيقول المتطرفون منهم بأن لا حكم الا لله ، وينكر ضرورة الحكومة مدعيا أن فى طبيعتها الفساد ، وأن فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بدافع من الدين والوجدان ما يكفى لاستقامة شئون المجتمع ، وينكرون حقوق الملوك ، وكان المعتدلون من الخوارج لا يورثون ملكا ملكا ، ولا يؤثرون به بيتا ولا قبيلة ولا سيدا على أحد من الناس ، ويقولون بامامة العبد ومساواته للقرشى والهاشمى ، ويتزهدون ويحملون الناس على الزهد ، حتى كادوا يسوون ما بينهم فى المعاش ولو أنهم لم يحرموا الملك .

التعقيد العصرى فى المذاهب والدعوات

وجدت هذه الدعوات على أنها شاذة ، ومع ذلك لم تصل الى شىء مما وصلت اليه الدعوة الاشتراكية أو الشيوعية ، ولا أدعت ما أدعتا من المساواة فى الرزق والكسب والملك ، ولم تقم على أنها نزاع طائفة من الصناع والعمال مع غيرها من الطوائف ، ولم تصل الى مثل النزاع الحديث والحرب الدامية بين العمال والطبقات الأخرى .

فهذه الشيوعية ، وهذه الاشتراكية التى نظمت الأحزاب (العمالية) والاشتراكية والشيوعية لا شك جديدة ، وهى أثر مباشر للنظام (الرأسمالى) الحديث .

وكان الناس على البساطة الأولى متعارفين ، فالجار الغنى صديق جاره الفقير ، يعرفه شخصيا ويعرف أولاده ، يتصلون جميعا فى شىء من الاخاء ، تجمعهم قربى الدم أو قربى الجوار ، وشيخ القبيلة أو القرية مهما حسنت حالته المعاشية أو كبر جاهه هو شيخ الفقير والغنى ، موصول

الود بالجميع ، وغناه وثراؤه لا يتجه للزينة والترف والأثرة ، فعزه فى الكرم وفخره فى الايثار ، وأبناؤه على عزتهم ككل أبناء القبيلة أو القرية ، يلعبون كما يلعبون ويطعمون كما يطعمون ويلبسون طعاما ولباسا يشبه فى جوهره ما يأكل الناس وما يكتسبون .

فلم تكن دوافع الحسد والغيرة تحركها مظاهر الترف والبذخ يتمتع به الكبراء والأغنياء ويسرفون فى أذى عيون الناس وآذانهم ونفوسهم ، وكانت كذلك الثروات محدودة وجمهور الشعب فى مستوى واحد .

من آثار البخار والكهرباء

فلما استخدم البخار والكهرباء تضخمت الثروة واتسع نفوذ أصحابها وأكثر عددهم ، وحلت المحركات الآلية محل اليد ، وسهل الانتقال وزادت السرعة فى كل شىء ، فنمت التجارة ونما المال وبعدت الشقة بين الفقر والغنى فانحط مستوى طبقة الصناع والعمال ، وبسمت الدنيا لملاك الآلة وملاك الأرض والسماسرة والتجار والمسيطرون على وسائل النقل ، وحل النظام الرأسمالى الجديد بكل ما يصحبه من جفاء ازداد به الناس بعدا فى الفكر والمظهر ، وانقلبوا أعداء .

الراسمالية والعمالية

وكان لا بد للطبقة المحرومة ، وقد هبطت الى نوع من العبودية للآلة وصاحبها ، أن تلتمس لنفسها سبيلا للحرية ، وقد أحست أنها على كثرتها لا تملك من الأمر شيئا ، فاحتقرت دساتيرها ، ورأت فيها وسائل ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب ، تمكن أرباب المال من التحكم واستخدام الشرطة للغلب ، غلب القلة المالكة الضعيفة على الكثرة المحرومة القوية ، فاتجهت الى الثورة ، ونظمت لذلك النقابات والأحزاب وأصبحت هذه عنصرا أساسيا من عناصر الاضطراب العالمى .

وما كادت تنتهى الحرب العامة الأولى حتى ابتدأت ثورات جامحة وفتن دموية وصلت ضحاياها فى الحرب الأهلية الروسية الى عشرات الملايين ، وفى الحرب الأهلية الأسبانية التى استمرت نارها أكثر من سنتين الى مليون ، ولم تسلم بقية الأقطار الأوربية والأمريكية من فتن دموية ، ولا تزال الدعوة تلهب غيظ الفقراء على الأغنياء ، وطبقة الصناع والعمال والزراع على الملاك ، وتهيىء الأرض لانفجارات أشد خطرا فى كل مكان

في الدول الشيوعية والنازية والفاشية والديمقراطية

وقد أخذت الحكومات والشعوب فى تلمس العلاج ، فذهبت مذاهب شتى ، فبعضها ذهب الى استئصال طبقة الملاك كما حدث فى روسيا ، وبعضها الى استئصال دعاة العمالية الشيوعية كما حصل فى أسبانيا وبعضها عول فى القهر والاستبداد لاقامة الأمن والتوازن ، فسلبت الحرية الشخصية كما حصل فى ايطاليا وألمانيا ، اذ انتزعت الزعامة ، الدكتاتورية الأمر من يد الجميع .

وفى البلاد الديمقراطية لا تزال الرأسمالية تبسط كف العلاج بالهبات للطبقات المحرومة ، وتتحايل للتخلص ، وقدرها لا يزال فى السماء !

ومن الصعب جدا فى مثل هذا العرض السريع أن ندخل فى بحث النظام الرأسمالى ما له وما عليه ، كما يصعب كذلك متابعة المشكلة الاجتماعية ومتابعة الأوربيين والأمريكان فيما يعرضون من حلول ، وما يقاسون من ويلات نظام الربا والأثرة ، وسنكتفى بما ذكرنا معتمدين على معرفة أكثر القارئين لعضلة النزاع بين الطبقات وأسبابها وآثارها .

ولننظر فيما جاءت به الدعوة المحمدية من قواعد لنرى هل فيها العلاج لمشكلة الاجتماع فى هذا العصر ؟

البساطة الاسلامية فى معالجة مشكلات المال

أولا مشكلات الاجتماع وأسباب النزاع هو الفقر ، وقد بينا فى فصل التكافل والبر كيف عالجه الاسلام . ونورد هنا بعض الحديث الذى يوضح أن الاسلام مرن يسير على المصلحة العامة فى معالجة الفقر الذى هو السبب الأكبر لنزاع الطبقات ، وقد اتخذت الشريعة لذلك سبيلين :

الأول — أنها جعلت للمحروم حقه الثابت فى أموال الناس جميعا ، وأقول جميعا لأن الحد الأدنى من المال أو الملك أو المنتجات ، الذى تستحق فيه ضرائب الزكاة يستطيعه كل صحيح يعمل ، فالنصاب فى زكاة الفطر مثلا هو ما زاد على قوت يوم من خبز الشعير ، وقد جعلت فيه الشريعة حقا للمحروم .

وقد تنوعت الضرائب الشرعية فى أموال الناس لمقاومة الفقر والقضاء

عليه ، وجعلت هذه الأموال بنص القرآن مخصصة لأصناف المحتاجين ، وليس للامام أن يصرفها فى غير ما خصصت له .

ولم يبين القرآن بالتفصيل ما تجب فيه الزكاة من أموال ، ولا المقدار الواجب دفعه ، وقد بينت السنة ذلك فى كتاب كتبه رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن ولاهم أمر الصدقات ، وبين القرآن من تدفع لهم الصدقات فقال : « انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم » .

المبدأ ثابت والتنفيذ مرن

فالقرآن وضع المبدأ والرسول نفذه ، والقرآن خصص الزكاة وعلى الامام أن يوجهها حسب الحاجة ، فقد يجد ما كان ينفق لتحرير الرقيق أو للمؤلفة قلوبهم أو ابن السبيل فى زمننا الحاضر معدوما أو قليلا فيوسع فى نصيب الفقراء ، وسبيل الله الذى يدل على معنى عام يجد الامام فيه أبوابا كثيرة من البر الذى يوجه للمصلحة العامة فى كل عصر حسب مواضعات أهله ، كالتأمين الاجتماعى الآن مثلا .

الثانى — لم تكتف الشريعة بهذا الحق المعلوم فى أموال القادرين للمحتاجين ، بل جعلت الدولة كفيلة على اقامة التوازن الاجتماعى ، فرأس الدولة مسئول عن هذا التوازن يعدله بالزكاة ، فان لم تكف فله باسم المصلحة العامة أن يأخذ من أموال الناس للصالح العام ، وعليه أن يقيم العدل بالقسطاس المستقيم .

الشرع مع المصلحة

وحينما كان هذا العدل فثم شرع الله ودينه . فاذا فرض أن هذا العدل يقتضى أمرا لا نص فيه ولا أثرا شرعيا فعليه أن يجتهد برأيه .

واليكم مثلين من اجتهاد الامامين الكبيرين أبى بكر وعمر رضى الله عنهما : كان أبو بكر يقسم المال بين الناس على السواء ، لا يفضل أحدا على أحد ، فقيل له : يا خليفة رسول الله ، انك قسمت هذا المال فسويت بين الناس ، فمن الناس أناس لهم فضل وسوابق وقدم ، فهل فضلت أهل السوابق والفضل بفضلهم ؟ فقال : « أما ما ذكرتم من السوابق والقدم

والفضل فما أعرفنى بذلك ، وانما ذلك شيء ثوابه على الله ، وهذا معاش ، فالأسوة فيه خير من الأثرة » .

مثلان رائعان من حرية تصرف الدولة حسب الظروف

فلما كان عمر وجاءت الفتوح فضل وقال : « لا أجعل من قاتل رسول الله كمن قاتل معه » وعلى ذلك أسس ديوان الجيش .

والمثل الثانى ما فعله عمر كذلك من تخصيص (١) ظاهر النصوص القرآنية فى الغنائم والفيء ، اذ قال لما فتح الله على المسلمين العراق والشام ردا على من أرادوا قسمة الأرض بين فاتحيها والاحتفاظ بالخمس فقط للمصالح العامة : « فكيف بمن يأتى من المسلمين فيجدون الأرض بعلوجها (٢) قد اقتسمت وورثت عن الآباء ? ما هذا برأى » . فقال له عبد الرحمن بن عوف : « فما الرأى ? ما الأرض والعلوج الا ما أفاء الله عليهم » فقال عمر « ما هو الا كما تقول ، ولست أرى ذلك ، والله لا يفتح بعدى فتح فيكون فيه كبير نيل ، بل عسى أن يكون كلا على المسلمين . فاذا قسمت أرض العراق بعلوجها وأرض الشام بعلوجها فما يسد به الثغور ? وما يكون للذرية والأرامل بهذا البلد وبغيره من أهل الشام والعراق ? » فأكثروا على عمر وقالوا : « تقف ما أفاء الله علينا بأسيافنا على قوم لم يحضروا ولم يشهدوا ? ! ولأبناء قوم ولأبناء أبنائهم لم يحضروا ? ! » فكان عمر لا يزيد على أن يقول : هذا رأيى . قالوا : فاستشر ، فاستشار المهاجرين الأولين فاختلفوا ، فأما عبد الرحمن بن عوف فكان رأيه أن تقسم لهم حقوقهم ، وكان رأى عثمان وعلى وطلحة وابن عمر رأى عمر ، فأرسل الى عشرة من الأنصار : خمسة من الأوس وخمسة من الخزرج ، من كبرائهم وأشرافهم ، فلما اجتمعوا قال : « انى لم أزعجكم الا لأن تشتركوا فى أماتنى فيما حملت من أموركم ، فانى واحد كأحدكم

---

(١) لعل عمر كان فى ذلك مقتديا بفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى خيبر حين قسمها بين جنوده الفاتحين والدولة فوزع نصفها عليهم وأوقف الباقى على المسلمين . فاتخذ عمر استثناء الارض من توزيعها على الفاتحين قاعدة لما فتح العراق والشام فجعل الارض كلها وقفا على المسلمين جيلا بعد جيل . وقد أخذ مالك بما فعل عمر فى هذا ولم يأخذ به الشافعى (أنظر زاد المعاد لابن القيم (غزوة خيبر وما فيها من الاحكام) .

(٢) جمع علج وهو الواحد من كفار العجم .

وأنتم اليوم تقرون بالحق ، خالفنى من خالفنى ووافقنى من وافقنى ، ولست أريد أن تتبعوا هذا الذى هو هواى ، معكم من الله كتاب ينطق بالحق ، فوالله ! لأن كنت نطقت بأمر أريد به الا الحق » قالوا : « قل نسمع يا أمير المؤمنين » . فذكر لهم وجه الخلاف ، فأيدوا رأيه ، فقرر ابقاء الأرض بأيدى أهلها ، وضرب الخراج عليها ، وسكت المخالفون اتباعا للرأى الغالب .

هذا مثل من تصرف تلميذ الرسول وخليفته فى تخصيص أمر عام جاء به نص وهو نفسه يسلم بهذا النص (١) . غلب عمر رضى الله عنه الرأى الذى قضت به المصلحة العامة التى رآها ورأتها الأغلبية من عقلاء المسلمين أهل الشورى .

اكبر مهام الدولة

فالشريعة المحمدية لا تقف مكتوفة اليدين متى بانت المصلحة العامة ، بل هذه المصلحة والعدل هما غرض الشريعة الذى لن تتجاوزه .

فاقامة توازن اجتماعى يرفع به شر الحاجة عن المحتاج ، ويستقيم معه العدل والتأمين الاجتماعى هو أكبر مهام الدولة الاسلامية ، ومسئولية الامام وأهل الشورى فى ذلك واضحة .



لاخصومة ولا نزاع متى خلصت النيات لله

والدعوة التى لا يتردد صاحبها وأتباعه فى اقامة ميزان العدل الاجتماعى على أساس المصلحة العامة لا يمكن أن تقوم الخصومة بين أنصارها على أساس المصالح الطائفية الدنيوية ، فالمصلحة العامة لا تتجزأ ، والطوائف لا وجود لها متى كان الكل عبيدا لله متساوين ، وكانت مصلحة الكل فوق مصلحة الفرد أو الطائفة .

---

(١) وفى رواية عن الزهرى مايدل على أن عمر فى استدلاله على ضرورة استثناء الأرض وعلوجها من التقسيم والتوزيع على فاتحيها كان معتمدا على ما يفهم من عموم قوله تعالى : (والذين جاءوا من بعدهم ...) بعد سياق الآيات فى سورة الحشر من قوله تعالى : (ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى ... الخ) اذ ان آية : (والذين جاءوا من بعدهم) عامة فيمن يأتى بعد من الذريات الذين رأى عمر أنه لاتحفظ مصالحهم ومصالح الدولة مع توزيع الارض على فاتحيها ... وعلى كلتا الروايتين قد أثبت عمر أن المصلحة العامة كانت سبب تخصيص النص العام أو فهمه فهما آخر يتسع له السياق .

قد يقال ان أكثر ما يختلف عليه الناس يقوم على دعوة من المصلحة العامة ، واذا فليس ما أتت به الدعوة المحمدية من ترجيح هذه المصلحة بكاف لمنع الخلاف ، وليست كلمة العدل ذات معنى واحد عند النـاس ليكون للعدل ميزان ثابت . وهو اعتراض صحيح اذا كانت هذه المصلحة مطلقة بغير حد ، وكان هذا العدل متروكا لمجرد ظن الناس ، وذلك ما لم تتركه الدعوة المحمدية للهوى .

فالشريعة الاسلامية تستمد تعاليمها من الايمان برب العـالمين اله الناس جميعا الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، ومن الاحسان الذى لا تقبل فيه الدعوى ، والذى يقصد به وجه الله .

فالجماعة المؤمنة اذن لا تستطيع أن تترك رأيها للشهوات ، والمصلحة العامة عندها واحدة تقوم على العمل الذى يرضى خالق الناس جميعا ، فلها ضابط من الوجدان الطاهر البرىء . والمصلحة العامة كذلك محدودة بما تقتضيه الأخوة التى قررها الدين وجعلها شرطا لتمامه « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » . « كلكم من آدم وآدم من تراب » فعنصر الأثرة منفى بالعقيدة ، وفى هذه العقيدة أكبر ضمان .

الايمان هو الحارس الأول على المصلحة

والمصلحة العامة أيضا ليست موكولة للصدفة ، لأن على الأعمـال حسابا يقتضى من اله عليم فى الدنيا والآخرة ، فهو يجازى الأمم المسرفة المفرطة المتخاذلة فى الدنيـا ، ويحاسب الناس على أعمـالهم فى الآخرة . والعدل هو الانصاف بالحق موزونا بالاخاء والمساواة ، فليس عدلا ما يتنافى مع الاخاء والمساواة .

وعليه فالدولة الاسلامية التى يكفل فيها الامام التوازن الاجتماعى والتى تقوم على قوله تعالى « وزنوا بالقسطاس المستقيم » والتى أخذ فيها رأى عمر رضى الله عنه فى ظرف ما ، وخصص به أو فهم النص القرآنى تخصيصا أو فهما مبرره المصلحة العامة ، لا محل ولا سبيل لنزاع الطبقات فيها .

قد يقال : ان ذلك صحيح ما دام خوف الله وطاعته أصلا فى اعتبار المصلحة العامة ، فما القول اذا ضاع الايمان وفسد الوجدان ؟ والجواب

أن ذلك هو ما أصاب العالم وجر هذه الويلات على الحضارة الأوربية ، وجرها بالطبع على المسلمين والشرقيين منذ آماد طويلة .

ومع ذلك فالشريعة الاسلامية بما أوتيت من سعة الأفق وحسن التقدير قد فرضت كذلك مثل هذه الحال فأقامت الزجر والتعنيف لرد الناس الى الحق ، حتى أباحت القتال لنصرة المظلوم ، ووكلت الى ولى الأمر اقامة الحق بالقوة ، اذ لما ارتد العرب وأبوا أن يدفعوا للفقراء حقوقهم قاتلهم أبو بكر وقال « والله لو منعونى عقال بعير كانوا يؤدونه لرسول الله لقاتلتهم عليه ! » فلم يكل أمر الفقير لوجدان الناس وقاتلهم على حقه .

الزام السلطان بمنع نزاع الطبقات وبالتامين الاجتماعى

والشريعة المحمدية حين خصصت بنص القرآن ايراد ضرائب الصدقات للتأمين الاجتماعى ضد صنوف من الحاجة لم تكل الناس الى وجدان الامام أو الدولة ، وزادت على ذلك أن جعلت للامام أن يفرض فى أموال الناس بقدر ما يؤمن الحاجة ، كما عليه التزامات لا مخلص منها لأصناف من المصابين فى المجتمع أشار القرآن اليهم ، ولابد له من أدائها من بيت مال المسلمين . ويمكن أن يضاف الى هؤلاء الأصناف أصناف أخرى من ذوى الحاجة بالقياس ، فعليه مثلا علاج من لا عائل له من المرضى ، وارضاع من أبت أمه ارضاعه ، وايواء من لا مأوى له ، واطعام من لا عمل له ، واعانة القادر على العمل بتمكينه من العمل .

فالشريعة المحمدية لم تترك الأمر لوجدان الناس وحده ، ولو أنها فى الحقيقة كانت حكيمة فى استخدام الوجدان كأحسن أداة لعلاج المشكلة الاجتماعية .

وقد أشرنا الى ضرائب الصدقات باعتبارها أداة لمقاومة الفقر وبالتالى علاجا للمشكلة الاجتماعية ، وأشرنا كذلك الى حق الامام فى التشريع والاجتهاد برأيه بعد استشارة ذوى العقول والعلم من أهل الرأى متوخيا المصلحة العامة وحائلا بين الطبقات والطوائف وبين النزاع والتحاسد

والبغضاء ، فهذه الضرائب المقررة بنص القرآن والمباحة باجتهاد الامام ورأى جماعة المسلمين أصل ثابت فى مقاومة الفقر .

* * *

العنصر الروحى التهذيبى

وقد عولت الدعوة على الوجدان تعويلا كبيرا وجعلت جزاء المحسنين الجنة ، فترى التحريض على انفاق المال فى سبيل المحتاجين اليه يتردد فى آيات الكتاب فى كل مناسبة ، وفى أقوال الرسول فى كل حين . وليس هذا مقام سرد عشرات الآيات وعشرات الأحاديث ويكفى قوله تعالى « قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلال » .

والتربية المحمدية تهذيب يرمى الى التكافل الاجتماعى ، ويجعل الغرض من العمل والحياة البر « ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى » فكل شخص حسنت تربيته فهو مهيأ تماما للخدمة الاجتماعية ، وهذه التهيئة بالتربية المحمدية هى أفعل الوسائل فى مقاومة آفات الاجتماع وأقدرها على جمع الناس ومنع النزاع .

واذا اعتبرنا ما ذكرنا من وسائل مقاومة المشكلة الاجتماعية أعمالا ايجابية فى الدعوة المحمدية لمنع حرب الطبقات ، فان الأسباب السلبية ليست أقل أثرا فى هذا السبيل ، فبينما نجد أن الدولة الاسلامية هى أكبر مؤسسة للتأمين الاجتماعى ، يرأسها امام المسلمين ويقوم فيها أهل الشورى مقام مجلس الادارة فى الشركة ، ونجد هذه الدولة تعمل لرفع مستوى العيش للطبقة المحرومة ، نجد كذلك الدعوة المحمدية تقاوم بسلاح الايمان والدين الاسراف والترف لتنزل بمستوى البذخ الى مقام لا يثير الحسد والضغينة ، فتنعى على المترفين والمسرفين فى شهواتهم وتحذرهم سوء المصير وعذاب الله والحرمان الأخروى ، بل لا تكتفى بذلك وتنذر المجتمع كله بالويل لتركه مسرفيه ومترفيه دون ردع ولا زجر : « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » « وكلوا واشربوا

ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين » « وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم الا قليلا وكنا نحن الوارثين » .

محاربة الترف والبذخ

وبين أن من أسباب الخراب الاجتماعى كثرة المترفين فى الأمة « واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا (١) مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » .

أحلت الدعوة الطيبات من الرزق ، ولكنها حرمت على الرجال لبس الحرير والذهب كرمز لبغضها الترف والزينة الكاذبة ، وأباحت للنساء الزينة ، ولكنها قاومت غلو المرأة باعطاء القوامة للرجال ، وبمنعها من الظهور فى تبرج .

وما زالت الشريعة تحد من الاسراف والترف وبذخ العيش حتى ظن الناس أن ليس لغنى سبيل الى ملكوت السماء بغير الخروج من ماله وصار التقشف رمزا للتقوى .

الرسول الزاهد

ولقد كان رسول الله نفسه على ما أوتى من سلطة أكبر الزهاد : يقول ابن مسعود : « دخلت على رسول الله وقد نام على حصير وقد أثر فى جنبه وقلت : يا رسول الله لو اتخذنا لك وطاء نجعله بينك وبين الحصير يقيك منه ؟ فقال « مالى وللدنيا ! ما أنا والدنيا الا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها » .

ويروى ابن هشام عن زيد بن أسلم « لما استعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم عتاب بن أسيد على مكة رزقه كل يوم درهما . فقام أسيد وخطب الناس فقال : أيها الناس ، أجاع الله كبد من جاع على درهم ! قد رزقنى رسول الله درهما كل يوم فليست لى حاجة الى أحد » .

وروى أن رسول الله دخل على فاطمة وفى يدها سلسلة من ذهب ، وهى تقول لامرأة عندها : هذه أهداها أبو الحسن — تقصد عليا زوجها — فقال صلى الله عليه وسلم : « يا فاطمة أيسرك أن يقول الناس . ابنة رسول الله فى يدها سلسلة من نار ! » ثم خرج ولم يقعد ، فأرسلت

---

(١) اى امرناهم بأوامر التقى ونهيناهم عن الآثام والفسوق والامر فى اللغة يشمل النهى

فاطمة بالسلسلة فباعتها واشترت بثمنها عبدا فأعتقته ، فحدث رسول الله بذلك فقال « الحمد لله الذى نجى فاطمة من النار » .

وكان دعاؤه صلى الله عليه وسلم : «اللهم اجعل رزق آل محمد كفافا» أى لا يزيد عن الحاجة .

وعن أبى أمامة الأنصارى قال : ذكروا عند النبى الدنيا فقال : « آلا تسمعون ؟ ألا تسمعون ؟ ان البذاذة من الايمان . ان البذاذة من الايمان » أى التواضع فى اللباس والزينة .

المتاع الروحى أبقى

فالدعوة المحمدية قد قاومت الفقر والترف فقاومت البغض والحسد واستحال معها نزاع الطبقات . هوت بفضل الأموال والأحساب وسمت بفضل التقوى والقناعة ، وعوضت الناس عن كثير من متاعهم المادى بمتاع روحى فلا شك أن فاطمة حين باعت السلسلة وحررت العبد كانت تشعر بغبطة وسرور كلما ذكرت فعلها ، أكثر مما لو أبقت السلسلة فى يدها .

وهل كان عمر غالب قيصر وكسرى ، وهو فى ثوبه المرقع أقل متاعا بنفسه الراضية من المترفين الجبابرة فى قصور قيصر وكسرى ؟ كلا .

ولقد كان النجاح الذى أوتيته الدعوة المحمدية فى علاج المشكلة الاجتماعية بوسائلها السلبية والوجدانية أعظم أثرا فى اصلاح المجتمع من وسائلها الايجابية بضرائب الصدقات أو كفالة الدولة للمحتاجين بسطوة السيف والقانون .

جمع بين الوجدان والسيف

والدعوة التى استطاعت أن تجمع بين السيف والوجدان ليتسلطا فى وقت واحد ، ويسيرا فى نهج واحد لغاية واحدة هى مجاهدة آفات الاجتماع ، هى الدعوة الموفقة التى ستظل حية على مدى العصور .

النزعات العنصرية والوطنية

العنصرية قديما وحديثا — الوطنية والقومية الحادة عصبية حديثة — أثر التشدد فى الحدود الجغرافية والجنسية — انتقال العصبيات الحادة الى الشرق — نظريات اختلاف الدم — أضرار الهجرة الاجبارية — بارود الحروب الحديثة — الاسلام لا يعرف وثنية العنصر والوطن — وضع العلاقات البشرية على أساس معنوى — خلاف أخف من خلاف — القوة ليست وسيلة الاسلام لتحقيق أهدافه — لا سيادة ولا عبودية .

ولننظر الآن فى سبب آخر من أسباب الاضطراب العالمى وهو الافراط فى النزعة الوطنية والعنصرية وما ترتب عليها من الأثرة وحب الانفراد بالعزة والسلطان ، وانكار حقوق الآخرين ، ثم النزاع والتسلح والحرب .

العنصرية قديما وحديثا

كان الناس يتنافسون قبائل ويتحاسدون ملوكا ويختلفون على الله أو فى سبيل الله ، ولم تكن نعرة الوطن ولا نعرة العنصر فاصلا حاسما بين المجموعات البشرية كما أرادتها المدنية الحديثة . وتاريخ العرب والترك والبربر وغيرهم من الأقوام الاسلامية حافل بالنزاع القبلى ، بعيد عن النزاع العنصرى ، وكذلك كان الشأن فى أورباوكانت الأسرة الملكية تضم تحت رايتها باسم الولاء للملك أو باسم الولاء للمذهب قبائل وشعوبا تتحد مصالحها وان اختلفت أصولها أو لغاتها ، وأحيانا عقائدها . وكثيرا ما تكون هذه الأسرة غريبة ، أو تكون من الأقلية القومية فى الدولة ، فتتكون تحت رايتها مجموعة تربطها القوانين وتتسع لأقليات شتى تعيش تحت الراية ، ينالها من الشقاء والسعادة مثل ما يصيب الجميع .

وكثيرا ما تكون هذه الأقليات أرغب فى هذه الراية والولاء لها منها لأقرب الأقوام والعناصر من جنسها أو لغتها تحت راية أخرى .

كان الأمر كذلك فى كثير من الدول التى عاصرناها كالدولة العثمانية تحت لواء آل عثمان ، والدولة النمساوية المجرية تحت لواء آل هبسبرج ، وقد شاهدنا شعوبا من العرب أشد ولاء واخلاصا لدولة آل عثمان منهم لأمرائهم وأشرافهم من العرب .

وكان الأمراء كذلك فى الدول القديمة ، وفى دول القرون الوسطى ، كالدولة العباسية والامبراطورية الرومانية المقدسة والامبراطورية البيزنطية وكذلك عرفنا من الصقالبة فى دول النمسا من كانوا أوفى لها منهم لأبناء عمومتهم من الروس .

كانت الرغبة متساوية فى السيادة أو العبودية للملك القاهر فوق الجميع ، وكان يرقى سلم المناصب كل من سمحت له مواهبه وظروفه فى خدمة الملك أو السلطان ، فنجد البرامكة وآل طاهر الايرانيين ، أعلى الناس مقاما فى خلافة الهاشميين من العرب ، وعائلة (كوبرلى زاده) من الأرنؤوط فى خلافة العثمانيين من الترك ، بل لقد صعد هذا السلم من العبيد فى الدول الاسلامية عدد أكثر بكثير مما تأذن به نسبتهم العددية ، وبلغ الذروة من المماليك ما بين مصر والهند فى الدول الاسلامية عشرات السلاطين ممن لا تزال آثارهم خالدة فى دلهى والقاهرة ، وفى تلك الساحة الاسلامية العظيمة من الأطلسى الى الهادى .

ولم يكن الناس يتساءلون عن عنصر ولا أصل ، وانما يتساءلون عن عمل وخلق ودين . فمن المماليك الذين وصلوا الى أعلى مناصب الدولة فى مصر والبلاد الاسلامية نجد الأرمنى والروسى والصقلى والكرجى والشركسى والتترى والتركى والفرنجى والسودانى والحبشى . ولو تعقبنا أنسابهم لانكشفت لنا عن جميع ألوان البشر .

الوطنية والقومية الحادة عصبية حديثة

فلم تكن الوطنية بمعناها الحديث ، ولا القومية بعصبيتها الحاضرة حدا فاصلا بين الناس كما صارت فى العصور الأخيرة .

فالوطنية والقومية بمعناهما الحالى لم يكونا مع الأسف خطوة فى سبيل الاستقرار ، بل كانتا عاملا لزيادة الاضطراب العالمى ، وسببا جديدا لنزاع أوسع دائرة وأعصى حلا .

أثر التشدد فى الحدود الجغرافية والجنسية

فان الوطن باعتباره مقاما جغرافيا لقوم من الأقوام لم يستطع أن يحدد حدودا لجنسه من غير أن يصطدم بقوم آخرين وبانتشارهم ، ولم تساعد الطبيعة الا نادرا على تحديد ساحة خاصة لعنصر خاص . ففى أوربا

كلها لا تجد الا الجزر البريطانية التى حددها البحر . ومع ذلك فلم تخل ايرلنده من نزاع مع بريطانيا على مقاطعة (ألستر) فى شمال ايرلنده .

وقد مر قرنان على الأقل على أوربا ، وقـد غرقت فى دماء حروبها لتعديل الحدود وتحرير الأقليات بين الفرنسيين والألمان ، وبين هؤلاء والنمساويين ، وبين هؤلاء وهؤلاء والصقالبة ، وبين النمسا وايطاليا ، وبين البلقانيين جميعا ، وبينهم وبين الدولة العثمانية ، وبين روسيا وجيرانها من الغرب أو الشرق أو الجنوب ، وبين التشـيك والبولنديين والمجر والرومانيين .

وهكذا نجد النزاع على ما يسمى الوطن وحدوده قائما لا يستقر بل يتزايد على مدى الأيام ، وعلى قدر الحدة فى العنصرية والوطنية .

فما لم تكن الطبيعة بالمصادفة قد فصلت فى الأمر ببحر أو جبـل لا ينال ، كالهملايا بين الهند والصين فلابد من النزاع .

انتقال العصبيات الحادة الى الشرق

وهذه المشكلة الأوربية المستعصية وما يتبعها من نزاع على الحدود ونزاع على العنصرية وما تنطوى عليه من مشاكل الأقليات ، أخـذت تنتقل الى الشرق نتيجة لتأدبه بأدب الغرب ، واعتنـاقه نظرية الوطن والقومية ، فأخذنا نسمع فى السنين الأخيرة بقضايا شبيهة بالقضايا البلقانية على سنجق الاسكندرونة بين سوريا وتركيا ، وعلى شط العرب والحدود بين العراق وايران . ولم يكن المسلمون بتربيتهم المحمدية يتنازعون على مثل هذه القضايا باعتبارها مشاكل عنصرية ، وستكون هـذه المشاكل سببا لبلاء الشرق كما كانت سببا للحروب الدامية فى الغرب ، فيتنازع العرب والترك والكرد والشركس والأذربيجانيون والايرانيون والأفغان والهند (١) والأزبك والصـين والمغول .. الى آخرهم ، على الحـدود والأقليات ، حتى يدخل الشرق جحر الضب الذى دخله الغرب !

---

(١) كتب هـذا فى سنة ١٩٤٣ ولم تكن القارة الهندية قد اسـتقلت . فلما قسمت الى دولتين وظهرت دولة الباكستان المسلمة وقع النزاع بينها وبين الافغان على أساس العنصرية ، فرغم أن قبائل الباطان مسلمون فان لسانهم هو الباشتو ، وما أشبه هذا النزاع الآن بالنزاع الاوربى على حدود الوطن .

والوطنية بالعرف الحديث شر جديد ، والعنصرية بلاء أعظم ، ولا دواء لهمـا الا بتهجير عشرات الملايين من منازلها الحاليـة ، وحصر كل منها فى نطاق جغرافى خاص .

نظريات اختلاف الدم

وقد أخذ بعض الأوربيين يسرف فى الدعوة العنصرية ، فغالوا فى معناها واشتطوا فى مرماها ، فجعلوا عنصرا سيدا نقى الدم وآخرين دون ذلك . وهو أمر محال لا وجود له ، يزيد العالم اضطرابا وخصاما .

ومن ذا الذى يستطيع أن يفرز الأقوام ويحلل دماءها ويكفى الناس شر الأقليات المذهبية واللغوية والقومية ، ويكفيهم بلاء الحدود التى لم تأذن بها الطبيعة ولا العقيدة والفكر ؟

اضرار الهجرة الاجبارية

وقد جرب اليونان والترك الهجرة الاجبارية ، ولم يستفد منها اليونان ولا الترك رغم ما صحبها من اضطراب وقسوة فى نزع الناس من منابتهم ومساقط رءوسهم . على أن هذا التهجير الذى كان محدودا وساعدت عليه ظروف خاصة لا يمكن تعميمه كقاعدة . ومع ذلك ، فلو فرض أننا ضمنا جيلا من الناس فى سبيل هذه التسوية ، فان الأجيال الآتية كفيلة بنقض ما سوينا ، لأن طبيعة الحياة تستلزم النقلة ، والمصالح تتبـدل ، والأقوام تنمو وتنقرض ، فلابد من اختلاط جديد وانتشار جديد ، ولابد من العودة الى القسوة والتهجير الجبرى .

بارود الحروب الحديثة

وقد حاولت عصبة الأمم حلا لمشكلة الأقليات فهل حلتها ؟ ألم تكن هذه المشكلة فى السـوديت واللورين ودانزج وترنسلفانيا وبسرابيـا والدبروجة من مسببات الحرب الأخيرة ومضخماتها ؟

ولقد كان الغلو فى معنى الوطنية والعصبية القومية عاملا أساسيا فى زيادة الاضطراب العالمى ، والتدرج بالحروب من نزاع موضعى الى شر مستطير أبعد مدى فى الأرض ، وأوسع دائرة فى الخطر ، أو بعبارة أخرى متناسبا مع الغلو فى الأفكار القومية والوطنية .

الاسلام لايعرف وثنية العنصر والوطن

والدعوة المحمدية لا تعرف الوطنيـة والعنصرية بالمعنى الحديث ، فوطن المسلم ليس له حدود جغرافية ، فهو يمتد مع العقيدة ، بل هو فى

الحقيقة وطن معنوى كما أن الدين أمر معنوى . يقول الله تعالى « ياعبادى الذين آمنوا ان أرضى واسعة فاياى فاعبدون » والمسلم أخو المسلم أينما كان ، جاوره أم تباعدت به الأرض ، والمسلم أينما حل فى دولة اسلامية فقد حل فى وطنه ، واذا وجد فى دار حرب بين جماعة معادية للمسلمين فسقطت عنه بعض التكليفات أو سقط بعض ما له من حق فانه يكسب جميع الحقوق وتكون عليه كل الواجبات بتحوله عن داره ، أو بدخول أهل هذه الدار ، متى تغيرت الظروف بصلح أو ميثاق مع المسلمين ، أو اشتراك فى الدولة .

فالعنصرية أو العصبية للقبيلة أو الوطن أو اللون أو اللغة أو الثقافة تنكرها الدعوة المحمدية وتعتبرها دعوة جاهلية . يقول صلى الله عليه وسلم « ليس منا من دعا الى عصبية » فالاسلام يأبى كل عصبية لغير كلمة الله ، ولا يعرف الولاء الا للعلاقة الروحية . والناس من أى جنس أو لون أو وطن اخوان اذا اتفقوا فى العقيدة ، وولاؤهم انما يكون لأمر معنوى لا لأمر مادى . يقول تعالى « وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم » . ويقول سبحانه « قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره ، والله لا يهدى القوم الفاسقين » .

وضع العلاقات البشرية على أساس معنوى

وهذه نظرية قد وضعت أساس العلاقات البشرية على وحدة الفكر ووحدة الغاية المعنوية ، فهى بلا شك أسمى من النظرية الحديثة التى جعلت الجنسية أو المصلحة المادية أساس الولاء المشترك ، لأن النظرية المحمدية تسمو بالبشر وتشرفه بالعقل والروح ، بينما الأخرى تهبطه الى المادة فتشغل ناحية الحيوانية منه ، والعناية بحاجات الروح أدعى الى السلم والاستقرار من العناية بحاجات الأبدان .

فنظرية الروح أسلم عاقبة وأدعى الى السكون والترحم .

خلاف اخف من خلاف

قد يقال : ان ذلك معناه أنك ترجح أن يكون النزاع بين الناس على العقائد والرأى لا على البترول أو القطن ، وذلك لا يغير كثيرا من قيمة النزاع وشره ، ولا ما ينشأ عنه من اضطراب وحروب عالمية . وذلك

صحيح لأول وهلة . ولكن نظرة فى طبيعة الناس تعلمنا أنهم أشد انفعالا وأكثر تحفزا للشر حيثما يكون الأمر متعلقا بالمادة وماسا بحاجتهم البدنية، فالفلاح يقتل جاره لسقيه ماء يريدها لحقله ، ولكن لا يخاصم هذا الجار على خلاف دينى أو مذهبى ، ولم نسمع أن مثل هذا الخلاف يؤدى الى القتل الا فى النادر الشاذ .

والدعوات الفكرية قد تصحبها الحدة فى بادىء الأمر ، وينتهى شأنها الى الاستقرار والحجة وسعة الصدر ، لأن البشر لا يستطيعون التحمس للاعتداء والأذى الا بحافز مستديم ، والحافز المستديم هو حاجاتهم اليومية المرتبطة بمطالبهم المادية ، وكثيرا ما تكون حماستهم ثم فتكهم وهم يندفعون وراء فكرة سامية مشوبة بعامل خفى من مطالبهم البدنية .

ومع ذلك فالدعوة المحمدية قد احتاطت للأمر ، فبعد أن أقامت العلاقات بين الناس على أساس وحدة الهدف المعنوى ، حرمت على أنصارها أن يتوسلوا بالقوة لنشر الدعوة . يقول الله تعالى : « لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » .

القوة ليست وسيلة الاسلام لتحقيق أهدافه

فالاسلام لا يأذن باستخدام القوة الا لضمان حرية الدعوة للناس جميعا وفرق بين المطالبة بحق حرية الرأى وبين الاكراه على تغيير الرأى .

واذا نستطيع أن نقرر أن الاضطراب العالمى القائم على دعوى الوطن الجغرافى ، ودعوى القومية والعنصرية ، ودعوى الحقوق المادية للوطن والعنصر يزول لو أننا اتخذنا من أصول الدعوة المحمدية ومبادئها الدولية نظريتنا للعلاقات بين الأمم بسيادة الروح التى تدعو اليها وتشاركها فيها الأديان السماوية الأخرى .

ولعل الناس يجدون فى ذلك الهدى ، ولعل فى نظام العالم بعد الحرب الأخيرة ، وبعد هذه العبر ما يقيمه على تلك النظرية السامية البعيدة التى جعلت عمر بن الخطاب بعد أن بعد عن عصبية الجاهلية ونشأ فى المدرسة المحمدية يقول : « لو كان سالم مولى أبى حذيفة حيا لوليته » والتى يعبر عنها رسول الله بذلك القول المأثور : « أنا أخو كل تقى ولو كان عبدا حبشيا ، وبرىء من كل شقى ولو كان شريفا قرشيا » .

لا سيادة ولا عبودية

هزيمة القوى المعنوية

السيطرة على المادة وأثرها فى طغيان المادية ــ سرعة التطور المادى وبطء التطور الروحى ــ تباعد الفروق بين الناس تبعاً لحظوظهم من العلم المادى ــ بلبلة وشتات وتناكر ــ ضرورة التوفيق السريع بين الروح والمادة ــ نعم تستحيل الى نقم ــ جرائم ترتكب باسم الحريات ــ لابد من ضوابط أدبية قبل الكارثة الكبرى ــ توفيق الاسلام بين الحياتين ــ المدينة تتحطم مرتين فى ربع قرن ــ أتعمير للتخريب ؟ ــ فلنرجع الى منابع الهدى والرحمة فى الأديان ــ تصوير الحرب تسخر منه العقول ــ اجهالات فى مكان الكمالات ! ــ افلح من زكاها

سبب آخر من أسباب الاضطراب العالمى ، هو انهزام القوى المعنوية أمام القوى المادية ، أو بعبارة أخرى تخلف القوى المعنوية عن اللحاق بالتطور الفجائى للحياة المادية ، واختلال التوازن بين الروح والمادة .

السيطرة على المادة وأثرها فى طغيان المادية

وكان الناس وهم على الفطرة الأولى لا يسيطرون على المادة الا سيطرة محدودة ، ولا يطمعون فى التغلب على الطبيعة طمعهم بعد اكتشاف البخار والكهرباء ، ونفاذهم الى القوى الكمينة فى الذرة ، والى عناصر المادة وتحويل تراكيب هذه العناصر . فلما افتنوا فى استخدام الكيمياء والميكانيكا ، واستخرجوا من ذلك قوى جديدة ، انصرفوا عما وراء الطبيعة ، وعن عالم الروح الى قهر الطبيعة والايمان بالمادة وفعلها دون سواها .

ففى أجيال معدودة تغير وجه الحياة وانعكست وجهات النظر ، فلو خرج أجدادنا من أجداثهم لاستنكروا حياة أهل الحضارة الجديدة استنكار سكان الكهوف لسكان ناطحات السحاب . فقد تغيرت أسباب العيش وتغيرت كيفياته وتغيرت أغراضه ، وانقلب الناس الى السرعة يطلبونها والى الحركة الدائمة يستطيبونها ، فنفروا من الدعة والسكون بقدر ما كان أجدادهم ينفرون من الضوضاء والسرعة .

تغير طرز الحياة فجأة ولما يستقر ، بل هو فى تغير مستمر ، فالفرق بينى وبين أبى هو جيل واحد (١) ، ولكنه أعظم من الفرق بين أبى وبين آبائه قبل عشرات الأجيال .

سرعة التطور المادى وبطء التطور الروحى

هذا التغيير المادى المستمر ، وهذه السرعة التى لا تزال تتضاعف دون أن تبلغ حدها الأقصى ، قد جعلت الانسان وهو يلاحق الحياة المادية الجديدة يغفل ، أو لا يستطيع أن يحتفظ بحياة معنوية مناسبة ، فهو لا يستطيع أن يساير هذه السرعة المتفجرة تفجر المادة الى أجزائها مسايرة يحتفظ فيها بتراثه المعنوى ، فتخلفت الحياة الروحية التى كسبها الناس فى تجربة آلاف السنين عن الحياة المادية الجديدة التى كسبوها فى قرن واحد ، وتطورت هذه الحياة تطورا فجائيا ،وبقى الانسان مثقلا بتراث معنوى ضخم لا يتحرك معه فخلفه وراءه .

تباعد الفروق بين الناس تبعا لحظوظهم من العلم المادى

فترى الناس مختلفى الحياة اختلافا كثيرا بعد أن كانوا فى أطراف المعمورة تربطهم صلات معنوية ومادية قوية ، ولا تختلف نظرتهم للحياة ولا كيفية عملهم فيها الا قليلا . والفرق بين أبناء الجيل الواحد فى بلد واحد أكثر مما كان من فرق بين انسان فى شمال أوروبا وآخر فى وسط آسيا منذ بضعة قرون . بل ان الفرق بينى هنا فى مصر وبين بعض الفلاحين من أبناء عمومتى ، وأنا لا أزال وثيق الصلة بأهلى ، هو أكثر بكثير فى طرز الحياة وطرز التفكير مما كان بين أحد أجدادى الأقربين وسكان المغرب الأقصى أو الأفغان . ولا أظن أن « ابن بطوطة » حين رحل من المغرب الأقصى الى الشرق الأقصى وجد من الفرق بين الناس ما يجده قروى لم يسبق له زيارة القاهرة اذا جاء اليها من ناحية قريبة فى الجيزة مثلا . ففى الوطن الواحد أصناف من الأمم تباعدت أفكارهم وأخلاقهم ومعنوياتهم تباعدا متناسبا

---

(١) ولد أبى حسن عزام فى النصف الأول للقرن الماضى ومات فى أوائل هذا القرن (١٩٠٩) وكان شيخا ريفيا ثريا عظيما زعيما فى قومه متفقها فى الدين ممثلا لمديرية الجيزة فى مجالسها النيابية . وكان أبوه سالم عزام حاكم اقليم (ناظر قسم) أى من بيئة متصلة بالدولة ومع ذلك فان الفرق بيننا ما ذكرت .

مع قدرتهم على ملاحقة الحياة المادية المتحركة ، ومنهم من يتعلق بمركبها ، ومنهم من يجرى وراءها ، ومنهم من ينظر حائرا ، ومنهم من يئس وقعد وانقطع ..

فالذين ملكوا المادة وصناعتها ، عليهم ــ وهم فى موكب الحضارة ــ مسحة التجانس الظاهرى ، ولو أن صلاتهم الروحية أضعف جدا مما كانت ، والمتخلفون أقل تجانسا .

بلبلة وشتات وتناكر

لقد صارت الأمم صنوفا من الناس متقاطعة ، وصار البشر مشتتين فى عالم متناكر تبلبلت فيه الأفكار ، واختل العرف البشرى ، وتباعدت ألوان العيش المادى ، وتكاثرت صوره الذهنية ، وتناكرت الطبقات والطوائف والأقوام . وكلما امتد دور الانتقال تعددت مظاهر الأفراد والجماعات واستعصى الرجوع بها الى أصول مقبولة ومسلم بها من الجميع ، أو مسلم بها على الأقل من كتل كبيرة كانت تجمعها صلات روحية قوية فى عقائد دينية مشتركة تشمل مئات الملايين من الخلق .

ولا يظن من أن الحياة المادية القائمة على السرعة وسيلة عاجلة لجمع البشر على نظرة موحدة للحياة المادية ، وعلى أسس معنوية مقبولة من الجميع قبول العرف والدين فى مئات الملايين من الصينيين أو الهنود ، أمر قد يكون فى سبيل التحقيق ، ولكنه لا يزال بعيدا جدا ، وسيلقى العالم أهوال أدوار الانتقال والاستقرار ، ولن يستطيع الناس أن يخلعوا التراث المعنوى والفكرى كما يخلعون الثياب ، ولذلك هانحن أولاء نشهد تشعب الأفكار والآراء واضطراب الحياة .

ضرورة التوفيق السريع بين الروح والمادة

ولا بد لنا من التفكير العاجل والعمل السريع للتوفيق بقدر المستطاع بين الحياة المعنوية الموروثة وبين الحياة المادية المفاجئة ، وتجنب أثر الصدمة التى تتولد منها هذه الانفجارات الهائلة بين الأمم وبين الطبقات فى الأمم . لابد لنا كى تتمتع بثمار المدينة الآلية ونستكمل نعمتها ، من بعث الحياة الروحية بعثا جديدا مناسبا للحياة المادية الجديدة . ففى هذه الحضارة نعم لا حد لها ، فقد تغلب الانسان بالآلة والعلم على كثير من

الصعاب والويلات ، زاد انتاجه وسهل انتقـــاله وقهر الأمراض الجائحة واتقى القحط ، وتعددت مصادر لهوه ومرحه وتزينت له الأرض وأخذت زخرفهـــا ومشى فى قرن واحد بالحضارة المادية ما لا يقـــاس معه مشيه فى القرون الماضـــية ، ولكنـــه فى قرن واحد كذلك قضى أو كاد يقضى على تراثه المعنوى الذى كسبه فى عشرات القرون .

نسى الله فأنساه نفسه . ففى جيل واحد هزمت حياة الروح هزيمـــة نكراء أمام حياة المادة ، وأخذت الآلة الصماء ، وقد سيطرت ، تفتك على غير هـــدى وبغير ضـــابط من دين أو خلق أو عرف ، وبقى تراث البشر المعنوى لا حراك له ، فشك الناس فى قيمته ، وهم اليوم ينظرون اليه شيعا بعضها يعطف عطف الأحياء على الموتى ، وبعضها يشمت شـــماتة الغالب بالمغلوب ، وبعضها يخلص له ولكنه فى الاشتغال بحاله يتخلف عن موكب الحضارة السائر فى عزة المنتصر وزهوه .

نعم تستحيل الى نقم

والواقع أننا من غير تدبر اندفعنا فى سبيل قد حول النعم التى نتمتع بها الى وسائل هلاك لنا ولحضـــارتنا ، فبدل أن نناصر القوى المعنـــوية ونعطيها من جهودنا وهمتنـــا ما نعطى القـــوى المادية أخذنا نزيف آراء ونخترع لها نظريات ونصدقها ، ولا نلبث أن نرتد عنها . وها نحن أولاء بهذه الآراء الخطيرة نسير للهلاك .

جرائم ترتكب باسم الحريات

فباسم حرية المرأة ندمر هدوء المنزل وحياة الأسرة ، وباسم حرية الوطن نمزق الأوطان ، وباسم حرية العمـــل وحرية رأس المال سنمحو رأس المال ونستعبد الطبقات ، وباسم مقاومة هذه الحريات سنفقد حرية الفرد وحرية الجماعة وحرية الرأى . ولم يكن أهل الرأى والعقل والعلماء والفلاسفة أقل أثرا فى المجتمع البشرى منهم فى عصر سيطرة الآلة الذى نعيش فيه .

لابد من ضوابط أدبية قبل الكارثة الكبرى

هذا ولا تزال هزيمة الأديان والعـــرف والأدب القـــائم على تجارب آلاف السنين لم تبلغ نهايتها ، فاذا بلغتها ولم يحل محلها شيء آخر يسند الحياة المعنوية والقوة الأدبية فأى ضابط يبقى لهذه الآلة الجامحة والقوى

المتفجرة التى أطلقها الانسان من عقال الطبيعــة وعجز عن أن يوجهها للخير وحده ؟ ! فلا بد للعقلاء من صيحة أرجو ألا تضيع فى ضـــوضاء الآلة . لا بد للعقلاء من الصبر والكفاح فى ســبيل الحياة الروحيــة ، فى سبيل أن تساير القيم المعنوية القيــم المادية ، وأن تزدوج الحيــاتان لا أن تتنازعا وتتفارقا .

توفيق الاسلام بين الحياتين

لقد كان الاسلام أبعد نظرا حين دعا الى هذا التزاوج فيمــا يؤثر من ميراثه ، بقوله : « أعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا » . « والدنيا مطية الآخرة » .

فلتكن الحياة المادية الفانية التى تغير وجهها فى قرن واحد كل هذا التغير ، مطية للحياة الخالدة الباقية حياة الفضيلة حياة الرحمة . قد يقول بعض الناس : انك تكاد تنكر الرقى الأدبى والمعنوى الذى صاحب هــذا التطور المادى الفجائى وتنكر نعم المدنية الجديدة ، وانى لا أنكر شيئا من فضلها ، ولكنى أنعى هزيمة القوى المعنوية وهزيمة العقل أمام الآلة الصماء المتحركة التى تحملنا فى جوفها وتشملنا بين أجزائها . وقيم الأشياء بآثارها والأعمال بنتائجها .

مدنيتنا تتحطم مرتين فى ربع قرن

ونحن الذين شاهدنا ويلات الحروب العالمية مرتين فى ربع قرن أحق الناس بالتساؤل عن القيمة الحقيقية للمدنية التى هــذه بعض آثارها ، ولنا كل الحق فى أن نقف لنتدبر ونرجع البصر كرتين الى القوى المعنوية للأديان ، لعلنا نستمد منها تسلح الوجدان البشرى ضد طغيــان الآلة الصماء ، لنرجع الى تلك القوة المعنوية التى كانت توجهنا الى الخير العام بقوله تعالى « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر » فجعلت هدف الحياة هو فعل الخير ومقاومة الشر .

التعمير للتخريب

أما أن يكون غرض الحياة الحصول على المواد الخامة ، ثم تقديمها للآلة الصماء ، ثم النزاع على الأسواق لتوزيع منتجات الآلة ، ثم القتال على المادة كى تستمر فى حركتها ، ثم نطلب المزيد فننتزع لمنتجاتها الأوطان أسواقا ، ونفتح الأرض لمخزون الركاز فيها ، ويتقاتل عبيد الآلة من أجل

السبق الى حاجاتها ، ثم ينتهى الأمر الى حروب عالميـــة تسلط فيها قوى الآلة كلها لتدمير نفسها وتدمير الحضـــارة البشرية ــ فأمر لا يمكن أن يدوم ، وهو عندى من نتائج خذلان القوى المعنوية أو جمودها ومناصرة القوى المادية .

فلنرجع الى منابع الهدى والرحمة فى الأديان

نعم لنرجع الى الأديان نستمد منها الهدى ، ولنوفق بين هذه الأديان لنستمد من وفاقها القوة ، لتتوازن الحياة المعنوية والحياة المادية ، ولكى توجه الأولى الأخرى فى ســبيل الخير العـــام ، وقد دعانا الله الى ذلك بقوله :

« شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينـــا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين و لاتتفرقوا فيه » .

ولتتصوروا مقدار الخطر من فقدان هذا التوازن ومقـــدار الحاجة الى العقل والروح فى أحسن عصور الحضارة المادية ، تصوروا أنكم دعيتم لمشاهدة معركة للقطط فى جبل المقطم ، وقـــد اصطفت القطط صفين ، ثم هجمت تتقاتل ، ألا تضحكون عندئذ من القطط ؟ ألا تهزءون بعقولها ؟ ألا تسخرون من سخفها ؟ بل تنقلبون من السخر الى الرثاء لها ثم البكاء لما أصابها .. ؟ !

تصوير للحرب يسخر منه المعقول

فاذا قيل لكم ان قطط أحد القارات قد تعلمت علما يمكنها من الحركة فى السماء وتحت الماء ، والمخابرة والتفاهم مع قطط باقى الأرض بالأثير ، وأنها استخدمت علمها وكتبها وعقلها وأدبها ، فجمعت قطط العالم لمعركة عامة بينها واتخذت ميدانا للمعركة أوسع من جبل المقطم : سهول أوروبا والصين وجزر آسيا وجبال افريقية وصحراءها ، وكل مكان تعيش فيه طائفة من القطط ، وأنها حشدت كل شيء لدوام معركة لا نهاية لها ، ثم علمتم أن القطط نجحت فى خططها ، ودعيتم بصفتكم ملائكة هذه الأرض لتشهدوا حيوانية القطط المتمدينة المسيطرة على الكهرباء والكيمياء ، أكنتم تسخرون من عقول القطط ؟ أم تعجبون بمدنيتها وعلمها ؟ أم كنتم تبكون لما أصاب القطط من الضلال ؟ أظن أن الملائكة فى السماء ورسل

الله منا ، الذين جاءوا بالهدى هم كذلك فى السماء يبـكون لما يصيب الناس فى هذا العصر وما أصاب القوى المعنـوية من الهزيمة أمام الآلة الصماء .

اجهالات فى مكان الكمالات ؟

ان انهزام القوى المعنوية بسيطرة المادة هو انهزام العقـل والمروءة والوفاء والفروسية والتقوى والرحمة والقناعة . واذا انهزم أولئك جميعا حل الجهل والغدر والخيانة والأثرة والرياء والفتك محلها واضطرب لذلك النظام العالمى .

أفلح من زكاها

والدعوة المحمدية حين عنيت بالروح وتزكيتهـا ، وحين وازنت بين مطالب الدنيا ومطالب الآخرة ، وأقامت الشريعة على ميزان من العـدل تزن بين حاجات الروح وحاجات البدن ، قاومت الطغيان المادى فمنعت سببا من أسباب الاضطراب العالمى ، « ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها » .

ثالوث الفســـاد

الغدر والكذب والنفاق في حياة الأفراد والأمم — فلسفة سياسية خطرة — آية قرآنية يفخر بها المسلمون — تشبيه بليغ — نصوص وحوادث — الغدر غير الخدعة في الحرب — قبح الغدر حتى بين الأشقياء — الله لايهدى كيد الخائنين — الكذب والنفاق في السياسة — المكيافللية ينكرها الاسلام — سياسة الوضوح — صفتان أدنأ من الكفر — أسماء على غير مسمياتها .

قلنا ان هناك أسبابا أخرى للاضطراب العالمى قد تكون أقل شأنا ، ولكنها عناصر هامة كذلك فى عدم الاستقرار الى سلم دائم وعلاقة حسنة بين الشعوب والأقوام .

آثار الثالوث فى حياة الأفراد والأمم

والآن تتخير من الأسباب الكثيرة الخلقيــة أسوأها أثرا فى المجتمع البشرى ، وهى الغدر والكذب والنفاق . وهذه الصفات الثلاث ، على سوئها وضررها فى حياة الأفراد ، أبعد أثرا وأعظم ضررا فى علاقات الأمم ، ولذلك عنيت الدولة المحمدية عناية كبــيرة بمقاومتها فى أخلاق الأفراد وصلات الشعوب . وقد فشت مع الأسف الشديد هذه الصفات المزمومة بنسبة عكسية مع ضعف الحياة الروحية وسيطرة المادة ، وأصبح الناس لا يستحيون من الغدر استحياء آبائهم ، لما كان يصحب الغدر ، من ضياع الشرف والهيبة ، بل صار كثير منهم ينظر للغادر نظرته الى الكيس المبدع فى حسن التصرف ، ويقيس فضله بنجاحه غير عابىء بالوسيلة وان كانت أخس الوسائل . واذا ضعف احترام الفضيلة وتقديرها لذاتها فشا الغدر فى صلات الشعوب واضطربت العلاقات الدولية أيما اضطراب .

فلسفة سياسية خطرة !

والمتعقب للسياسة الدولية فى مدى نصف القرن الأخير يســـتطيع أن يشير الى عشرات المواقف الغادرة ، وقل أن يجد حلقة نقية فى سلسلة الغدر الخبيث . فالمفاجأة والنكث بالعهود كادا أن يكونا القــاعدة بعــد أن كانا ، حتى فى الجاهلية وبعد أن انتشرت مع انتشار الاسلام والعرب آداب الفروسية فى القرون الوسطى ، من الصفات التى تحط من قــدر الأفراد والشعوب وتعرضها للزراية العامة .

آية قرآنية يفخر بها المسلمون

ولم يزل الكتاب الكريم يسفه الغادرين ويحض على الوفاء حتى جعل حق الميثاق فوق حق الدين كما أشرنا الى ذلك فى موضع سابق . وهذه الآية الجليلة « وان استنصروكم فى الدين فعليكم النصر الا على قوم بينكم وبينهم ميثاق » تبقى أبد الدهر فخر المسلمين فى حرمة العهود وحرمات الوفاء !

وزراية القرآن على الغادرين فى قوله تعالى « وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ان الله يعلم ما تفعلون ، ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هى أربى من أمة ، انما يبلوكم الله به » وتشبيه الغادر بالمرأة السفيهة تنقض غزلها بعد أن أبرمته مثل بليغ للذين يعبثون بعهودهم ، يهوى بهم الى درك السفاهة ، تلك السفاهة التى يترتب عليها فى الحقيقة اضطراب العالم كله اذا حل الغدر محل الوفاء .

تشبيه بليغ !

نصوص وحوادث

روى أبو سعيد الخدرى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « ألا انه ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة بقدر غدرته ، ولا غدرة أعظم من غدرة امام عامة » .

وقد ضرب رسول الله المثل الأعلى للوفاء طول حياته ، فى صلاته بالأفراد والجماعات ، وبلغ من وفائه أنه سمع لنشيد حسان فى مدح أحد قتلى بدر من أعداء النبى نفسه .

كان مطعم بن عدى من أشراف قريش المشركين ، وكان رسول الله حين رجع من (الطائف) بعد أن لقى من (ثقيف) منكر القول والفعل ، قد طلب جوار بعض رؤساء مكة ليدخلها آمنا على حياته ، فأبوا وقبل مطعم أن يدخلها فى حمايته ، فلما كانت واقعة بدر بعد ذلك ودارت الدائرة على قريش وقتل نفر من صناديدها ، كان بين القتلى مطعم بن عدى . وفيه يقول حسان بن ثابت شاعر الرسول :

أياعين فابكى سيد القوم واسفحى بدمع وان أنزفته فاسكبى الدما !
وبكى عظيم المشعرين كليهما على الناس معروف له ماتكلما

فلو كان مجد يخلد الدهر واحـدا | من الناس أبقى مجده اليوم مطعما
أجرت رسول الله منهم فأصبحوا | عبيـدك ما لبى مهل وأحـرما
فلو سئلت عنـه معـد بأسرها | وقحطان أو باقى بقيـة جـرهما
لقـالوا هـو الموفى بجيرة جاره | وذمتـه يوما اذا ما تذممـا
فما تطلع الشمس المنيرة فـوقهم | عـلى مثله فيهم أعـز وأعظما !

مات مطعم مشركا مقاتلا الرسول ، ولكن الوفاء فى هذا المثل يرثى فيه حسان عدوا مشركا ، والرسول يسمع ولا ينكر ، يدل على أنه صلى الله عليه وسلم أنزل الوفاء فى مكان من القداسة لا ينزله عنه خلاف فى الدين ولا قتال وعداء . فالرسول حين يسمع الى شاعره يبكى المروءة فى عدو هو أحد صرعى القتال من المشركين المعتدين يسن لنا فى الرجـولة والمروءة والوفاء مثلا قد علا فوق كل شىء ، ويحط من صفة الغـدر الى الدرك الذى لم يصل اليه أحد قد بقى له من الايمان والخلق شىء .

وقد روت عائشة أن عجوزا جاءت الى النبى فقـال لها : من أنت ؟ فقالت : جثامة المزنية . فقال : أنت حسانة ! كيف أنتم ؟ كيف حالكم ؟ كيف كنتم بعدنا ؟ قالت بخير . بأبى أنت وأمى ! فلمـا خـرجت قلت : يا رسول الله : تقبل على هذه العجوز هذا الاقبال ! قال : « انهـا كانت تأتينا زمن خديجة ، وان حسن العهد من الايمان » .

فلو أن العالم دان بما تريده الدعوة المحمدية ، واعتبر حسن العهد من الايمان لوفر على نفسه ويلات كثيرة .

* * *

الغدر غير الخدعة فى الحرب

قد يبدو الغدر أول وهلة وسيلة من وسائل الظفر ، وطالما تحـدث الناس بأن الحرب خدعة ، وشتان بين الخيانة والنكث بالعهد أو المفاجأة والأخذ على غرة وبين الخدعة فى القتال ، فالخـدعة حيلة يعرف الخصم أنه معرض لها وليس له وعد باجتنابها ، وهى دائما فى حـدود الحـرب المرعية ، وقد تحدثنا عنها من قبل ، فاذا ألقيت فى روع العدو أنك ستأتيه بكامل قوتك من ناحية ولم تبعث اليها الا الأقل ، وحولت الكثرة لناحية

أخرى ؛ فليس هذا غدرا وانما هو خدعة لا تتنافى مع المروءة وحسن الخلق .

قبح الغدر حتى بين الأشقياء

حكى لى أحد أشقياء البدو عن شيخ كبير من البدو أنه غدر به بعد أن وعده ألا يدل عليه ، والغدر منقصة حتى بين الأشقياء ، فسألت عما يقول الشيخ فى ذلك ، فقيل : انه قال : « الخونة عونة » أى أن الخيانة مما يستعان به . وقد أنكر الناس ذلك على الشيخ البدوى أشد الانكار .

وها نحن أولاء مع الأسف نشهد مبدأ « الخونة عونة » الذى يقول به شيخ من قساة البدو ، والذى ينكر الناس اتخاذه مع شقى من الأشقياء فى حادث سلب أو نهب ، يفشو فى علاقات الأمم الكبيرة فتغدر وتفاجىء لتفتك فى غفلة ، متجاهلة حرمة العهود وحرمات المروءة . فكما أن مبدأ « الخونة عونة » جعل الحياة قديما بين بعض القبائل فى اضطراب مستمر فسلبها الأمن ، فهو بين الأمم المتحضرة يمد هذا الاضطراب بالوقود .

الله لايهدى كيد الخائنين

ولا أظن أن اتخاذ الغدر وسيلة من وسائل الظفر أدى للغادرين خدمة جليلة فى زمن من الأزمان ، فهو قد يكسبهم المعركة الأولى ، ثم يرتد عليهم ؛ ولا بد أن يتحقق فى الغادرين قوله تعالى « ان الله لا يهدى كيد الخائنين » .

واتخاذ الخيانة وسيلة للظفر فى علاقات الشعوب، يؤدى قطعا الى التربص وسوء الظن ، فيفقد الناس نعمة الأمن فى السلم والحرب . وها هو ذا الجيل الحاضر يكتوى بويلات الحرب ليخرج منها الى الخوف والاستعداد لحروب أخرى . ذلك هو الجزاء السماوى . ولذلك يحرص الاسلام على الوفاء حتى مع الغادرين ، فوفاء بغدر خير من غدر بغدر .

الكذب والنفاق فى السياسة

أما الكذب والنفاق فلا نقول ان الناس أكثر تحريا للاخلاص والصراحة مما كانوا ، ولا ان الكذب من الأخلاق التى ظهرت فى العهد الآلى بأسوأ مظاهره ، ولكنا لا نستطيع كذلك أن نقول ان الصدق أكثر حرمة منه فيما مضى ؛ وانما الذى نعنيه فى هذا العصر هو الكذب فى السياسة . ونستطيع أن ندعى أن الكذب والرياء من عناصر الاضطرابات فى العلاقات الدولية أكثر مما كانا فى الماضى .

المكيفالية ينكرها الاسلام

مكيفللى فى كتاب (الأمير) مثلا يجهر بنظريات لا ترتضيها قواعد الأخلاق والمروءة ، والناس الآن يطبقون آراء (مكيفللى) وليس لهم صدقه فى اعلان رأيه . وعندى أن كتاب (الأمير) نفسه دليل على أن الناس فى العصور الوسطى كانوا أقرب الى الصدق ، منهم فى العصر الذى يستنكرون فيه المكيفللية ويعملون بها .

سياسة الوضوح

وهذا الكذب والنفاق فى السياسة الذى يظنه بعض الناس مبررا ويفتنون فى تزويقه وتنميقه ويعدونه لازما للدبلوماسية ، يبغضه الاسلام وينفر منه . وتاريخ الفتوحات الاسلامية مثل باق من الصدق والجهر بالحق للعدو والصديق ، وسير الخلفاء الذين يمثلون الدعوة المحمدية ، والذين لم يقعوا فى أساليب الفرس وأساليب بيزنطة ، تفيض ببساطة الصدق ووضوح الحق ، فاذا قالوا أو كتبوا أو عاهدوا هم أو سفراؤهم أو ولاتهم ، وجدت قولا واضحا يتحرى أن يكون بعيدا عن التأويل جليا لا ينمق ولا يمارى . يقول رسول الله « أنا زعيم ببيت فى ربض الجنة لمن ترك المراء وان كان محقا ، وببيت فى وسط الجنة لمن ترك الكذب وان كان مازحا ، وببيت فى أعلى الجنة لمن حسن خلقه » .

ولقد أراد الاسلام فى جميع العلاقات بين الناس فردية أو دولية ذلك الوضوح ، فتجده مطلوبا فى كل شىء . وعدم الوضوح فى العقود وتعريضها للتأويل والمشاحنة كان سببا فى تحريم كثير منها .

صفتان أدنا من الكفر

ويكاد القارىء لكتاب الله وأحاديث رسوله يحكم بأن الكذب والنفاق أحط من الكفر ، فقد لعن الكاذبين وجعل المنافقين فى الدرك الأسفل من النار . ولأول وهلة قد لا يدرك الانسان حكمة هذه الشدة ، فاذا نظر فى أثر النفاق من الناحية العامة ، وتجاوز برهة أثره على المنافق نفسه ، وجد أنه عنصر جوهرى فى فساد النظام العالمى .

وليظهر ذلك أرجو أن تفكروا فيما نحن فيه من اضطراب عالمى ، أليس النفاق من أهم أسبابه ؟ ولو كان القائمون على (جمعية الأمم) مثلا — وقد اشترك فيها أو فى تأسيسها كل الذين قتلوا فى الحرب الأخيرة — قد بنوا مؤسستهم على الصدق وعلى الاخلاص أكانت تنهار كما انهارت ؟

أكان انهيارها يجر الى هذا الفساد الكبير الذى وقع فى الحرب العالمية الأخيرة ؟ ولو أن الدعوة التى يدعيها الناس من حب الخير العام ، ولو أن الحرمة التى للحقوق البشرية كانت حقيقة فى نفوسهم وكانوا صادقين غير مرائين ، أكان الناس يختلفون على معنى هذه الحقوق وعلى معنى الخير العام كما يختلفو اليوم ؟.

أسماء على غير مسمياتها

ان النفاق قد ألبس الأمر على الناس ، فاذا قيلت هذه الكلمات المحبوبة : الحرية . المساواة . العدل بين الناس . حق الجميع فى عيش سعيد وسلم دائم ، اذا قيلت ، ظنوا أن المقصود غير ما قيل ، والتبس الحق بالباطل .

وأثر النفاق ، وان قل شأنه فى علاقة فرد بفرد ، يتضاعف أضعافا كثيرة الى أن يصير شرا مستطيرا اذا اتخذته الدول وسيلة من وسائل الظفر فى سياسة شعوبها ، أو فى علاقاتها بدول أخرى .

والسياسة التى تستند على الغدر والكذب والنفاق تحرمها الشريعة المحمدية وتأباها الأديان السماوية كلها ، لأنها تغذى الاضطراب العالمى وتعين على تقويض العمران .

(٥)

في البحث عن سند روحى للحضارة

الوصاية على الحضارة

للأقوى أم للأتقى ؟

الشعلة المتنقلة بين الأجناس – قصور « علم الانسان » – أدوار الحضارة ومن مثلوها – من « علم الانسان » – الفروق البدنية لاتكيف الحضارة – المدنية ليست اختصاصا لقوم وحدهم – هى أثر للحالات النفسية – قانون قرآنى – مساواة تامة بين الأرواح – وحدة التكليف الدينى ومغزاها – دعوى هى أصل الاستبداد والتفاوت – ميراث النفس الطيبة

نريد أن نتناول من بعض النواحى مبدأين متعارضين : الأول سند الحضارة المادية ، والثانى سند الحضارة الاسلامية . ولعل فى هذا البحث ما يكشف عن العوامل الخفية لسقوط الحضارة ، وما يفسر بعض أسباب الاضطراب العالمى أثناء هذا القرن .

فما هو الحق ... هل هو للأقوى أم للأتقى ؟

الشعلة المتنقلة بين الأجناس

اذا استعرضنا تاريخ الأقوام منذ بضعة آلاف من السنين ، نجد أن الحضارة لم تثبت فى مكان واحد ، ولا دامت لقوم وحدهم ، فهى كسلعة الذهب ، تمر بأيدى الناس جميعا ، وقد ترجع الى اليد التى ذهبت منها بعد أن تطوف الكرة الأرضية .

فالمدنية متاع مشاع يكسبه من قدر على الاحتفاظ به عهدا ، ثم لايطيق حمله فيتخلى عنه فيقع على كشف الأصلح لحمله ، حتى اذا خارت قواه تخلى للأصلح وهكذا . فالتاريخ يشهد بوضوح على هذا التداول ، ويأبى أن يشهد لقوم دون قوم أو جنس دون جنس بالصلاح الذاتى أو الاختصاص بالقدرة على حمل رسالة الحضارة لميزة طبيعية موروثة وملازمة للعنصر .

قصور « علم الانسان »

وكذلك اذا استعرضنا (علم الانسان) « أنثروبولوجى » ونظرنا فى الأجناس البشرية نجد هذا العلم على حداثته وغموض بعض نواحيه ،

يرشدنا الى الفروق أو الميزات البدنية بين قوم وقوم ، ولو أنه لا يساعدنا على ادراك الفروق الروحية والذهنية وقد نخرج من محيط العلم الصادق الى النظر والفروض كلما حاولنا تثبيت قواعده على أساس الفروق النفسية والروحية بين قوم وقوم ، لنستخلص منها مؤهلات هـذا العنصر دون ذاك لرسالة الحضارة والمدنية .

نعم ان بعض الأبحاث « الأنثروبولوجية » الحديثة قد تعين على قياس صفة الذكاء بين طائفة وطائفة من البشر ، ولكنها لا تعين على تحـديد الصفات المعنوية الكثيرة ، والغرائز المتعددة ، ومظاهر هـذه الغرائز ، بذلك لا تهدى الا الى أقل العناسر النفسية شأنا فى تكييف قيمة عنصر وآخر لحمل رسالة الحضارة التى تتطلب مجموعة من المعـانى والقوى النفسية وتوازن هذه المجموعة .

فاذا كان (علم الانسان) هيأ لنا قدرا من العلم نعرف به صـفات نرد بها الناس الى بعض أصولها القديمة ، فان هذا العلم لا يزال فيما عدا ذلك يتخبط بنا فى المجاهيل . واذن فليس لدينا دليل علمى يجعل أحـد العناصر يمتاز بطبيعته وقوته على العناصر الأخرى لحمل رسالة العمران والحضارة والعلم .

وانىظر أولا فى الفروق العنصرية بين الأقوام التى قامت على أكتافها المدنيات المختلفة منذ أن شاد الفراعنة هذه الأهرام شـاهدا على الشـأو البعيد الذى بلغوه فى المدنية وسبقوا به الناس كافة .

أدوار الحضارة ومن مثلوها

قامت مصر بالـدور الأول ، بل الدور الأهم فى تاريخ الحضـارة البشرية ، فهى التى علمت الناس الزراعة والبناء والكتابة .

ثم جاء السوماريون والبابليون والفينيقيون والأشوريون والكلدان والفرس واليونان والقرطاجنيون والصينيون والرومان والعـرب ، ثم الأقوام الأوربية والأمريكية الحديثة ، يضيفون الى الحضارة ويجددون . فاذا فرضنا أن أول الحضارة فى مصر وآخرها الآن فى أمريكا — اذ ليس عندنا دليل على البداية أو علم بالنهاية — وتجاوزنا مؤقتـا عن نصيب الأقوام الصفراء وأثرها فى حضارة هذا الشق من الكرة الأرضية ، أمكننا

حصر الحضارة التى تشير اليها فى العناصر النازلة فى غرب آسيا وشمال افريقية وفى أوروبا وأمريكا ، وقد اتفق علماء الأجناس (الأنثروبولوجى) على أن هؤلاء البيض ثلاثة عناصر أصلية ، بينهم اختلاف بدنى واضح ومحدد ، ومنازل العناصر الثلاثة تمتد متوازية من الغرب الى الشرق .

من «علم الانسان»

فى الساحة الشمالية نجد الشماليين (النورديك) وجنوبا منهم (الألبيين) وجنوبا من هؤلاء (المتوسطيين) ، أو قوم البحر الأبيض المتوسط ، وهم سكان ما حول هذه البحيرة .

الفروق البدنية لاتكيف الحضارة

فللشماليين الأجسام الطويلة ، والعيون الزرق ، والرءوس المستطيلة ، وللألبيين الرأس المستدير ، وللمتوسطيين الرأس المستطيل ، والأجسام الأقصر من أجسام الشماليين ، وسواد العيون والشعر . ولا حاجة بنا للخوض فى الفروق البدنية التى حدد بها علماء الأجناس هذه العناصر ، واستدلوا على وجودها قديما وأثرها حديثا ، فانها لاتغنينا كثيرا فى تكييف الحضارات القديمة ، اذ ليس بين أيدينا أدلة قاطعة على حقيقة الأقوام الذين حملوا رسالة المدنية قبل العرب أو حتى من العرب ، ولأن البحث العلمى نفسه الذى دلنا على ميزات بدنية بين العناصر الثلاثة التى يتكون منها الجنس الأبيض الكبير ، دلنا كذلك على أنه لا وجود لأحد منها فى وطن معين خالص له ، ففى بريطانيا نفسها ، تلك الجزيرة الشمالية ، توجد العناصر الثلاثة ، وليست حتى بنسبة بعدها عن هذه الجزيرة ، بل ان (المتوسطيين) فيها أكثر نسبة من (الألبيين) . وكل ما نستطيع تحقيقه علميا هو أن نثبت رجحان صفة بدنية فى أمة من الأمم من صفات هذه العناصر ، على صفاتها الأخرى .

وحتى ان استطعنا تقرير ذلك علميا من الناحية الجسمانية كما قلت ، فاننا لا نزال بعيدين جدا من قياس العوامل والآثار النفسية فى شعب من الشعوب ، وادراك هذه الآثار باعتبارها نتائج لتفاعل الدماء الموروثة من الأقوام المختلفة .

واذن يصح لنا أن نتساءل : لمن هذه الحضارات ؟ وهل يجوز نسبتها لجنس دون جنس ؟

ثم ألم تكن الشعوب القديمة نفسها ، وأقدمها الفرعونية المصرية منذ آلاف السنين ، كما هي اليوم ، خليطاً من الأجناس تغلب عليه جنسية البحر المتوسط ؟ وما هي البضعة آلاف من السنين التي تعرف شيئاً قليلا عنها منسوبة الى عشرات الآلاف في التاريخ البشري الذي لا نعرفه شيئا عنه ؟ وسواء قامت بعض الحضارات القديمة على أكتاف أحد العناصر الثلاثة التي أشرنا اليها والتي حددها علماء الأجناس في الناحية الغربية من الأرض ، أم على أقوام متوالدة من اختلاطها ، فان أمرا واحدا لا شك فيه ، هو أن المدنية ليست امتيازا ولا اختصاصا لعنصر منها ، ولا هي لازمة له وتابعة لصفاته الخاصة ، فليست نتيجة للقوة الطبيعية الموروثة له ، وليس سندها هو حق الأقوى بحال من الأحوال .

المدنية ليست اختصاصا لقوم وحدهم

والحضارة اذن بجميع نتاجها المادي والأدبي أثر لحالات نفسية غير لازمة للصفات البدنية المميزة لقوم على قوم . ولو أننا ذهبنا بعيدا وحاولنا الاستدلال بالمعلوم على المجهول ، وقلنا ان الصفات البدنية تشير الى خصائص نفسية لا نزال بعيدين عن علمها ، فان ذلك لا يغير من الحق ، وهو أن العناصر التي نعرفها ، لم تختص على طول التاريخ البشري بالعقل أو العلم أو الابتكار ، حتى ننسب شيئا من هذا الى صفتها العنصرية ، ومن الواضح أن النفس وحدها هي التي تضيء فتنير ظلمات الحياة البشرية متى أثرت فيها مؤثرات خاصة ، وتهيأت لها بيئة روحية خاصة . فسند الحضارة هو الروح والخلق لا القوة المادية .

هي أثر الحالات النفسية

وما أصدق القانون القرآني في هذا المعنى في قوله تعالى « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

قانون قرآني

ولو فرضنا أن الصفات النفسية تورث كما تورث الصفات البدنية فانه مما لا شك فيه أن المؤثرات العارضة هي التي تكيف القوى الذهنية وأن العقيدة والآداب القوية هي المنشيء والحارس للمدنية .

اننا نجهل كنه الروح وحقيقة النفس ، كما نجهل أسباب انفعالاتها ومداها وآثارها ومصادرها وعواقبها ، مما يمنع تقرير أصول علمية نميز بها بين صفات الأقوام النفسية كما نميز بين صفاتها البدنية .

وكل ما يمكن تقريره بالمشاهدة والاستقراء فى الحال أو فى الماضى يشير الى استعداد متشابه عند جميع الأقوام لتلقى العلم أو الأدب ، أو بعبارة أعم ، لتلقى الحضارة كيفما تلونت ومن أى جهة جاءت .

مساواة تامة بين الأرواح البشرية

واذا تجاوزنا عن بعض فروق محدودة تحدثها البيئة والمناخ فى بعض الحالات ، فانا نستطيع أن نطمئن الى القول بالمساواة التامة بين الأرواح البشرية ، أو بعبارة أخرى ، اننا لا نعرف دليلا على عدم المساواة . وتداول العلم والابتكار ، بل وتداول الجهل والفساد ، دليل على استعداد مشترك ومتساو للخير والشر . واذا كان كل ذلك من آثار العيش تحت عوامل مختلفة فانه يشير الى وحدة الروح ، أو بعبارة أخرى ، وحدة القوى الذهنية ، أو تمام تشابهها .

وهذا يكفى لنفى امتياز بعض العناصر البشرية على بعضها بصفات ذهنية تجعل لأحدها رجحانا دائما .

وحدة التكليف الدينى ومغزاها

ويحق لنا أن نقول : انه ليس فى الصفات البدنية ولا الصفات الروحية ما يدلنا على خلاف يجعل المدنية حكرا لطائفة من البشر ، أو يمنع من المساواة فى التكليفات التى جاءت بها الشريعة المحمدية .

ومتى وضح ذلك انهارت الدعاوى العنصرية ، وانهار معها مبدأ القوة كسند للحضارة ، لأنه لو ثبت أن الطبيعة هيأت قوما دون آخرين للعرفان والعمران ، لجاز أن يحمل هذا القوم غيره على احتذائه ، بل لكان فى سيطرته وقهره غيره فائدة عامة .

وكما أن العلم لم يثبت لأحد رجحانا ، كذلك التجربة دلت على أن الأقوام انما تستخدم ما أوتيت ، من قوة فى الاستزادة من المنفعة لنفسها واستغلال المغلوبين لأسباب عارضة ، وقد بينا أن الغلب ليس ناشئا عن صفات أصيلة طبيعية فى عنصر ما . وكذلك دل تاريخ البشر على أن الأمم المغلوبة لا تستفيد من غالبها بل قد تندثر بسبب هذا الغلب .

دعوى هى أصل الاستبداد والتفاوت

فالقول بالحق للأقوى ، هو قول يرجح بعض الأقوام على بعض دون سبب طبيعى ، ويبيح الاستبداد للقادرين عليه ، ويمحو حق المستضعفين .

وهو قول تأباه الشريعة المحمدية كل الاباء ، فهى التى جعلت سواسية ، وجعلت الحق للأتقى والأبر ، وقررت أن الناس أ أكرمهم عند الله أتقاهم .

وهى التى يقول رسولها العربى الأمين « لا فضل لعربي الا بالتقوى والعافية » — أى حب الخير والسلام . فليس أ أقواهم بدنا وأضخمهم ميراثا ، ولا أكثرهم عرفانا ، بل أطيبهم النفس الطيبة هى التى تملكها التقوى فتمنعها من فعل الشر فعل الخير .

ميراث النفس الطيبة

قيام المدينة ودوامها

مداولة الأيام بين الناس ـ التفسير المادى للتاريخ ـ التفسير العنصرى للتاريخ ـ مناقشة التفسيرين ـ التفسير الروحى هو الصحيح ـ من القرآن ـ بارود القذيفة ـ ساعة الفصل بين التقدم والتأخر ـ نظرة تشاؤم الى المدنية الحاضرة ـ بين المدنية والحق ـ الانهيار الفجائى ـ عوامل فناء المدنيات ـ الترف ـ الضعف عن حمل أمانات الحضارة ـ هل جاء وعد الله ؟

بينا أن سند الحضارة الاسلامية هو حق الأتقى والأبر ، وقلنا ان الأرواح متساوية ، وان « علم الانسان » لا يزال قاصرا عن بيان حقيقة القوى الذهنية وكيفية انفعالها بالمؤثرات ، وأثبتنا أن الفوارق العنصرية الظاهرة فى أجسام البشر لم ترشد الى امتياز بينها فى خلق الحضارة ، وهى قطعا لاتجعل لقوم امتيازا على قوم فى الاختصاص بها .

مداولة الايام بين الناس

والتاريخ البشرى يشير الى الحضارة كأنها شعلة متنقلة ، ويدل على أن الأقوام التى أخرجت أعظم المدنيات ، ما لبثت أن هوت من شاهق مجدها الى الحضيض .

فاذا تعقبنا الأمم أمة أمة فى مدى خمسة آلاف سنة نجد أن هناك قاعدة لا تتخلف ، وهى أن الأمة ترتفع ثم تهوى كما تقذف بالحجر الى أعلى فيصل الى مداه ثم يقف ثم يهبط عموديا الى الأرض ، وكأن الأمة التى ارتفعت شىء آخر غير التى هوت وتحطمت . بل ان بعض الأمم التى لا يزال أثرها يدوى قد بقيت سلالتها ذاهلة عن عزتها ، كأن ليس بينها وبين آبائها صلة ! فما الذى رفعها وما الذى خسفها ؟

التفسير المادى للتاريخ

لقد تعددت الملل ، فالذين يفسرون التاريخ تفسيرا اقتصاديا يعللون هذا التداول الذى عبر عنه القرآن أوجز تعبير فى قوله تعالى « وتلك الأيام نداولها بين الناس » بعلل مادية ، ويفسرون الصعود والنزول بأسباب تنحصر فى المادة ، فاخصاب الأرض لسبب طبيعى ، أو تحول المطر أو زيادته أو تغير الجو ، أو اكتشاف طرق جديدة يتبعها تغير سبل النقل

للتجارة ، أو اكتشاف أرض جديدة ، أو ابتكار آلة ، أو استخراج معدن ، أو استخدام وسيلة ما ، أو غير ذلك مما يغنى ويزيد فى القوى المادية ، هو العنصر الذى يدفع الى التحضر وحياة العمران ، كما أن فقدان الرجحان الاقتصادى يتبعه التدهور والانحطاط .

التفسير العنصرى للتاريخ

ويرى آخرون أن سبب ظهور أمة ما ، هو فى ذات جنسها وما يحصل من تزايد القوى الكمينة فى ميراثها العنصرى ، وذلك بأن تمتزج مع قوم آخرين قريبين منها فيخرج من التوالد عنصر أقوى يندفع الى أعلى بما هو كمين فيه من القوى الموروثة ، فيسمو ويضيف للتراث البشرى علما ومدنية .

مناقشة للتفسيرين

وهى أقوال لا تكفى لتفسير الواقع ولا تحل اللغز ، فكثيرا ما قام بالحضارة قوم ، أو سقطوا واندثروا من غير أن تكون العوامل الاقتصادية سببا فى الظهور والاختفاء . بل ان قدماء المصريين وهم رأس الحضارة البشرية ، وقدماء البابليين ، هم الذين زرعوا الصحراء ولم تكن الصحراء هى التى زرعتهم .

وخروج العرب من شبه الجزيرة وانتشارهم ، ووصلهم بين حضارات الأقدمين والحضارة الحديثة ، وابتكارهم وافتنانهم فى العلوم والصنائع ، لم يكن لأسباب اقتصادية محلية ، كما أن سقوط العرب والرومان والمصريين والبابليين لم يكن لأن أرضهم أجدبت ، ولا لأن جوهم تغير ، ولا لأن طرقا جديدة أو أوطانا جديدة قد اكتشفت .

وكثيرا ما كان الحرمان المادى سببا لظهور أقوام وتغلبهم على المادة وحصولهم على ما يريدون بكفاحهم ليخرجوا للعالم حضارات ضخمة . ومثل اليونان والعرب والفينيقيين واضح ، وخيرات أمريكا وافريقية الوسطى لم تبعث قوما جددا فى آلاف السنين ، وانما بعث أمريكا المغامرون المحرومون .

كذلك لم يقم دليل علمى على أن توالد قوم فيما بينهم وعدم اختلاطهم ، سبب فى انحطاط هؤلاء القوم ، بل بالعكس .

نعم لقد قيل ان ظهور الحضارة المصرية القديمة كان عقب ورود قوم من أسلاف العرب امتزجوا مع أهل الوادى وصاروا قدماء المصريين الذين بنوا الأهرام ، ولكن ذلك ليس معناه أن انتعاش قوم من الأقوام كان لازما لمثل هذا الحادث .

فلا النظرية الاقتصادية ، ولا النظرية الأنثربولوجية « نظرية علم الانسان » كافية لأسباب ظهور المدنية أو سقوطها ، لأن كلا من النظريتين قد يفسر حالة ، ولكنه لا يطرد مع الحالات الأخرى .

التفسير الروحى

واذا دققنا النظر نجد أن الأسباب الروحية والمعنوية هى التى ساعدت دائما على الظهور أو الاختفاء ، ونجد العلل الأدبية ملازمة لجميع الحالات فى كل الأقوام . والقرآن كما أشرنا فى الفصل السابق يؤكد هذا المعنى فى كثير من آياته فيقول « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » ويقول : « كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كفروا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم . ان الله قوى شديد العقاب ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون » « ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون » « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم » « وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون » « وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوما آخرين فلما أحسوا بأسنا اذا هم منها يركضون لا تركضوا وأرجعوا الى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون . قالوا يا ويلنا ان كنا ظالمين . فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيدا خامدين » .

من القرآن

فما من قوم خرجوا على الدنيا برسالة العرفان والعمران الا كانوا مهيئين لهذا بايمان قوى وأدب قوى ودعوة قوية ، وما من أمة تضاءلت

عقائدها وانحط أدبها وتذبذبت الا أصابها ما أصاب من قبلها فهوت كأن لم تكن شيئا مذكورا .

فالعقيدة الصالحة والأدب القوى والعرف الصالح كقوة البارود فى دفع القذيفة ، تدفع الأمم بقدر ما فيها من قوة واستقامة .

ساعة الفصل بين التقدم والتأخر

واذا أسمينا العقائد والآداب والعرف بالقوة المعنوية ، فان هذه القوة الدافعة تسوق الأمم الى الأمام ، حتى اذا ما تبددت بقيت الأمم حيث أوصلتها الدفعة الأولى ، ثم هوت الى الأرض كتلة لا تعى ، وكأنما سلبت حياتها . والتاريخ يشهد على أن انحطاط كل قوم من الأقوام يبتدىء حيث تبلغ السيطرة الروحية والمعنوية . أو بعبارة أخرى حين تغلب شهوات الأبدان شهوات الأرواح . تلك هى ساعة الفصل بين التقدم والتأخر .

نظرة تشاؤم الى المدنية الحاضرة

وأكثر المتشائمين يعتبرون أهل الحضارة الحديثة من الغربيين قد بلغوا هذا الدور ، ولا يغترون بمظاهر القوى المادية ، فلا الثروة ولا العلم ولا ما ينتجون من طيارات ودبابات ومدافع ووسائل سيطرة على الحياة المادية بمانعة من هزيمة المدنية واندثار الأقوام التى تذبذبت عقائدها وضل أدبها وانقلب عرفها .

بين المدنية والحق

ويرى بعض العلماء أن سلامة العقل البشرى ليست لازمة للرقى المادى ، فقد يسير هذا الرقى عهدا ما ، وقد سلب الناس العقل الراجح والميزان الصحيح ، ويكون سيرهم واندفاعهم مما يقرب قضاء الله فيهم وسنته فيمن خلا قبلهم من المترفين ، ومحققا لقوله تعالى « حتى اذا أخذت الأرض زخرفها وأزينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس » .

الانهيار الفجائى

واتيان أمرها ليلا أو نهارا هو الاشارة الى معنى المفاجأة ، فان انهيار المدنية وسقوط القائمين عليها لا يكون عليه دليل ظاهر من الأحوال المادية ، ولكنه خفى خفاء القوى الذهنية والعوامل النفسية التى لها الأثر الأول فى قيام الحضارة وسقوطها .

عوامل فناء المدنيات

ومن العسير جدا فى مثل هذه العجالة أن نخوض فى تفصيل عوامل فناء المدنية ونستقصى أسبابها وأثرها وسرعتها ، ولكن ذلك لا يمنع من أن نشير الى سببين قد يكون مجمعا عليهما .

الترف

الأول : الترف ، فان الأمم متى تهيأت لها بيئة روحية صالحة سمت واندفعت الى العمران والعلم فأنتجت واستقامت لها الأمور بما يمسكها من ايمان وأدب يوحد بينها ، ويحدد مسلكها ، ويقوم معوجها ، ويحفظها من التردد والقنوط ، فتجد نفسها بعد حين قد نعمت بالحياة ودانت لها طيبات الرزق ، فتلهوا بهذه الطيبات ثم تنغمس فيها ثم تعيش لهواها وتنساق فى شهواتها وتثقل رسالة الحق عليها ، بما تفقد من الصبر وما تجد من لذات عاجلة ، فيداخلها الشك فى دعوة منشىء حضاراتها ، وترتاب فى كل تراثها الأدبى ، وتجد غضاضة فى التقيد ، فيضيع العرف الذى يمسكها ، وتتداعى القوى الرابطة لكيانها ، فتتفكك العرى وتحل الفوضى ، ويستخلف الله للمدنية قوما آخرين خماص البطون ، يحبون الحق كما يحب المترفون كأسهم وغوانيهم .

وهذا الترف يتولد منه السبب الثانى للانحطاط فان رسالة القوم الأولين تكون بسيطة وهم قادرون عليها بتفرغهم لها . أما أعقابهم فان أعباء رسالتهم تتزايد بطبيعة نمو الحضارة نفسها ، وبتطلبها مجهودا أشق ونظرا أدق وعناية لا تنقطع . فقائد الكتيبة فى جيش الفاتحين الأولين يحل محله بعد جيل قائد الجيش فى دولة الحضارة الأمبراطورية ، ومدير المصنع بعشرات الألوف من العمال ، ومدير المصرف بآلاف الملايين من الدراهم .

وتستلزم المدنية عندئذ من أربابها قلوبا متفرغة وعقولا صافية وأبدانا رياضية ويثقل حملها ، بينما يكون النعيم قد سلب الناس العقل اللذة قد قضت على الفراغ « ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه » فيضعف ايمانه بنفسه ويهوى الى الأرض مسلوب الروح ضحية الهوى والضلال ، وكان آباؤه فى نهضتهم شهداء الحق والمروءة والعزة يحبون الموت كما

الضعف عن حمل أمانات الحضارة

أحب أخلافهم الحياة ، فعاش الأولون مشـكورين وماتو مذكورين . أما هؤلاء فماتوا مدحورين وعاشوا مغمورين منسيين .

فلا شك أن العقيدة الصالحة التى تحيط بها وتحدها التقـوى هى القوة الأولى لبناء المدنية ، وضياعها نذير بدمار المدنية .

ثم لا شك أن الايمان القائم على صورة من العقائد الصالحة للعمران يسير فى ركابه عرف صالح وأدب صالح يستمد سـطوته من العقيـدة والايمان . فهو القوة المنظمة والمخرجة للدور الحاسم فى الحضارة . وقد جرت سنة الله على أن النفوس البشرية يستهويها المتاع والنجاح بما يهيىء لها من خيرات الأرض وطيباتها ، فاذا تهيأت استغنى الانسان عن الكد وطغى وصار الى عاقبة الأمم الأولى .

هل جاء وعد الله ؟

وانه ليحزننا أن يكون ما نرى فى الدنيا نذيرا بأمر الله ! فلا الأمم المتأخرة من المسلمين ، ولا المتقـدمة من المسيحيين واليهود ، على شىء من التقوى . تذبذبت العقائد ، وذهب العرف وساد حب الدنيا ، وعم الترف ، فهل جاء وعد الله ؟ انا لنرجو أن يتدارك الله هذا العمران بقوم خماص البطون يحبون الحق كما يحب المتحضرون المال والمتاع ، ويرثون هذه الحضارة فيضيفون للعلم والعمران ، ويردون الى الدنيا ذلك العقل الضائع والايمان القوى .

وسيجد هؤلاء فى الدعوة المحمدية كما وجد الأولون الروح والعقل والتقوى والهدى . نعم سـيجدون الهدى ذلك الذى هزئت به قريش وقالت « ان نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا » ولما اتبعوه خطفوا من أرضهم لا للهوان ، ولكن لسيادة الدنيا !

نظام جديد للعالم

صوت مع أصوات الدعاة ـ فلنتحرر من النظريات القديمة ـ المدنية فى رأى (كبلنج) ـ وطأة العيش فى عصور الانتقال ـ هل نستطيع وضع نظام المستقبل ؟ ـ ماذا بين أب جاهل وابن عالم ؟ ـ بين جاهل معاصر وجده الفرعونى ـ لنحذر عقوبة الغرور ـ الى نظام سلبى مؤقت ـ لا أمل فى شيوخ الساسة وفى العامة ـ الأمل فى القدرة العليا وفى مرونة الطبيعة الانسانية ـ فلنؤجل النظم المثالية المجردة ـ من تاريخ الاصطدام بين المثل العليا والواقع السىء

صوت مع أصوات الدعاة

سنحاول ما استطعنا أن نجد القواعد التى نظنها صالحة لنظام جديد يرضاه الأفراد والطبقات والأمم غير مقيدين فى رأينا بما يقوله الدعاة فى جوانب العالم ، وعاملين جهد الطاقة على التحرر فيما نبدى من رأى من العصبية لعنصر أو مذهب من مذاهب الاجتماع . فاذا وفقنا ففى هذا كل الخير ، واذا أخفقنا فانا نرجو أن يكون هذا الجهد ضمن الجهود المماثلة التى يستعان بها على الوصول الى الحقيقة والهدى .

فلنتحرر من النظريات القديمة

ولا بد لنا من أن نروض تفكيرنا على التخلص من النظريات القديمة التى كانت فى عهدها حقائق صحيحة ، والتى جعلها تطور الحياة الاجتماعية ، وتقارب الأوطان بتزايد سرعة النقل ضارة بسير المدنية . ولا شك أن العالم يمر فى محنة غير مسبوقة النظير ، فاننا لا نعلم فيما بين أيدينا من تاريخ البشر مثل الذى دهى العالم هذا الجيل . فليست غارات (التتر) التى لا يزال الناس يدركونها قرينة للويل ، شيئا مذكورا بالنسبة الى الدمار والقتل العام التى استطاعته الأسلحة الجوية ، والفناء الذى يستطيعه تسخير العلم الحديث ، فلا بد اذن من نظام جديد لهذا العالم يتداركه من سقطته ودماره .

فما هو النظام ؟ ذلك ما يتساءل الناس عنه فى كل مكان . ولعلنا اذا ابتدأنا بحثنا كما يبتدىء الطبيب بالفحص عن أسباب العلة سلكنا الطريق المستقيم الى تكييفها ثم الى علاجها .

فأول ما يخطر فى البال هو التساؤل : ما الذى جعل مدنيتنا الحديثة مع ما وصل الناس اليه من علم ومعرفة مصحوبة بهذا الشر المستطير ؟ !

المدنية فى رأى كبلنج

يقول كبلنج « ان المدنية هى النقل » وهو قول يستحق التفكير ، فلننظر اليه من هذه الناحية . فكم من القرون قضى الانسان ليتعلم تسخير الحيوان فى النقل ؟ ثم كم من القرون مرت ليكتشف العجلة ويربط بينها وبين الحيوان ، وليشرع للسفينة شراعا ويستخدم الريح ؟ وفى كل هذه القرون كم زادت سرعة حركته ؟ فاذا قسنا ذلك بتسخير البخار فى القطار والسفينة أدركنا المفاجأة التى فوجىء بها العالم حين ظهور المدنية الحالية قبل أقل من قرن . فاذا أضفنا الى ذلك استخدام الكهرباء واكتشاف اللاسلكى والسيطرة على الجو بالطائرات ، ونظرنا الى تطور سرعة النقل فى السنوات العشرين الأخيرة ، أدركنا كذلك ما سيكون من فرق بين مدنية هذا الجيل ومدنية الجيل الآتى .

ان متوسط السرعة قبل مائة سنة لحركة الانسان فى الانتقال من مكان الى مكان لم تزد على ثلاثين ميلا فى اليوم ، ومتوسطها الآن قد وصل الى أكثر من مائتى ميل فى الساعة (١) ، ولا يزال يزداد باطراد .

فاذا كانت المدنية هى النقل كما يقول (كپلنج) ، واذا كانت السرعة هى القياس لما بينها من فروق ، فان ما بين مدنيتنا ومدنية أبنائنا سيكون على هذه النسبة .

فكما فصل البخار العالم القديم من العالم الحالى فسيفصل اللاسلكى ، وكذلك هذه السرعة المتزايدة فى الجو عالمنا من العالم المقبل .

وطأة العيش فى عصور الانتقال

ومن سوء حظ هذا الجيل أن يكون صلة بين عالمين ، وأن يذهب ضحية الانتقال العنيف . وعلى ذلك هل نحن ، أهل هذا الجيل ، حقيقة جديرون أن نضع نظاما عالميا لمن بعدنا ؟ قد يكون النظام الذى يرتضونه بعيدا عن تصورنا بعد نظامنا عما قبل استخدام البخار .

---

(١) زاد فيما بين هذه الطبعة لهذا الكتاب والتى سبقتها مائتى ميل أخرى وذلك فى بضع سنين

هل نستطيع نحن وضع نظام للمستقبل ؟

ومن ناحية أخرى فانا نحن الذين لا نزال نجهل نفوسنا فلا نصرفها ولا نملكها ، ولا نحيط الا بقليل مما أودع فيها من القوى الذهنية والقوى الروحية ، لن نستطيع وضع نظام للعالم وهو ليس من صنعنا ؛ فالانسان فيه حيوان أوتى من القدرة ما يسمح له بالتصرف فى نطاق محدود .

لقد سار العالم آلاف السنين على وتيرة واحدة . كانت الحضـــارة تتقدم ببطء وتنتقل من وطن الى وطن ، وفى كل نقلة تنطوى مئات السنين قبل أن تذبل ، وتنقضى مئات أخرى قبل أن تزدهر فى قوم جدد ، فكان العقل البشرى مستطيعا فى نطاق قدرته أن يسايرها وأن يسيطر الى حــد كبير على مقدرات مدنيتــه فلما تفجرت فجأة ينــابيع العلم الحديث : زلزلت الأرض زلزالها وأخرجت الأرض أثقالها فبهت الانسان وقال مالها !؟

ففى جيل واحد انقلب وجهها ، وتناكر القديم والحديث .

ماذا بين اب جاهل وابن عالم ؟

ولنضرب لذلك مثلا : شيخ فى قرية بجوار (طيبة) فى صعيد مصر يعيش كما عاش آباؤه فى مصر القديمة ، بعث فى أوائل هذا القرن بابنه الى أمريكا فنشأ هناك وتزوج ورجع بأسرته الى قريته ، فوجد أباه حيا يفلح أرضه بمحــراثه الفرعونى ، ويأوى الى بيت لا يزال على طراز العهــد الهكسوسى ، ويفكر كما كانوا يفكرون أيام خــوفو ؛ لا شك أن الابن وأباه حين التقيا تناكرا ؛ فكأنما هبط الابن من كوكب آخر ، فلن يستطيعا أن يتعاشرا ولا أن يتعاونا على شىء ...

بين جاهل معاصر وجده الفرعونى

ولنفرض أن الله بعث فى تلك الساعة أحد سكان (طيبــة) من قبره . بعث شيخ بلد من عهد (رمسيس) من أجدادهما ، ليشهد الحفل العائلى للابن العائد من أمريكا ؛ فهل يجد الناس أن شيخ البلد الذى بعثه الله من قبره بعد غياب ثلاثة آلاف سنة ، أقرب الى شيخ القرية ، أم الى ذلك الابن الذى ولد فى القرن العشرين وغاب ثلاثين سنة فقط ؟

سيجد شهود الحفل أن الجد الفرعونى أقــرب الى قلب الأب وعقله وطراز حياته ، من ذلك المولود فيهم ، القادم عليهم من العالم الجديد .

ثلاثون سنة فعلت بالعائلة البشرية ما لم يفعله ثلاثون قرنا ! وهى لم تفعل ذلك فى مصر وحدها بل فى العالم كله . قرن واحد بدل وجه الأرض كما يبدله الزلزال وفصلنا عن ماضينا بعنف ، وكأنما نقلنا الى كوكب آخر .

واذن : فهل حقيقة نستطيع ، نحن ضحايا هذا الانتقال ، نحن الذين ملكنا الآلة وملكتنا ، وأصبحنا نسيرها الى مجهول وتطوينا فى ثناياها الى مجهول أعظم ، هل نحن حقيقة جديرون بوضع نظام لعالم المستقبل ؟

لنحذر عقوبة الغرور

اذا ظننا ذلك فانى أخشى عقوبة الغرور . وقد يكون من الخير والصواب أن نكتفى فيما نسميه « النظام الجديد » بعمل سلبى ، هو نظام نمتنع فيه بتاتا عن تسليط ما بأيدينا من قوى للتدمير والتخريب ، وعن مضاعفة العوامل التى اضطرب لها وجودنا كله .

الى نظام سلبى مؤقت

يجب أن يكون هدفنا فيما نسميه « النظام الجديد » تخفيف ويلات عهد الانتقال .

لقد شاهدنا الحرب العامة الماضية ، وسمعنا وتحمسنا لأحاديث عن نظم جديدة لعالم جديد . ونحن اليوم نشهد مرة أخرى حربا أعظم وحديثا أشهى ولكن هل بين العقل الذى سيطر على أداة الدمار الماضية أربع سنين ، من ١٩١٤ — ١٩١٨ والعقل الذى سيطر عليها ، أكثر من أربع سنين من ١٩٣٩ — ١٩٤٥ فرق لا هو هو العقل العاجز أسير الماضى والحاضر ، غلبته الآلة والمادة ومدنية النقل المتزايدة السرعة ، فحار فيها وناء بحملها .

أقبلنا شبابا على أقوال عن عالم جديد فتحمسنا لها ، فاذا سمعناها اليوم بعد تجربة ، ملأتنا خوفا وتشاؤما ، لما ظهر لنا من الكذب والعجز .

مشت الحضارة البشرية القديمة فى تطور بطىء مئات القرون فهضمها العقل البشرى ، أما الحضارة الحديثة فستحتاج الى وقت طويل ليهضمها العقل البشرى .

لا أمل فى شيوخ الساسة والعامة الامل فى القدرة العليا وفى مرونة الطبيعة الانسانية

اننى قليل الرجاء فى شيوخ الساسة وفى نضوج العامة لتحمل المسئوليات الجسام المتجددة ، ولكننى عظيم الايمان بالقدرة العليا التى تدير هذا العالم ! ففى الطبيعة نفسها كل الرجاء ، فقد خلق الانسان وفيه من القدرة على الافاقة من الصدمة ، وله من المصانعة والمحاكاة والتطور ما يضمن بقاء النوع واستمرار رقيه ، وسيكتشف الانسان بغريزة حب

البقاء بعد تجارب مروعة قاسية نظاما عالميا مناسبا متجددا يساير العصر الآلى ، عصر السرعة المتزايدة ، أقول نظاما مناسبا متجددا ؛ اذ ليس من الصواب فى شيء أن نحاول املاء نظام كامل ثابت لا يتغير ، فالأشكال والأوضاع والمستحدثات كلها تحمل فى طبيعتها التغير بل الزوال والفناء .

وأكثر ما يقع فيه الانسان من كوارث هو عقوبة الغرور والجهل ، وأكثر ما يصيبه من شر هو رد الفعل لافترائه وادعائه .

فلنؤجل النظم المثالية المجردة

فاذا حاولنا أن نعطى الناس نظاما عالميا مثاليا ، وتجاهلنا غرائز حب الظهور والسيطرة والتعالى ، مما هو كامن فى صميم النفس الانسانية ، فاننا نحاول اقامة هذا النظام على بركان من الغرائز الحيوانية المتفجرة الجامحة . واذا فكل نظام عالمى لا يرضى الغرائز البشرية ، ولا يعين على توجيه الدوافع الانسانية ، هو نظام تقضى عليه الغرائز نفسها ، أو تتخذه وسيلة لاشباع شهواتها ؛ فمن شأن الطبيعة الانسانية أن تقلب كل نظام مثالى وأن تكيفه ، والا أصبح بالنسبة لها نظاما لا تطيقه .

من تاريخ الاصطدام بين المثل العليا والواقع السيىء

وليس أدل على ذلك من تاريخ المذاهب والأديان الداعية الى فلسفة سامية . خذ مثلا دعوتين بينهما ألفا سنة : المسيحية والشيوعية ، فماذا صنعت بهما غرائز الانسان الفطرية الحيوانية ؟ ألم ترد كل دعوة منها أن ترسم نظاما مثاليا ساميا ؟ فماذا بقى من المثل الأعلى فيهما ؟ بقيت تلك المأساة التاريخية الطويلة ! فقد سفكت باسم المسيحية وفى سبيل المسيحية التى تحرم الحرب دماء أغزر مما سفك فى سبيل أية دعوة هى وكر الحروب والدمار على طول الألف الأخيرة من السنين .

ماذا بقى من وصايا المسيح الجميلة الرحيمة المتواضعة ؟ ألم تصنعها غرائز الغلب والقهر والزهو والاستعلاء صنعها ، وتستخدمها فى اشباع النوازع البشرية ؟

كذلك الدعوة الشيوعية ليست حديثة ، فهى أخت (المزدكية) الفارسية ونسخة منها ، دمرت المزدكية فارس فيما مضى ، وسفك فى سبيل الشيوعية الحديثة من الدماء ما لم يسفك من قبل فى سبيل النهب والسلب فى قوم من الأقوام ، ومع ذلك فماذا يبقى من الشيوعية المثالية ؟

. الظاهر أن النظام المثالى الكامل خيال فى هذه الدنيا ، فان الطبيعة البشرية تأباه . فهل يحسن بنا أن نجرى وراءه أو نلح فى طلبه ؟ أم الأولى بنا أن نقنع بنظام دنيوى يؤدى بين الطوائف والشعوب وظيفة أشبه بوظيفة القانون العادى بين الأفراد ، فيقتص من أطراف الشر ، ويديم السلم ، ويحصر أذى الحرب ، ويوجه الغرائز وجهة ترضاها ، فتشبع شهواتها من غير طريق العدوان ؟ نظام ييسر للجميع العيش ، وتسنده المصلحة المشتركة للفرد والجماعة والشعوب فى عالم جعل منه النقل السريع وطنا واحدا .

وبعبارة أخرى : نظام هو مجموعة قواعد عامة تصبح عرفا عاما يرضاه الناس ولا يعصونه .

الواجب قبل الحق

شغل المفكرين فى العالم — جمعية انجليزية تضع دستورا لحقوق الانسان — استفتاء عظيمين من مفكرى الشرق — رأى غاندى — غضب ويلز على غاندى — رأى نهرو — مع رأى غاندى — فلنجرب طريقة غاندى — طريقة مجربة فى الاصلاح — تحويل التصور البشرى — اعلاء الغرائز وتحويلها — تربية يطرد بها روح الأديان

شغل المفكرين فى العالم

قبل انتهاء الحرب الأخيرة وبعدها ، بل وقبل نشوبها ، أقبل كثيرون من المفكرين المخلصين فى العالم ، فرادى وجماعات ، على التفكير فى نظام يرضاه الناس وينقذهم من مآسيهم وآلامهم التى أوقعتهم فيها أسباب الاضطراب العالمى التى استعرضناها فى الباب السابق .

جمعية انجليزية تضع دستورا لحقوق الانسان

ومن بين الجماعات الكبيرة التى اهتمت بذلك جماعة تألفت من أهل الفضل فى (لندرة) يرأسها المحامى الشهير (اللورد سنكى) ويقوم بدعوتها الكاتب المعروف (هـ . ج . ويلز) .

وقد وضعت هذه الجماعة بعد مناقشات ومكاتبات مشروعا أعلنت فيه حقوق الانسان ، واقترحت أن يكون دستور العالم بعد الحرب الأخيرة .

وقد تضمن هذا الدستور احدى عشرة مادة ، وهى فى نظر الجماعة حقوق الانسان التى يجب أن لا تعترضها شريعة ولا عرف ولا أى نظام محلى لقبيلة من القبائل أو شعب من الشعوب ، فهى القانون الأساسى الذى يجب كل تشريع مخالف له .

وأهم هذه المواد يتعلق بحرمة الملك ، وحق التعلم ، وحرية العقيدة ، والحرية الشخصية ، وحق العمل ، وحق القاصر فى حماية الجماعة ، الخ ..

استفتاء عظيمين من مفكرى الشرق

وقد بعثت هذه الجماعة بمشروعها لرجلين عظيمين من مفكرى الشرق : هما المهاتما (غاندى) والزعيم الهندى (جواهر لال نهرو) تسأل رأيهما ، فأجاب غاندى بما يأتى ، قال :

« ما هى النتيجة العملية لاعلان هذه الحقوق ؟ ومن ذا الذى يرعاها ويحرسها ؟ وسواء أكنتم تقصدون الى الدعاية وحدها أم الى تنـوير الرأى العام العالمى فقد ابتدأتم من الظرف المخطىء ، وانى أقترح عليكم وأرى أن الصواب هو فى أن تبتدئوا باعلان « واجبات الانسـان » . ولا شك عندئذ أن الحقوق ستتبع كما يتبع الربيع الشتاء .

رأى غاندى

انى أكتب اليكم عن تجربة وخبرة ، فقد بدأت حياتى مهتما بحقوقى وكان جهدى منصرفا لتقريرها والحصول عليها ، وسرعان ما أدركت أن لا حق لى حتى قبل زوجتى . فأخذت أنظر فى واجباتى وما على قبـل زوجتى وولدى واخوانى والمجتمع فأديتها ، وأنا اليوم أجد نفسى ولى من الحقوق ما ليس لرجل آخر أعرفه فى هذا العالم » .

وقد أثار جواب غاندى غضب (ويلز) فحمـل عليه حملة منكرة ، وعده اباء منه للتعاون ، وتمشيا مع مذهبه السلبى ، واتهم غاندى بالتأخر وبعدم ادراك ضرورة العصر .

ولكن هل أنصف ويلز غاندى ؟ ثم أليس فى كلام غاندى ما يستحق النظر والتفكير ؟ ذلك ما سنبحثه .

رأى نهرو

أما (جواهر لال نهرو) فقد أرضى جوابه ويلز ، فقال عنه : انه عملى وانه يستحق عظيم الاهتمام ولو أنه خالفه فى أمور غير جوهرية .

يقول نهرو : « سمع الناس كثيرا مع الاعجاب مواثيق وبيانات أعلنت حقوق الانسان وانتهت الى لا شىء ، وأحقها بالذكر ميثاق (بريان — كيلوج) الذى حرم الحرب » .

ولقد نظرنا فى بيانكم عن حقوق الانسان فأزعجنى أن لا أجد فيه ما يهدى الى كيفية تحقيقه .

أنا لا أقصد التفاصيل ، بل أقصد الأصول التى يقام على قواعدها العالم اجتماعيا واقتصاديا واذا كان من الحق ، وهو عندى الحق ، أن مآسى العالم الحالية ترجع قبـل كل شىء الى فسـاد نظامه السـياسى

والاقتصادى ، فلا بد من تغيير هذا النظام كى يستطاع تطبيق ما تريدونه من الحقوق التى أعلنتموها .

ان بيانكم ، يا مستر ويلز ، ليس قابلا للتحقيق بحال من الأحوال ما دام النظام الاستعمارى والرأسمالى يسود ان العالم . تقولون ان لكل انسان كذا وكذا من الحقوق ، وهو كذلك ، ولكن أنى لهذا الانسان أن يصل الى حقوقه تحت النظام الرأسمالى ؟ ثم أنى له أن يتمتع بشىء منها ما دامت أمة أو طبقة تسيطر على أخرى وتسخرها ؟ ان الطريق الى الخلاص هو الاشتراكية ، وأن يقوم النظام العالمى الجديد على أصولها

ذلك هو جواب (جواهر لال نهرو) وهو من الشخصيات العالمية المحترمة وسنعود الى ما يشكو منه فى الفصل المقبل . أما جواب غاندى فانه كما قلت ، رغم اعتراضات ويلز ، يستحق النظر والتفكير .

مع رأى غاندى

فحقوق الانسان كثيرا ما أعلنت ، وكثيرا ما انتهكت وما دام الأقوياء لا يرتدعون بداع من التربية والعرف والوجدان ، فانها تبقى حيث هى غير قابلة للتحقيق .

فلنجرب طريقة غاندى

ويصح لنا أن نجرب تربية جديدة وطريقة جديدة ، فنتخذ الواجبات أساس النظام الجديد ، فبدل أن نحاول المساواة بين الناس فى الحقوق ، نقيم هذه المساواة على أساس الواجب ، فربما كان ذلك أفعل فى رد العدوان وفى احترام حق الغير .

فلو أنا عودنا الناس بالتربية اكرام القائم على واجبه أكثر من المطالب بحقه لجعلنا الواجب مصدر العلاقات الأدبية والاجتماعية وأنشأنا نظاما جديدا لعالم أحسن من عالمنا الحالى ، لأن التربية التى تجعل القيام على الواجب غاية الانسان الراقى ، تنتهى باحترام حق الغير احتراما أحفظ وأنفع للحقوق من كل قوة تستخدم لكسبها أو المحافظة عليها

طريقة مجربة فى الاصلاح

ولعل هذه الطريقة فى التربية هى التى تتناسب مع تاريخ الاصلاح البشرى ، ففى طريقة الأنبياء والمصلحين الذين وجهوا هممهم الى تعريف

الناس بواجباتهم فليس من المتعسر الرجوع اليها ولا خلق ذهنية جديدة أساسها فضل من يؤدون واجبهم على سائر الناس .

حرم الأنبياء القتل والسرقة والغدر والكذب ، فشرعوا بذلك واجبات أساسها النهى . فاذا أخذنا فى التعرف الى ما نحرمه على أنفسنا ، وجعلنا هذه الحرمة عامة ودولية ، كان ذلك عملا ايجابيا حاسما فى سبيل اقامة نظام جديد ، ولو كان ظاهره دعوة سلبية أساسها النهى والتزام الواجب .

فمثلا لو أن الناس أدبوا وعلموا أن لا يفرقوا بين القتل والقتال ، لأن الواجب يحتم على الانسان المهذب المحترم أن يمتنع من ازهاق أرواح الناس لغير جريمة ارتكبوها ، وبغير قانون وقاض يقضى فيها ، ولو صار الامتناع عن القتل فى الحرب كالامتناع عن القتل فى غير الحرب واجبا ، من يتعداه يعتبر مجرما ، لكانت هذه التربية وهذا الأدب والعرف أفعل فى منع الحروب من كل المواثيق والنظم .

ولو سادت هذه التربية لكانت وظيفة الجندى على أحسن صورها كوظيفة الجلاد فى نظر العامة سواء بسواء .

تحويل التصور البشرى

نعم ان تحويل التصور البشرى للأمور عمل شاق ، ولكن ألم يتبدل فى جيل أو جيلين تصور الناس لأمور كثيرة تبدلا تاما ؟ فلم لا يستطاع بالتربية والتدريب خلق عرف عام عالمى أساسه حرمة الواجب فى كل الأحوال والظروف ؟ .

ولعله من المتيسر أن نوجه الغرائز البشرية التى نشكو منها فى افساد النظم المثالية وجهة الفخر بأداء الواجب .

فالانسان يزهو بانقاذ غريق أو التعرض للخطر فى اطفاء حريق فاذا صار العرف أن هذا العمل هو الذى تستحق عليه أعظم ألقاب الشرف ، وأن الامتناع عن الأذى والاستشهاد فى ذلك هو البطولة الكاملة ، لاستخدمنا غرائز الاستعلاء والظهور فى الخير العام .

ولم لا يخلد ذكر الذين ظهرت آيات مروءتهم فى تأدية واجبهم بدل الذين ظهرت قدرتهم على الافتراس والفتك بالغير ؟ فقد نصل عن طريق

تعليم الواجب وتقديسه الى اقامة صرح الحق وتخليده ، ونكون قد اصطلحنا مع الغرائز الفطرية ، فنعدل عن كبتها واستفزازها الى توجيهها واستخدامها فى تدعيم النظام الجديد .

ولا أظن أحدا من جيلنا الذين شهدوا هذه الحرب والتى قبلها يمكنه أن يتصور نظاما جديدا يستحق البقاء لا يحرم الحرب تحريما باتا .. فهل لذلك من سبيل أصلح من سبيل الأنبياء : سبيل التحريم عن طريق تعليم الواجب ؟

فاذا لم نعلم الناس وتربهم على احتقار القتال احتقارهم القتل ، فأنى لنا أن نكفل السلم بتجريد أمم من السلاح أو وضع أمم مسلحة حراسا عليه اذا لم تكفل ذلك التربية التى أساسها تقديس الواجب ..

اعلاء الغرائز وتحويلها

ليست هذه التربية مستحيلة ولا هى خيالا ؛ فان فى حياتنا الأولية كثيرا من الفخر بضبط النفس والحرمان ، وتاريخ المروءة تاريخ طويل يكاد يلازم الناس فى كل جيل ، وهذه المروءة بما تنطوى عليه من نكران الذات تعلمها الناس بالاجتماع وبالدين ، فصارت فطرية لأن الغرائز التى ترضيها المروءة هى ذات الغرائز التى يرضيها العدوان ..

فحين كان فخر الناس بالكرم ، كان اشباع غريزة حب الظهور فى الذل والعطاء ، ولما صار فخرهم بالأثاث والسيارات والمقتنيات ، صار على السلم ؟ ومن ذا الذى يضمن أن لا يقتتل الحراس طمعا فيما ائتمنوا اشباع هذه الشهوة بالأثرة والأنانية ..

ولو علمنا أولادنا أن زهوهم واعجابهم ليس فى أن يلبسوا ثوبا جديدا فى العيد ، حين لا يجد أولاد عمومتهم أو جيرانهم ثوبا مثله ، وعودناهم أن زهوهم وظهورهم فى أن يمتنعوا مختارين عن لبسه تأسيا بأهلهم ، فان غريزة حب الظهور تتدرب على اشباع غرضها بالامتناع وتجد حظها فى أداء الواجب ..

ولن يكون هذا جديدا فى حياة الانسان ، لأنه يتناسب مع روح الأديان التى سيطرت على تاريخ البشرية الطويل .

ان فطرة الناس واحدة ومظاهرها متعددة ، فالنفس البشرية تتكيف حسب مقتضيات التربية والعرف العام لترضى الكمين من الغرائز فيها . ولا سبيل لانكار الغرائز الفطرية لمن يفكرون فى تنظيم العالم . ونهج الأنبياء الذين وجهوا الغرائز وجهة ترضى المروءة والمصلحة العامة ، النهج المستقيم فاذا نحن اليوم بدل أن نعلن حقوق الانسان ، أعلنا واجباته ، الى نظام صالح جديد . وليكن القانون الأساسى لهذا النظام متضمنا واجبات الانسان نحو أهل بيته وجيرانه ووطنه وجنسه والمخلوقات الأخرى وقد يكون ذلك أبقى للعرف العام ، وأثبت على ممر الأيام .

علل النظام الحالي

اجماع على فساد الرأسمالية الحالية ــ خطر راسمالية الآلات بركات كثيرة اللعنات ــ مادية لا سند لها من الروح ــ مشكلة التعطل فى الأمم الراسمالية ــ رجال الكنيسة الانجيلية يتحولون الى اليسار ــ الى التوازن الاسلامى ــ الاستعمار الحديث ــ ويلات عالمية ــ شاهد منهم ــ شاهد من العالم الجديد

اجماع على فساد الرأسمالية الحالية

يقول (نهرو) : ان سبب فساد العالم يرجع فى معظمه الى فساد نظامه الاقتصادى والسياسى الحالى ، وانه لا سبيل الى الاصلاح ما دامت الرأسمالية تسخر طبقة لطبقة ، والاستعمار يسخر أمة لأمة .

وقد وافقه (ويلز) ، وأظن أن أكثر المفكرين اليوم على هذا الرأى . فالرأسمالية رغم أنها كلمة استعملت حتى ابتذلت ، لا تزال تعبر عن نظام يقوم على الربا ويهدى الى الترف والاسراف .

وهى وان كانت باستنادها الى حقوق الملكية الفردية قديمة العهد ، فانها تتكىء اليوم على ملكية الآلة للعمل .

وهى بالانقلاب الصناعى الكبير الذى نشأ عن استخدام البخار والكهرباء حديثة بعيدة الغور فى حياة الانسان ونظام المجتمع . بل تكاد الرأسمالية الحديثة تكون شيئا آخر غير نظام الملكية القديمة فى آثارها ومظاهرها ، والى هذه الرأسمالية ينسب الاشتراكيون كل مساوىء النظام العالمى الحالى ويعدون البطالة والبؤس والترف والاسراف من مظالمها .

خطر رأسمالية الآلة

لا شك أن ملكية الآلة ، وحسن استخدامها ، ودوام التحسين فى انتاجها ، كل ذلك يعمل باستمرار للاستغناء عن عمل الصانع والزارع .

الآلات بركات كثيرة اللعنات

فبدل أن تكون وفرة الانتاج وسهولته بركة من بركات عصر البخار والكهرباء ، وبدل أن يكون استخدام الآلة والقوة سببا فى بهجة الحياة والسعة فى أوقات الفراغ ، انقلب الخير فى ظل النظام الاقتصادى الحديث الى شر مستطير ، وحرم الكادحون من رأس مالهم وهو العمل والجزاء

المناسب له ، واختص (المولون) بجهد محدود وثمرات وفيرة ، فارتفعوا فيه الى مستوى الأمراء فى عهد الاقطاعى ، وسارت الكثرة تنظر الى مباهج الحياة ولا تشترك فيها ، بل فقدت طوائف المتعطلين والذين على حافة التعطل هناءة العيش وهناءة الايمان ، فى ضوضاء الآلة ، وكان الدين من قبل يمد المعوزين بالسلوى والعوض فى الدار الأخرى ، أما الآن فقد ضعفت سيطرة الدين وذهب مدده من العزاء .

مادية لا سند لها من الروح

نعم كانت الأديان تخفف من آثار الملكية بدعوتها القوية الى الزهد واشتراك المحرومين فى ثمرات الكسب بقوة القانون ، كما فعلت الديانة المحمدية ، أو بتحريم ملكوت السماء على الأغنياء كما فعلت المسيحية .

مشكلة التعطل فى الأمم الراسمالية

وكأنما النظام الرأسمالى الحديث ، وقد سلب السند المعنوى والروحى ، يتجه بعنف نحو الأثرة والاستزادة من الترف والاسراف ، فيقذف بلا رحمة فى هاوية التعطل فريقا ، ويسخر فريقا آخر . وليس أدلى على ما وصل اليه الخطر من أن المتعطلين فى بريطانيا قد تجاوزوا قبل الحرب عدة ملايين ، وبريطانيا هذه هى سوق الأموال فى العالم ومن أهم مراكزه الصناعية ، وتنفرد فوق ذلك بملك لم يؤته بلد فى العالم ، تجبى اليها الأموال من القارات الخمس ومن الأبيض والأسود والأصفر .

رجال الكنيسة الانجيلية يتحولون الى اليسار

بريطانيا المحسودة تنوء بعبء النظام الاقتصادى الرأسمالى ! وليس أدل كذلك على تداعى هذا النظام من أن قادة الكنيسة الذين ظلوا سند العناصر المحافظة جيلا بعد جيل أخذوا يتحولون من اليمين الى اليسار يتقون أن يغمرهم سيل الفتنة كما غمر رجال الكنيسة الروسية ، فنزعوا الى التأويل أو رجعوا الى المسيحية الأولى .

وآخر ما علمنا فى هذا الشأن قرار مؤتمر ملفرن Melvern للكنيسة الانجيلية ، وهى قرارات لو نشرت فى أول هذا القرن لظن أنها مما أوحى به (كارل ماركس) أو بعض تلاميذه ... وكما أن هذا دليل على اتجاه الأفكار فانه كذلك دليل على حصافة رجال الكنيسة فى الغرب وانا لنرجو أن يتعظ العلماء وقادة الرأى فى البلاد الاسلامية ، فان شريعتهم هى الشريعة التى وفقت كل التوفيق فى تناولها هذه المشكلة المعقدة .

الى التوازن الاسلامى

فلا بد للمسلمين الذين اندفعوا على غير هدى الى تقليد الغرب من الرجوع الى الاخاء والزكاة والتوازن بين الطبقات ، ذلك التوازن الذى أقامته شريعتهم على أساس أن البر حق معلوم فى أموال الأغنياء ، وعلى ترجيح المصلحة العامة على المصلحة الخاصة ، وعلى مسئولية الامام وسلطته الواسعة فى النظر الى حاجات المسلمين . وليس المقام مقام استرسال فى نواحى الشكوى من النظام الحالى ، فالصيحة تتردد من أوائل هذا القرن فى جوانب العالم كله ، والفتن يأخذ بعضها برقاب بعض ، فلا بد اذا من نظام اقتصادى جديد يحل محل النظام الحالى .

الاستعمار الحديث

ولنرجع النظر الى العنصر الثانى لفساد المجتمع الحالى فى رأى (نهرو) وهو الاستعمار ، واذا كانت الرأسمالية قديمة ولها من الألفة بها سند ، فان الاستعمار حديث ، والفطرة تأباه وتبغضه ، وقد عملت كل الأمم فى كل العصور للخلاص من سيطرة الأجنبى .

واذا قلنا ان الاستعمار حادث فليس معنى ذلك أن الناس والملوك لم تتقاتل على الأرض وملكيتها ، أو على الملك وسعته ، فذلك قديم ، وانما الجديد فى الأمر هو ذلك الطغيان العام باسم التمدين ، وقوامه الأمم الأوربية على العناصر الملونة كما يقولون .

سادت الأقوام الأوربية الأصل الدنيا ، وأصبحت الكرة الأرضية كلها فى متناول الاستعمار الحديث بتطور وسائل النقل والسرعة .

وكان فيما مضى زحف (تحتمس) من النيل للفرات غير مسبوق ، وسير الاسكندر من الفرات الى السند أعجوبة التاريخ . كانت شرور الفتح والنهب محدودة وطرائق الأثرة والاستغلال أولية .

ويلات عالمية

أما اليوم فويلات الاستعمار عالمية وآثارها تشمل الكرة الأرضية . وقد أنصف كثير من الكتاب الغربيين أهل الشرق المغلوبين ، ورثوا لحالهم قبل الحرب الماضية ، ولعلهم اليوم يرثون لما أصاب الغازين أنفسهم فهم يستحقون كذلك الرثاء .

شاهد حق

قال الكاتب الانجليزى المشهور (سدنى لو) سنة ١٩١٢ يصف

الاستعمار : « ما أشبه غالب الدول الأوربية فى سلوكها هذا الذى ما برحت تسلكه منذ عدة سنوات ازاء الأمم الشرقية بعصابة من اللصوص يهبطون على المحال الآمنة فيثخنون فيها ، ثم ينقلبون بالغنائم والأسلاب . وما بال هذه الدول الغربية بعملها هذا مؤيدة للدعوى الباطلة بأن القوى الشاكى السلاح يحق له الانقضاض على الضعيف الأعزل ، وآتية بالبرهان القاطع على أن مكارم الأخلاق والآداب الاجتماعية لا شأن لها البتة حيال القوة المسلحة ! ففى خلال عشرين سنة ثارت ثائرة الاستعمار فى أوربا ، وهبت عواصف الحضارة المادية الهوجاء فقوضت الآداب والحقوق الدولية تقويضا » .

ذلك ما قاله (سدنى‌لو) قبل الحرب العالمية الماضية ، وقد توالت حملات الاستعمار على العالم الشرقى آخذا بعضها برقاب بعض .

لو أن (لو) كتب فى الاستعمار بعد الحربين العالميتين لكان رثاؤه للستعمرين الغربيين أكثر من رثائه للمغلوبين الشرقيين .

شاهد من العالم الجديد

وقد دافع كذلك عن الشرقيين بعد الحرب العامة الأولى الكاتب الأمريكى (لوثروب ستودارد) فى كتابه « حاضر العالم الاسلامى » (١) بهذه العبارة : « ان مبادىء الحرية التى سادت فى العرب ونودى بها غالب القرن التاسع عشر قد هبت عليها ريح هوجاء من المطامع السياسية والاقتصادية فمزقتها شر ممزق ، وبددت صورها كل مبدد ، اذ أخذ التزاحم يشتد والتنازع يوغر قلوب الدول الغربية ، حتى طفح الكيل فاشتعلت الحرب الكونية العظمى . واشتد نهم أوربا وجشعها للتوسع فى الفتح والاستعمار ومناطق السيطرة ونيل الامتيازات واحتياز الأسواق الاقتصادية اشتدادا وحشيا غير مسبوق المثيل » .

فلو أن (ستودارد) كتب بعد أن وقعت الحرب العامة الثانية وشهد ويلاتها ، أما كان يرثى هو أيضا للغالبين كما رثى لحال المغلوبين ؟

---

(١) عربه الأستاذ عجاج نويهض ، وعلق عليه تعليقات مستفيضة الأمير شكيب أرسلان رحمه الله .

ان السيطرة الاستعمارية على العالم باسم الحضارة انما تسعى لاشباع شهوات الرأسمالية الحديثة فى الأســواق والمواد الخامة . وقد وضعت الرأسمالية والاستعمار متساندين أسس هذا الاضطراب العالمى الذى قد يقضى على الحضارة كلها .

فلا بد اذا من نظام اقتصادى وسياسى جديد .

وحين يقول (نهرو) ويوافقه (ويلز) ان النظام القائم على الرأسمالية والاستعمار الذى يعيش فى ظل سيطرة طبقة على طبقــة ، وأمة على أمة ليس نظاما صالحا للبقاء لا يجدان من العقلاء من يخالفهما ، وانمــا يأتى الخلاف حين يقترح العلاج .

مقترحـــات

البدء بتقرير قواعد بسيطة ـ يجب تطور الرأسمالية والاستعمار ـ عالم واحد لا تتجزأ السلم فيه ـ هيئـــة عليا عالمية لقيادة مشتركة ـ التدرج الى حكومة عالمية ـ البدء فى قلوب الطفولة ـ من التربية القومية الى التربية العالمية ـ التدريب على الغضب للمصلحة العالميـــة ـ فلنتعهد النواة الصالحة فى « هيئة الامم المتحدة » .

البدء بتقرير قواعد بسيطة

مما تقدم يتضح أن رسم نظام كامل لحياة عالمية سعيدة ، أو وضـــع تفصيلات لنواحى هذا النظام ، ليس من شأنه أن يعين على قبوله أو كماله ، فنحن لذلك أميل الى البدء بتقرير أسس وقواعد بسيطة يقوم بعضها على « الامتناع » ومعرفة الواجب وأدائه .

تطور الرأسمالية والاستعمار واجب

وقد وضح كذلك أن النظم المؤيدة للاستعمار والرأسمالية الحديثة قد تطورت من القرن التاسع عشر الى القرن العشرين بكيفية أحدثت أثرا بالغا فى تقسيم الناس الى أمم مسيطرة مستغلة ، وأمم مغلوبة مســـلوبة ، كما فرقت الجماعات فى هذه الأمم الغالبة والمغلوبة الى طوائف وطبقات حاقدة متعادية ، وقد أدت هـــذه النظم دورها فى تجارب البشر ، ولابد لها من التطور لمسايرة عهد السرعة والانتاج الآلى .

فهـــذا التطور من شأنه أن يمهد السبيل لعهد جديد أساسه الاخاء العام ، وهدفه التعاون على الخير والبر .



عالم واحـد لا تتجزأ السلم فيـــه

وعالمنا الجديد ، وقد أصبح فى حيز الامكان الطواف حوله كله فى يوم أو ليلة ، واتصـــلت أطرافه باللاســـلكى والراديو فى لحظة ، عالم واحد لاتتجزأ السلم فيه ، ولا سبيل لسعادة قوم منه على بؤس الآخرين ، ولابد له أن ينتهى الى قبول هيئة عليا لقيادة مشتركة كما قبلت الشعوب هيئات منها لقيادتها ، فتولد عندئذ الحكومة العالمية التى نرى فوائدها فى نظام « الأمم المتحدة » ، فتكون لها سلطات تنفيذية وتشريعية وقضـــائية يقر

هيئة عليا عالمية لقيادة مشتركة

الناس شرعيتها كما يقرون شرعية حكوماتهم القومية ، ويدينون لها بولاء مماثل لولائهم لدولهم .

التدرج الى حكومة عالمية

هذه الهيئة العالميـة التى تندرج الى مقام الحكومة العالمية تقوم على أصول قليلة عامة تستضىء بها فى رسم الخطط العامة لسياسة الدنيا على أن تكون هـذه القواعد العامة بسيطة ومقبولة بالفطرة من الناس على مختلف أجناسهم وألوانهم وعقائدهم .

فمثلا تكون مبادىء المساواة والاخاء بعض قواعدها ، فيكون ما ترسم للناس مقيدا بحقوق المساواة وحقوق الاخاء .

ومثلا يكون فيهـا حق العيش وتأمين الحاجة حقا طبيعيا يهدف اليه الجميع ، كحق الأمن يسعى للمحافظة عليه الجميع ، فيكون اطعام الناس ، وتأمينهم من الخوف واجبا على كل الناس .

البدء فى قلوب الطفولة

مثل هـذه القواعد الفطرية ، اذا درب الناس على تقديسها تقديسهم لأديانهم وأوطانهم ، ولقنوها فى طفولتهم وهم فى أحضـان أمهاتهم وحين تنشئتهم فى المدارس ، تنتهى حتما الى اقامة صرح نظام عالمى عليها ، موطد القواعد ثابت الأركان .

من التربية القومية الى التربية العالمية

واذا اتفقت جميع الدول فى (هيئة الأمم المتحدة) على برنامج للتعليم والتثقيف العام والدعوة ، وجدت كل دولة فى بث هذه الأفكار فى نفوس الشعوب الخاضعة لسلطانها ، مكن ذلك (الأمم المتحدة) من التطور الى الهيئة العالمية التى نرجو أن يدين لها الناس بالولاء والطاعة .

ان أثر الدعوات الانسـانية وأثر التربيـة واضح فى تاريخ البشر وضوحا حاسما ومؤثرا فى حياتهم ، فالدعوات الدينية التى غالبت الدهر وعاشت القـرون واستمرت تفعل فعلهـا فى نفوس الناس وفى تكوين الهيئة الاجتماعيـة ، شاهد على قابلية البشر لقبول الدعوات الانسـانية السامية للتآخى والتعاون ، وان ما حرمته هذه الدعوات استقرت حرمته

فى نفوس الناس ، فكبحت من جموحهم ومن شهواتهم ، وحولت الدوافع والغرائز لتتخذ لمظاهرها أشكالا وألوانا أخرى . فاذا دعونا الى تحريم الحرب وتمكنت هذه الدعوة من النفوس ، استحال تسيير الجيوش للقتال الا بقدر ما يحدث من الشذوذ ضد ارادة المجتمع ، من تكوين عصابات من القتلة للسلب ، ويصبح الوجدان الانسانى أشد نفورا فى التوجه بالأذى والقتل الى شخص مجهول له ، أكثر من شعور الفرد العادى حين يهم بجريمة القتل ضد أحد المارة .

وهكذا اذا عودنا الناس أن استغلال الآخرين لمصلحتهم ، واستخدام الجاه أو النفوذ أو الحيلة للمنفعة الذاتية يعتبر عملا من أعمال السرقة ، فان الوجدان البشرى ينتهى الى اعتبار هذا الاستغلال بأنواعه اجراما ، كما يعتبر السارق الذى يستخدم قوته أو حيلته للسرقة مجرما .

فعلى الدعوة والتربية العامة التى تجعل الناس ينظرون الى هذه المبادىء البشرية نظرتهم الى القواعد التى تعارفوا عليها بالنسبة لأنفسهم كأفراد فى أسرة أو وطن ، يتوقف تمهيد السبيل للنظام العالمى الجديد الذى لا بد منه لتطور الحضارة ، ولاجتناب الفناء الذى هيأت أسبابه سيطرة الانسان المتزايدة على المادة ، وعلى مجرى الأمور فى سلم المجتمع العالمى .



التدريب على الغضب للمصلحة العالمية

ويجب أن يعلم الناس الغضب لأشياء عامة ، وفى المصلحة البشرية كما علموا الغضب لأوطانهم وعقائدهم الدينية ، فتكون غيرتهم وانفعالهم للعدوان على حقوق الغير ، أو للتقصير فى عمل الواجب نحو الناس كافة ، موجهة بالغريزة كتوجهها فى الماضى للدفاع عن حق الأسرة وشرفها .



فلنتعهد النواة الصالحة فى هيئة الامم المتحدة

وأخيرا ان وجود « هيئة الأمم المتحدة » فى شكلها الحالى ، ورغم المؤثرات التى رافقت ميلادها يفسح المجال لآمال كبيرة فى الاتجاه الذى نشير اليه ؛ فهى نواة صالحة اذا تعهدت بالاحترام والثقة فيها ، وأدركت الدول أنه لا سبيل الى التخلى عنها ، بل اتخذتها محكمتها

ومرجعها فى كل نزاع ؛ حتى يشعر الناس تدريجيا بضرورتها لسلامة عيشهم وأمنهم ، فيضحوا عن طيب خاطر فى سبيل استمرارها وقدرتها ، كثيرا من حقوق السيادة التى أظهرت الدول فيما مضى غيرة قوية على التمسك بها . بل قد يأتى اليوم الذى تضع فيه الدولة من الدول سيادتها وسلطانها تحت تصرف هيئة الأمم المتحدة ، لضمان أمنها أو يسرها ، أو للتغلب على معضلاتها الاقتصادية .

فعلينا فى سبيل هذه الغاية النبيلة أن نصبر ونصابر ونصمم .

ولنحذر اليأس ، ولنتعلق بأهداب السعى المتواصل لتمكين « الأمم المتحدة » من سد هذا الفراغ فى حياة العالم الجديد (١) .

---

(١) كتب هذا الحديث السابق عن (الامم المتحدة) فى الطبعة الاولى لهذا الكتاب فى أول نشأتها سنة ١٩٤٥ فانقضى الآن نحو عشرين عاما ولا زلت عند رأيى فى الصبر والمثابرة والمحافظة على هذه الهيئة كرقيب على السلام ومرجع عال للبشرية ، رغم ماظهر من أن الانسان لا يزال ، مع دروس الحرب الاخيرة وخطر الهلاك المنتظر ، تعميه مصالحه الذاتية ، أو بالاحرى ما يظنه مصلحته ، عن الهدى .

وقد اتخذت الامم الكبيرة وبعض الطوائف ذات النظم الدولية هذه الهيئة العالمية ميدانا للدعاية ، أو سبيلا لتحقيق آمال وأحلام ومقتضيات سخط تاريخى ، أو لاعلاء دعوى الشيوعية على دعاوى الديمقراطية ، أو تغليب نظام على نظام دون استعداد للنظر فى الامور من وجهتها الموضوعية ومحاولة علاجها على هذا الاساس تحت تأثير عامل مشترك هو الخوف على الحضارة ، والرغبة الخالصة فى الانتقال بالعالم الى حال جديدة تستبعد استخدام العنف والحرب كوسيلة لتسوية المشكلات .

لم تتقدم (الامم المتحدة) فى سبيل الهيئة العالمية المرضية الحكومة كما كان منتظرا . وواضح أن الشيوعية من ناحية والاستعمار من ناحية أخرى ، والآمال الكاذبة للصهيونية العالمية التى أكملت خديعة يهود العالم حين انتصرت على العرب فى ساحة صغيرة وفى ظرف موات لها ، فاستطاعت أن تشرد مليونا من العرب لتحل محله مليونا من اليهود ينتهى أمرهم الى نفس البؤس الذى صار اليه العرب يوما ما ، فتكون قد نجحت فقط فى الاساءة الى العرب والى اليهود . هذه الصهيونية كأنصار الشيوعية وأنصار الاستعمار هى القوى الثلاث التى أثرت فى توجيه (الامم المتحدة) وجهة أبعدتها عن نزاهة القصد ، وزعزت ثقة الاقوام فيها .

(٦)

فى النظام الأساسى للدولة الإسلامية

بعض أسس الدولة الإسلامية

الإمامة الشورى السيادة

دلالة الفقه الاسلامى ــ المبادىء العامة محدودة وقاطعة ــ من هم أهل الشورى ؟ ــ المجمع عليه فى الامامة ــ تجربة العصور ــ الاصول المقررة فى رياسة الدولة الاسلامية ــ مفهوم السيادة فى الاسلام ــ صورة لا نظير لها ــ حدود سلطة الامة ــ لا سند لما ينقض العدل والحق

(١) ظهرت فى السنوات الأخيرة دول اسلامية مستقلة متعددة فى آسيا وافريقية ، وظهرت معها وفيها وهيئات وأحزاب تريد أن تقيم نظمها على مبادىء الشريعة الاسلامية وأصولها ، وتعددت الآراء فيما هو نظام الحكم الاسلامى ، وفى كيفية انشاء دساتير تتفق ومقتضيات الاسلام ، وتحقق غايات الشريعة المحمدية .

والدول الاسلامية من أقصى المشرق الى أقصى المغرب تشمل أقواما وثقافات وعرفا وعادات وطرائق للحكم ، وتختلف فيها الحاجات باختلاف الأقاليم واختلاف البيئات الاجتماعية وضروراتها ، فحكمها بطريقة واحدة أمر عسير ؛ لأن استيفاء حاجاتها ومصالحها وسد الذرائع فيها يحتاج لتفصيل واجتهاد يجعلان من العسير أن يفى بحاجاتها دستور موحد ونظام حكم واحد بالمعنى الحديث للدساتير ، يحقق الغرض الذى ترمى اليه الشريعة فى كل مكان . بل قد يكون أدنى الى تحقيق غرض الشريعة المحمدية أن تتعدد أشكال الدساتير ونظم الحكم على أساس أن تسودها المبادىء العامة للشريعة الاسلامية وأصول الآداب والأخلاق التى جاءت بها رسالة الاسلام واهتدى بها البشر من أقدم العصور ؛ لأن اختلاف القوانين المنظمة للشئون العامة قد يكون فى ذاته ضرورة محققة لأغراض الشريعة ولمصالح المسلمين فى مختلف ظروفهم ، وأدعى لتحقيق المصلحة ، من الاصرار على دستور موحد شامل يطبق فى كل مكان .

---

(١) هذا الفصل مزيد فى هذه الطبعة .

دلالة الفقه الاسلامى

ولعل الفقه الاسلامى فى نشوئه وتطوره وتعدد آراء المجتهدين فيه متأثرين قطعا بظروف البيئة وظروف الزمن ، هو الهادى الى ما نظنه الصواب فى هذا النظر ..

فالدساتير الاسلامية التى يطالب بها الاندونيسيون أو الباكستانيون أو المصريون أو غيرهم من الأمم الاسلامية ، يمكن أن تكون فى جوهرها متفقة متقاربة ، وان اختلفت فى فروعها وتفصيلاتها وما يتفرع من ذلك من قوانين ومراسيم واجراءات تقتضيها المصلحة وتسد بها الذرائع .

وعليه ؛ فما هو هذا الدستور أو هذا النظام الاسلامى الذى يوحد بين المسلمين من غير أن يعوق التطور التشريعى والاجتماعى وفق مقتضيات العدل والمصلحة فى مكان ما أو زمان ما ؟؟

المبادىء العامة محددة وقاطمة

اذا نظرنا فى الكتاب والسنة وتاريخ المسلمين فى أيام خلفائهم الراشدين نجد أن الاسلام محدد قاطع فى كل ما هو من المبادىء العامة الصالحة لكل زمان ومكان وقوم ، فاذا كان الأمر تنفيذا لهذا المبدأ واقامة لأصل من أصول الاسلام ، تجلت مرونة الشريعة الاسلامية وتفويضها لعقولنا واجتهادنا ، وصارت الشريعة وكأنها تشير الى هدى النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله « أنتم أعلم بأمور دنياكم » فينفسح مجال الرأى ويكون الفصل بالنسبة للصواب أو عدمه لحكم العقل والتجربة الهاديين الى المصلحة العامة والمتجنبين المضرر .

ولعل ذلك هو فضل الاسلام الذى يجعل منه شريعة خالدة للناس جميعا ويحقق قوله تعالى « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » اذ لو كان الاسلام غير ذلك ما كان دينا يسرا ، ولضاق بالناس فى مختلف أزمانهم وأوطانهم وحاجاتهم المتغيرة .. فوضوح الاسلام فى الأصول العامة ومبادىء الأخلاق السامية وتركه الكثير من الأمور للرأى والاجتهاد لم يكن سببا للضعف فى شريعته ، بل سببا لاستمرار الحياة والخلود لهذه الشريعة وعظمة الفقه فيها .

فى الشورى

ولنضرب لذلك بعض الأمثلة : كره الاسلام أن تقوم الدولة على السيطرة والجبروت من شخص أو جماعة ، وأرادها أن تقوم على الرضا والتعاون ، فأمر بالشورى فقال « لست عليهم بمسيطر » « وشاورهم فى الأمر » « وأمرهم شورى بينهم » فجعل الشورى مبدأ عاما لا مفر من اقراره واعتباره فى كل دولة أو جماعة اسلامية فى أى مكان وأى زمان وأى قوم وقد دلت تجارب البشر على اضطراد هذا المبدأ ونفعه ، ولكنه لم يرد أن يشق علينا بتعيين نظام واحد لهذه الشورى أو تعديد صور له لنختار منها ما يقتضيه المكان والزمان ، فترك لنا الاختيار والتنظيم للشورى معتمدا فى ذلك على اخلاصنا لديننا واخلاصنا لأنفسنا ، وعلى أن الأعمال بالنيات وأن لكل امرىء ما نوى ، ولنقرر فى حدود هذا الأصل أشكال هذه الشورى وكيفياتها وفق حاجاتنا كى نكفل للأمة الاستقرار والرضا العام .. ولذلك نجد كبار الصحابة ومن بعدهم من التابعين والأئمة والفقهاء قد اجتهدوا فى هذا الأمر وتركوا لنا آثارهم فتعدد الرأى فى كيفيات الشورى : —

١ — فنجدها مرة بعرض الأمر على العامة فى المسجد أو الخاصة فى ندوة .

٢ — ونجدها مرة ثانية بدعوة لعدد من كبار الصحابة لتبادل الرأى .

٣ — ونجدها ثالثة بعرض الأمر على من حضر من أهل الرأى والمقام فى ظرف معين .

٤ — ونجدها رابعة مقتصرة على واحد أو أكثر يختارهم الامام ويثق فى سداد رأيهم ويشعر بمشاركة العامة اياه فى ذلك .

وهكذا كان المعول فى الأمر كله على حسن نية ولاة الأمر ومراعاتهم لأمر الله سبحانه وتعالى فى الشورى وخشيتهم له ، فأدوها بالكيفية التى تطمئن لها نفوسهم حسب مقتضيات الظروف والأحوال .

من هم أهل الشورى ؟

وقد اصطلح المسلمون على أن أهل الشورى هم جماعة من أهل الحل والعقد « وأهل الحل والعقد » هم من اذا أبرموا وعقدوا أمرا أبرمه الناس ، واذا نقضوه وحلوه نقضه الناس .

فلو علمنا من هم أهل الحل والعقد الذين اذا قالوا قال الناس ، واذا رأوا رأيا تبعهم الناس لكان فيهم كل الكفاية للحصول برضائهم على الرضا العام ومثلت الأمة خير تمثيل ؛ ولكن المشكل الذى ظهر فى مدى العصور الاسلامية هو الاتفاق أولا على من هم أهل الحل والعقد الذين تنعقد بهم مثلا البيعة للامام ، وثانيا على كيفية اختيارهم ؛ ولذلك تعدد الرأى ؛ فحصرهم البعض فى العلماء ، والبعض فى العلماء وغيرهم من المتبوعين فى أقوامهم ، والبعض فيمن تتوفر فيهم صفات الاجتهاد من العلماء .

والواقع أن تعيين أهل الحل والعقد ليس أمرا هينا ، فهم فى المدينة غيرهم فى البادية ، ، وهم فى الريف غيرهم فى العواصم ومراكز الاكتظاظ والصناعة ، وهم فى عصر من العصور العلماء المتبوعين ، وفى غيره المتغلبون النافذون فى العشائر والأوطان والممالك ، وفى عصرنا قد يكونون بين رؤساء الأحزاب والطوائف والنقابات وغيرهم .

وهكذا يختلف النظر بالنسبة لأشخاصهم وبالنسبة لاختيارهم وتعيينهم باختلاف الأقوام والعرف والعادات والأزمان ، ليكونوا أهل الرأى فى البيعة ، وأهل الشورى فى كل حين .

ولذلك نظن أن الدستور الذى يوضع لتمكين أهل الحل والعقد من ابداء الرأى ، وتمكين الامام ورئيس الدولة الاسلامية من اختيارهم واستشارتهم يتغير بتغير ما أشرنا اليه . وقد يكون فى دستور أية دولة من الدول الاسلامية غيره فى دستور دولة أخرى .

هذا مثل قد يوضح فى أذهاننا ما هو موضع الرأى وما هو موضع التقليد فيما نختار من النظم والدساتير لتكون موافقة للشريعة الاسلامية وأغراضها . .

فى الامامة

ومثل آخر هو : مسألة الامامة واختيار رئيس الدولة ، وما يجب أن يتوفر فى الامام من شروط ، وما له وما عليه من واجبات ، ففى هذا أيضا نجد الشريعة الاسلامية واضحة فيما هو ثابت ومستمر من أمر الامام والامامة ، وتاركة للرأى والاجتهاد والمصلحة ما هو متغير وغير ثابت وتقتضى المصلحة فيه هذا التغيير وعدم الاستمرار .

المجمع عليه فى الا،

فمنذ اجتماع المسلمين فى (سقيفة بنى ساعدة) عقب وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم والبيعة لأبى بكر رضى الله عنه وموضوع الامامة محل خلاف بين المسلمين ، تعددت فيه الآراء والمذاهب . وان اجتمعت الأكثرية العظمى على رأى أهل السنة فان هذا الاجتماع لا يخلو كذلك من خلاف على تفصيلات كثيرة . ويمكن القول بأن المسلمين لم يجمعوا الا على أمر واحد : هو وجوب الامامة منعا للفوضى واقامة لحدود الله .

وليس القصد هنا تناول هذا الموضوع من الناحية النظرية ، ومناقشة المذاهب والآراء التى لا تزال ممثلة فى طوائف كثيرة من أهل السنة والشيعة والاباضية ، وانما القصد هو الاشارة الى هذا الخلاف ليتبين للناس اتجاه الشريعة الاسلامية ببيان المفروض والمتروك لهم ، ليقرروا بشأنه ما يشاءون وفق المصلحة وحسب مقتضيات معاشهم وزمانهم وأوطانهم .

فاذا تتبعنا ما اختلفوا فيه نجده قد تناول الكثير من أمر الامامة ، حتى اللقب نفسه ، فسمى المسلمون رئيس الدولة خليفة ، كما سموه أمير المؤمنين ، واماما ، وسلطانا .

وقد بلغ الخلاف فى الموضوع أنه لما توفى الرسول صلى الله عليه وسلم واجتمع الناس فى السقيفة لم يكن الأمر واضحا لهم ، حتى قال الأنصار : « منا أمير ومنكم أمير » وقال المهاجرون « منا الأمراء ومنكم الوزراء » أى قال قوم بوحدة الامام وآخرون بتعدده . ثم اجتمع الرأى باختيار أبى بكر لفضله ، ولأنه لا تتطاول اليه الأعناق كما قال عمر رضى الله عنه . ولا يعنينا هنا أن نخوض فى أصل وجوب الامامة وكونه عقليا أو شرعيا

وغير هذا ، ما دام المسلمون قد فصلوا فى ذلك الوجوب باجماع الصحابة ، ومارسوا الأمر ، ثم اجتهدوا فيما يجب للامام وما عليه لاقامته وتمكينه من حراسة مصالحهم الدينية والدنيوية ، فى مجتمع ولد نتيجة للدعوة والارشاد والكفاح المحمدى على أسس جديدة غير مألوفة فى ذلك العصر ، فهو مجتمع متكافل متكامل ، الناس فيه عيال الله ، وأكرمهم أتقاهم ، وهم سواسية كأسنان المشط ، وليس لأحد عليهم سلطان الا بقانون مرجعه الشرع الاسلامى ، فهو بذلك مجتمع جديد فى عصره وفى عالم كان يقتسمه قيصر وكسرى كارباب من دون الله .

فى هذا المجتمع نشأت الامامة ، وسادت الشريعة واستقرت مبادىء وأصول ونظم لها كل القداسة ، وهى بذلك الدستور الدائم للمسلمين الذى لا يوهب ولا يسلب ، تتعين فيه الحقوق والواجبات العامة للجميع ، ولا تملك قوة فى الأرض ، حتى الأمة نفسها ، له تغييرا أو تبديلا ، ففيها الامامة مثلا أمانة وأمين عليها يتصرف فى حدود الأصول العامة للشريعة وفق مصلحة الكافة .

والامامة كنظام اسلامى فريد غير مسبوق ، لا تؤتى أحسن ثمارها الا فى أمة صالحة ، ينظم أمورها وفق الشريعة دستور واضح ، يتطور بارادة الأمة وفى حدود الشريعة لتجلب به المصالح وتسد الذرائع .

تجربة العصور

وقد دلت تجربة العصور على أنه اذا فسدت الأمة ، واذا فشا فيها الجور فلم يقف الناس عند حدود الشريعة ، فسد الأمر كله ، فضاع حق الراعى وحق الرعية ، وكثرت الفتن وانطوت سيادة القانون ، فلا بد لاتقاء هذا من نظام ودستور اسلامى ترضاه الكافة ، ويكون حدود الله بين الناس ، فيه ما هو ثابت خالد من الأصول ، وما هو متغير وفقا للمصلحة من الفروع ، لأن الشريعة تركت لنا الاختيار والاجتهاد فى شأنه وفى صوره وأشكاله وما يتفرع عن ذلك من المسائل لدوام الأمن والرضا والعيش الكريم

الاصول المقررة فى رياسة الدولة الاسلامية

وأخيرا وبعد مراجعة الكثير من آراء الأئمة وفقهاء المسلمين فى مختلف مذاهبهم ، ومتابعة التاريخ الاسلامى ، أشعر أن الشريعة الاسلامية

لم تقرر لحكمة سامية فى أمر رياسة الدولة الا بعض أصول قليلة : كاقامة الامام ، وأن يكون بالغا ، عاقلا ، مرضيا عنه من الأمة مستعينا بصالحيها ، مشاورا لأهل الحل والعقد فيها ، وأن يكون بعد ذلك حارسا على مصالح المسلمين مقيما لشريعتهم . وينتقض أمره بمخالفته أوامر الله ومصالح المسلمين . وأظن أنه فيما عدا هذه الأصول القليلة قد ترك للناس أن يجتهدوا ويضعوا من النظم ما يصلح أمورهم ، ليتناسب ذلك مع دعوة الاسلام العامة وأن هذا الدين للناس كافة .

فى سيادة الأمة

ومثل ثالث : هو أمر « سيادة الأمة » وكونها مصدر السلطات بالمعنى المتعارف عليه فى هذا العصر . فللاسلام فى هذا منهج غير نهج الدساتير الحديثة .

ان الاسلام دين عام ، لا يتقيد فى أصول العقائد والآداب والأخلاق والمبادىء والحقوق بالأوطان الخاصة ولا بنعرات الجنسيات والقوميات والألوان ، ولهذا فالسيادة عنده للشريعة : أى لتلك الأصول التى قامت عليها دعوته ، وليس للأمة مجتمعة أو متفرقة ، متفقة مع رئيس الدولة أو مختلفة ، ممثلة فى برلمان أو فى هيئة تأسيسية أو غير ممثلة ، أن تتصرف فيما جعله الله حقا أو واجبا للأفراد أو للجماعات فى وطن ما أو للناس كافة فى الدنيا كلها .. اذ لهذه الأصول وحدها القائمة على ما شرع الله من حقوق وواجبات عامة للانسان ، السيادة والخلود ، لأنها دائمة بارادة الله لا غيره . وهذا أصل اسلامى عظيم يجب دائما أن لا يغيب عن أذهان الباحثين الاسلاميين ، وأن ينوه به فى هذا العصر خاصة ويعلن عنه ، لأنه جعل من رابطة الانسانية رابطة أعلى من الروابط العنصرية والوطنية ، وجعل من الحقوق البشرية ما يسمو على السيادة أو المصلحة القومية .

مفهوم السيادة فى الاسلام

فالسيادة بمعناها العصرى عند الآخرين أو مقلديهم من المسلمين غيرها فى النظام الاسلامى ، فهى فيه مكونة من عدة قوى يجتمع بها سلطانها : هى الشريعة ، والأمة ، والامام حارس الشريعة ومختار الأمة ،

ولذلك يسمو النظام الاسلامى على ما عداه ، فهو يكفل أصول المبادىء الأخلاقية العامة ، وأسس العدل العام والمساواة بين الخلق والاخاء البشرى، فيقيم الحقوق والواجبات البشرية على قواعد الشمول والخلود بأمر الله تعالى وارادته ، فيقطع بذلك السبيل على الهوى والتعصب والتحزب ، اذ ليس للأمة ولا للملوك ولا للرؤساء ولا للعامة سبيل الى نقض حقوق الانسان وواجباته بدعوى حرية الأمة وسيادتها فى وطنها .

فمفهوم السيادة فى الشريعة الاسلامية غير مفهوم السيادة الشعبية فى دساتير الأقوام الأخرى ودساتيرنا المنقولة عنها ، اذ هى لا تتحقق كما قدمنا الا باجتماع العناصر الثلاثة التى ذكرناها : الشريعة الاسلامية ، والأمة ممثلة فى أهل الحل والعقد ، والامام المختار ففيهم مجتمعين السلطان الذى يسمى حق السيادة Sovereignty وقد كانت قديما للملوك وصارت حديثا للشعوب .

صورة لا نظير لها

وهذه الصورة الاسلامية للسيادة مانعة من الهوى والتردى فى مزالق الرأى ، وهى ضمان للحقوق والواجبات الانسانية لا نظير له فى مذاهب الأمم السابقة واللاحقة للاسلام .

والتعبير عن هذه السلطة لا يتأتى بارادة واحدة كما يحدث ، باسم الشعب ممثلا فى حزب الأكثرية ، أو باسم الملك ، أو باسم الدكتاتورية شيوعية أو غير شيوعية ، بل لا بد للتعبير عن هذه السلطة من اجتماع ارادة الله : أى شرعه ، وارادة الدولة : أى الأمة والحكومة فمن هذه الارادات الثلاث تنتظم الحقوق والواجبات فى جميع الأوطان والأزمان .

فمثلا اذا قالت الشريعة « ان الله يأمر بالعدل والاحسان » . « ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى » .

« يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين » لم تستطع الأمة ولا الامامة ولا هما مجتمعين أن يتجاوزوا ما أرادته الشريعة من عدل وانصاف ، ولو كان ذلك باسم سيادة الأمة وحقها فى تقرير مصائرها .

حدود سلطة الامة

واذا لا تكون الأمة مصدر السلطات بمعنى أنها طليقة تفعل بنفسها ووطنها أو غيره ما تشاء ، فهذه المشيئة محدودة بمبادىء الأخلاق العامة ومبادىء العدل وحقوق الانسان وواجباته كما أرادها الله

أما أن للأمة أن تكيف نظمها وتضع القوانين والدساتير فى حدود هذه السيادة المشتركة ، فأمر لها فيه كامل الحرية ، فهى سيدة فى كل ما لا تجده ارادة عليا هى ارادة الله مصدر الوجود ، الذى استخلف الانسان فى الأرض ، وحمله أمانة الحكم ، وجعل هذه الخلافة تقصد الى العدل والحق « ياداود انا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله . ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب » .

نعم ان الأمة مصدر السلطات ، وليس للملوك ولا للرؤساء من أى نوع كانوا فى الشريعة الاسلامية من الأمر الا ما تريده الأمة ، فهى التى تقيم الدولة ، وهى التى تنظمها ، وهى التى تختار أولياء الأمر فيها ،وهى التى تقدر مصالحها وتدرأ مفاسدها ، فهى فى هذا كله مصدر للسلطات : تلك السلطات التى يحدها ويحيط بها نطاق الشريعة الاسلامية .

ومن هذا المثل أيضا فى أمر السيادة يتضح بعض ما له صفة الخلود ، وبعض ما هو مقيد بارادتنا ومتغير بمشيئتنا واختيارنا من الأشخاص والقوانين والنظم والدساتير .

لا سند لما ينقض العدل والحق

وسيادة الشريعة فيما هو متعلق بأوامر الله لا تنقض برأى فرد ولا جماعة ولا قوة . وكل رأى أو قوة تحول بين الناس وبين العدل والحق كما جاء بهما الاسلام ، لا مبرر له ولا سند من الدين الاسلامى ، ولو كان له سندا من السلطان والأمة . فليس للأمة أن تتجاوز مصالح الناس فى أوطان أخرى ، وأن تفعل بقوانينها وشرائعها ما تشاء ، أو أن للأغلبية فيها أن تشرع وأن تتصرف بظلم فى حقوق الأفراد والجماعات بما يقتضيه رأيها باعتبارها معبرة عن الارادة العامة للأمة فى زمان ما .. فهذه الصورة التى فى أذهان المعاصرين من الشعوب الاسلامية وغير

الاسلامية ، والتى توحى بحرية التصرف الكامل طبق المصلحة الوطنيـة ليست صحيحة من الوجهة الاسـلامية النظرية ، فان الاسـلام قد جاء بشريعة للناس كافة ، ولا يتقيد بما يسمى المصلحة الوطنية اذا كانت هذه المصلحة تتعارض مع مصلحة الناس كافة ، وأن تكون بها « أمة هى أربى من أمة » اذ قصده للخير العام يحب ما قد يبدو من خير خاص . وهنـا يتخصص ويتقيد الحق الناشىء من دعوى « السيادة الشعبية » كما يقول به فقهاء الدساتير الحديثة الديمقراطية ، بالحق العام للناس كافة كما يقرره الاسلام .

(وبعد) فهذه أمثلة ثلاثة قدمتها فى الحـديث عن النظم الأساسـية للدولة الاسلامية ، وهى الشورى ، ورياسة الدولة ، وسيادة الأمة ، وهى الأصول الكبرى التى تقوم على بيانها وبيان التفريع عليها الدسـاتير . وقد قدمها الاسلام وتاريخه وآراء فقهائه ، واضحة محددة فيما هو ثابت خالد ، ومتغيرة مرنة فيما يحسن فيه التغيير والتطور والمرونة .

وأنى لأرجو أن أكون فى هذا الفصل الموجز قد حفزت همم العلماء والفقهاء وأهل الرأى لاستقصاء البحث والتوسع فيه ، اذ كل قصدى ، وقد أخذ الناس فى كل أقطار المسـلمين يتحدثون فيما هو نظـام الحكم الاسلامى والدستور الذى يبين هذا النظام ، لا يكلفهم شططا ، وأن صور الدساتير الاسلامية قد تتعـدد جلبا للمصلحة ودفعـا للمضرة ما دامت فى حد الأصول الاسلامية الخالدة .

فما دام المسلمون فى أى قطر من أقطارهم أو دولة من دولهم ، يعملون بنية خالصة محترمين شرعهم ومقيمين نظما دستورية تتناسب مع أحوالهم ، فانهم يحدثون بذلك نظما اسـلامية هى خير لهم من تلك التى يقلدون فيها ما يسمى بالديمقراطيات الشيوعية أو الديمقراطيـات الرأسماليـة . فيكونون بذلك أمة الوسـط كما سماهم القـرآن ويوفقـون الى حل ما استعصى على غيرهم ، ويجمعون بين حاجات الروح وحاجات البدن ، معطلين الحضارة والحياة الانسانية السندين الذين لا بد منهما للسـلم والاستقرار والرخاء ، اذ ليس الانسان حيوانا ليكون كل همه فى بطنه ،

و لاملكا ليكون كل أمره فى روحه . وقد امتازت الرسالة الاسلاميـــة باختيار الوسط من الأمور ، فأخذت فى الاعتبار حاجات الروح والبـدن الدائمة وسنت لها أصولا خالدة لا سبيل الى نقضها ، وتركت الفروع تتغير طبق المصلحة المتغيرة فى الدنيا ، وقــد نظرت فى المصلحة العـامة للانسانية كلها ولم تغلب عليها أية مصلحة قد تدعيها أمة لنفسها ، وجعلت السلطة التى تنشىء الحقوق والواجبات الفرعية مقيــدة أولا باجتمـاع العناصر الثلاثة التى أشرنا اليها وضرورة موافقتها للمبادىء العامة الانسانية التى يجب أن يتضمنها أى نظام اسلامى . وقد نهت الأمم كافة عن السعى الى أن تكون مصلحة أمة أربى وأكثر من مصلحة أمة أخرى ، وفى هذا يقول القرآن الكريم « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » .

(٧)

فى انتشار الدعوة

إنتشار الدعوة فى الوثنيين

شهرة باطلة ــ خلط بين انتشار الدعوة وامتداد الدولة ــ فتح مكة بجيش المستضعفين المطرودين ــ الدعوة السرية والجهرية ــ الدفاع عن النفس مشروع ــ الموقف فى الحديبية يشهد ــ تاريخ الدعوة هو تاريخ الصبر والمقاومة ــ الموقف فى خارج الجزيرة ــ رواية الكولونيل (فردريك بيك) ــ فتنة واعتداء ــ مع الروم فى شرق الاردن (مؤتة) ــ دليل فذ من ادلة التسامح الاسلامى ــ فتح مكة ــ لم يكن مفر من تحكيم السيف فى فتحها ــ الغرض من فتحها ــ صورة من التسامح المحمدى ــ دليل على انهيار النظام الجاهلى ــ الفتح السلمى قبل الفتح الحربى ــ دليل من اسلام ابى سفيان زعيم المشركين ــ الوفود تتوالى من الجزيرة على الرسول باختيارها ــ الخدمة الوحيدة التى اداها السيف للاسلام ــ أيباع الدين بدراهم معدودات ! ــ ما بعث الله محمدا جابيا ــ قصة تكشف عن روح عصرها .

شهرة باطلة

استقر فى أذهان كثير من الناس ، المسلمين وغيرهم ، أن الدعوة المحمدية ظهرت وانتشرت تحت ظلال السيوف ، وأن القبائل التى حملت كتاب الله فى رقابها حملت سيوف الحق فى أيديها ، وانطلقت للمغرب والمشرق ، فحكمت السيف حتى دان الناس للكتاب المعلق فى الرقاب ، وليس أبعد من الصواب ولا أدل على البحث السطحى المعتل من هذا الظن ! لهذا يحسن أن نتناول هذا الأمر بشىء من الافاضة وتتبع انتشار الدعوة فى العصور المختلفة ، ليستقر الحق فى نصابه ، ويتبين الرشد من الغى .

خلط بين انتشار الدعوة وامتداد الدولة

ولعل ذيوع هذه الفكرة الخاطئة عن انتشار الدعوة المحمدية بالسيف جاء من اقتران ظهورها خارج الجزيرة العربية بظهور الدولة الاسلامية ، وامتزاج تاريخ الفتوحات السياسية والدولية بتاريخ الفتح الدينى ، مما جعل الناس يخلطون بين دخول الأقوام فى الايمان وقبولهم رسالة التوحيد وبين خضوعهم لسلطان الأمة الجديدة التى كانت السابقة الى قبول الرسالة المحمدية .

فتح مكة بجيش المطرودين

وقد نسى الناس أن الفتح المحمدى لمكة وغيرها ، انما كان بجيش قوامه آلاف المستضعفين المهتدين قبل هذا الفتح ، ممن أسلموا سرا

واضطهدوا جهرا ، وهاجروا من أوطانهم قهرا ، وعبروا البحر مرتين لاجئين الى الحبشة ، وفروا الى المدينة ، واحتموا فى جوار كل ذى حول أو طول .

الدعوة السرية والجهرية

دعا محمد صلى الله عليه وسلم ، أول ما دعا الى الاسلام ، آل بيته ، فمنهم من آمن ، ومنهم من عصى . دعا سرا فدخل فى دعوته من أشراف القوم وصناديد الجاهلية ، كما دخل جماعة من المستضعفين والعبيد ، ولم يستطع هؤلاء وهؤلاء أن يحموا رسولهم ، وألجأته قريش الى قبول النفى الاختيارى مع آله فى الشعب حيث بقوا حقبة من الزمن مقاطعين منبوذين من أهل مكة وأحابيشها وأشياعها من ثقيف وغيرها ، ثم خرج من هذا الحصار ، وقد فقد زوجه وعمه ، وأخذ يعرض نفسه على القبائل ، ورجع مهيض الجناح من (الطائف) ولم يستطع دخول بلده الا فى حماية المطعم بن عدى من كفار قريش ، وقد أجاره نخوة ومروءة .

مشروعية الدفاع عن النفس

وما زال يدعو سرا وجهرا ، وينال أصناف الأذى فى نفسه وأتباعه ، حتى لقى أهل البيعة الأولى من شبان المدينة فى موسم الحج ، فحببوا اليه الهجرة الى وطنهم ، ففر من الموت الى أحضان (يثرب) الموالية ، ولم يتركه خصومه فى ملجئه . فلما بسطوا أيدى الشر الى أطراف الواحة التى نزل بها ، خرج اليهم والتقى بهم فى (بدر) وقد أذن له بالقتال بهذه الآية الجليلة « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ، ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز . الذين ان مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر » .

والآية فى صراحتها وبساطتها وتعابيلها للاذن بالقتال ، وتحديدها الغرض منه ، وفى سياقها كله ، واضحة فى تصوير الحالة تصويرا ينافى تماما ما علق فى أذهان كثيرة من صورة الكتاب والسيف متلازمين .

استمر الرسول قبل واقعة بدر خمس عشرة سنة يدعو بالحكمة

والموعظة الحسنة ، ويصبر على الظلم ؛ فلما لم يبق الا الدفاع عن النفس بالقوة ، جاء اذن الله ، ووقعت الواقعة فى بدر ، وأذل المستضعفون الجبابرة ، وضم جوف القليب (١) من فحول قريش من كانوا على مر السنين ينوعون وسائل التعذيب للذين يدخلون فى دين الله ايمانا واحتسابا .

الموقف فى الحديبية يشهد

ومع ذلك فقد رجع الرسول الى المدينة صابرا داعيا ، فلم تصبر قريش ومن معها ، وعادوا لمهاجمته فى نفس المدينة . ولما كانت (الحديبية) اغتنم الرسول الفرصة للهدنة ، ورضى بشروط لم يكن ليرضاها لو كان عماد دعوته السيف ، فان تلك الشروط لم ترض حملة السيوف من أنصاره ، واعتبروها هوانا اذ لم يقاتلوا ولم يغلبوا . ولكنه صلى الله عليه وسلم كان يعلم أن دعوته انما يمنعها من الانتشار السيف ، ولا يبسطها فى الناس سيف ، فاذا هو هادن وسالم غلب ، وذلك ما كان ؛ فقد كانت هدنة (الحديبية) فتحا ، وكان هذا العقد الظاهر الغبن الذى عقد للحصول على السلم بشرائط تبدو مذلة ، سببا لانتشار الدعوة ، وقد نزلت سورة الفتح بعد الحديبية ، وتحققت الآية ، ودخل الناس فى أيام الهدنة أفواجا فى دين الله الذى قام بالدعوة ، والذى أحل فيه القتال لحرية هذه الدعوة ولا شىء غيرها .

تاريخ الدعوة هو تاريخ الصبر والمقاومة

فتاريخ الدعوة فى الجزيرة العربية هو تاريخ المسلمين الصابرين . وكل تعقب لتفصيلات التاريخ الاسلامى يكشف لنا عن هذه الحقيقة ، ويؤيد عمل النبى ، ويحقق قوله تعالى « لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » وقوله تعالى : « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ! » وقوله « من يهد الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا » .

الموقف فى خارج الجزيرة

قد يقول بعض الناس اذا كان هذا شأن الرسول فى مكة والمدينة يصبر على الأذى ويرجح السلم حتى بشروط لم ترض أنصاره ، فما الذى دعاه للخروج من قلب الجزيرة العربية ، وسوق الجيوش لقتال الرومان فى سورية ؟ أليس الرغبة فى تحكيم السيف ؟

---

(١) البئر التى دفنت فيها جثث قتلى بدر من المشركين .

رواية الكولونيل بيك

ذلك ما قد يظنه بعض من لا يعرفون كيف ابتدأت الحر والروم وأنصارهم من العرب . واليكم رواية الكولونيل (فر فى مؤلفه الحديث « تاريخ شرق الأردن وقبائلها » ، وقد اعتمـ بيك على مراجع محترمة من كتب المسلمين وغيرهم ، وأشار قال فى صحيفة ٨٥ « فى عام ٦٢٧ — ٦٢٨ (٦ هـ) استشهـ فى شرق الأردن بسبب اسلامه : ذلك أن فروة بن عمر الجـ الروم على (عمان) — وفى رواية ابن هشام على معان — الدين الاسلامى ، وأرسل مع مسعودبن سعد الجذامى بغلا وحمارا وأقمصة كتانية وعباءة حريرية هدية للنبى . ولما بلغ حاولوا عبثا اقناع فروة ليرتد عن اسلامه فأبى . فما كان سجنوه ، ثم صلبوه على ماء يقال له (عفرى) بفلسطين .

فتنة واعتداء

وفى تموز (يوليه) عام ٦٢٩ م (٨ هـ) أوفد النبى كتـ عشر رجلا الى حدود شرق الأردن ، ليدعوا الناس الى الد وليستطيعوا أخبار الروم وحوادثهم ، فخرج عليهم جمع ـة يقال له (طلة) بين (الكرك) و (الطفيلة) ، وقتلوهم كا لاذ بالفرار .

وبنفس الوقت أرسل النبى رسولا اسمه الحارث بن غسان فى سوريا يدعوه الى الاسلام ، فقبض عليه شرحبيل (مؤتة) ، وهى قرية بجوار الكرك وقتله .

تجمع وتهديد

وحوالى هذا الزمن أيضا وصلت رسل النبى من الـ أخبار الاستعدادات الحربية على تخوم الولايات الرومانيـ (هرقل) وجيشه فى (الكرك) مع حلفائه من بهراء وجذام و

كل هذه الأسباب جعلت النبى يعقد النية على بعث حـ شرق الأردن ليقتص من قتلة الحارث ، وليختبر قوة أعدائـ وليعرف أسباب تجمعهم على الحدود الجنوبية .

مع الروم فى شرق الاردن (مؤته)

وفى أيلول (سبتمبر) عام ٦٢٩ م (٨ هـ) جمـع النـ مقاتل فى « الجوف » قرب المدينة ليسيرهم نحو سورية و

ابن حارثة « فان أصابه قدر فالأمير جعفر بن أبى طالب ، فان أصابه قدر ، فالأمير عبد الله بن رواحة على الناس ، فان أصيب فليرتض المسلمون برجل من بينهم يجعلونه أميرا عليهم » .

فمضى الجيش حتى اذ كان بتخوم البلقاء لقيتهم جموع هرقل من روم وعرب ، واقتتل الفريقان فى قرية « مؤتة » بجوار الكرك .

استبسل المسلمون فى هذه المعركة ، بالرغم من قلة عددهم بالنسبة لعدوهم ، فلما استشهد أميرهم زيد بن حارثة تولى جعفر (كما وصاهم النبى) فقطعت يميناه ، وكان بها اللواء ، فأخذه بشماله ، فقطعت ، فاحتضنه بعضديه حتى قتل ،وكان فيه نحو خمسين جرحا . فلما نمى ذلك الى النبى صلى الله عليه وسلم قال : أثابه الله بجناحين فى الجنة يطير بهما حيث شاء فأصبح يعرف فيما بعد بجعفر الطيار .

وبعد جعفر أخذ الراية عبد الله بن رواحة ، فقاتل حتى قتل ، وتولى خالد بن الوليد وانسحب بالجيش الى المدينة .

تلك رواية الكولنيل « بيك » عن كيفية وقوع الحرب بين النبى والروم . وهى واضحة فى أن الروم صلبو (فروة) لما أبى أن يرتد ، وهى واضحة كذلك فى بيان الاضطهاد والغيرة التى استولت على أفكارهم وأعمالهم ولا مجال للشك فى أن الروم وأنصارهم من العرب لما أخذتهم العزة والخوف من الدعوة السلمية ، لجأوا الى العنف ، بل الى القسوة والغدر ، ولم يكن بد لصاحب الدعوة من أن يدفع الشر عنها ، ويقاتل فى سبيل حريتها .

دليل فذ من أدلة التسامح الاسلامى

ومما يرويه المؤرخ المذكور أيضا أن أسرة مسيحية تدعى (العزيزات) كانت تعيش فى مؤتة ، فلما قدم الجيش الاسلامى خرج أخوان من هذه الأسرة للقائه ، وفتحا أبواب القرية ، وقدما له الطعام والشراب ، ثم اعتنق أحدهما الاسلام وبقى الآخر على نصرانيته ، فأمر النبى ألا يستوفى منهما ولا من أعقابهما جزية ولا خراج ، وظل أمر النبى نافذا مدة ألف وثلاثمائة سنة . وقد أخذت الحكومة التركية تحصل منهم الأموال

الأميرية بعد سنة ١٩١١ فقط ، لما ثار أهل الكرك . والعزيزات يقطنون اليوم (ماديا) وهم من أقوى العشائر .

ومغزى هذه الحادثة واضح ، فقد أمر النبى ألا تؤخذ جزية ولا خراج من بعض المسيحيين وأعقابهم ، لأنهم أحسنوا لقاء جنوده ، واحترم المسلمون هذه الرغبة مئات السنين ، وهى فى ذاتها دليل تسامح فذ يستحيل معه أن يكون السيف وسيلة الدعوى وهادى الايمان

فتح مكة

أما ما كان من فتح مكة بالقوة فنظرة عاجلة فى تطور النزاع بين محمد صلى الله عليه وسلم وعشيرته قريش ، كافية لاقرار الحق فى نصابه ، وأنه لم يكن مفر من تحكيم السيف بين الفريقين ، حتى لو لم يكن محمد رسولا وكان رجلا كريما عزيزا أخرج من وطنه ، وأخرج معه كل من قال برأيه .

لم يكن مفر من تحكيم السيف فى فتحها

يقول القرآن على لسان قريش « وقالوا ان نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا » فقريش التى أقامت لنفسها سيادة دينية على العرب بسداية الكعبة ورعاية الحج ، وحراسة أوثان العرب وآلهتها ، والتى اتخذت هذا المقام وسيلة لنفوذ سياسى واقتصادى فى كل الجزيرة العربية ، والتى كانت تدرك ضعفها ، وأن هذه السيطرة التى لا تتناسب مع عددها ومقرها انما ترتكز على النظام الجاهلى الذى يدعو محمد لتقويضه والذى عبرت هذه الآية أصدق تعبير عن اخلاص قريش له ، فلو انها تبعت هدى محمد لهانت وذلت كما تدعى ، قريش هذه أنى لها أن تصبر على هذا الداعى ودعوته ! لذلك حكمت من أول الأمر القوة .

ولما اقتتلت خزاعة وبكر بعد صلح الحديبية لم تصبر قريش عن نصرة بكر ، ولم ترع هدنة ولا احترمت ميثاقا ، بل عادت الى تحكيم السيف فقبل الرسول هذا التحدى ، وترك للسيف أن يحكم فى نزاع دام عشرين سنة ، وقد حكم للمسلمين يوم الفتح . على أن الرواية التاريخية تذكر أن النبى صلى الله عليه وسلم أمر قواد جيشه بعدم القتال الا أن

يقاتلوا . ومعاملته لقريش يوم الفتح دليل قاطع على أن السيف لم يكن وسيلة للدعوة .

الغرض من فتحها

فلم يكن الاكراه فى الدين ، ولا قهر الناس على الاسلام هو سبب القتال فى مكة التى حرم الله القتال فيها ، والتى يقول الرسول انها أبيحت له ساعة من نهار هى بعدها حرام ، وانما كان الغرض أن يوضع حد للاضطهاد الدينى وأن يباح للناس حق اختيار العقيدة من غير اكراه ولا قهر .

صورة من التسامح المحمدى

ولذلك لما سأل صفوان بن أمية الرسول صلى الله عليه وسلم أن يكون له الخيار فى مغادرة مكة أو الاسلام لمدة شهرين بعد الفتح قال : « بل أنت فيه بالخيار أربعة » ، وكان صفوان وأبوه أمية بن خلف ممن أساءوا للمسلمين أشد اساءة ، يعذبون ضعفاءهم ، ويستهزئون بنبيهم ، فكان أمية يسخر ويفت العظام البالية فى يده ويقول (يزعم محمد أن هذا تحيا مرة أخرى ! » فنزلت الآية « وضرب لنا مثلا ونسى خلقه . قال من يحيى العظام وهى رميم ! قل يحييها الذى أنشأها أول مرة ، وهو بكل خلق عليم » فمع ذلك التاريخ السيىء الطويل يطلب منه صفوان أن يترك له الخيار فى الدين فيسمح له بعد الفتح والغلبة التامة ! فهل هذا شأن من يقيم دينه بالسيف ؟ .

دليل على انهيا النظام الجاهلى

لم يقتل فى موقعة مكة الا بضعة عشر شخصا ، مع عظم الجيوش المقاتلة ، فلقد كان جيش الاسلام وحده مقدرا بعشرة آلاف ، مما يدل على أن النظام الجاهلى قد انهار أمام الدعوة المحمدية قبل يوم الفتح ، وأن عصابة قريش لم تستطع أن تستنهض للقتال جمهرة الناس بعد أن نفذت العقيدة المحمدية الى صدورهم . والا كيف نستطيع تفسير استسلام مكة بهذه السهولة ولما تغلب ! ؟ وآخر وقائعها ذلك النصر فى (أحد) بعد (بدر) ، وكيف نفسر دخول الناس فى دين الله أفواجا بين يوم وليلة ، وهم الذين كانوا يقولون « ان تتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا » ؟

الفتح السلمى قبل الفتح الحربى

لا شك أن أيام الهدنة بعد الحديبية لم تقض عبثا ، وأن الدعوة وجدت فى ظلال السلم سبيلها للنفوس التى تهيأت لقبول الحق ، وأن

زعماء قريش قد أحسوا الأرض قد زلزلت تحت أقدامهم ، وأن العامة مالت للحنيفية السمحة . والا فما الذى جعل أبا سفيان يسلم ليلة الفتح ، ويتوسل بالعباس الى ابن أخيه ، لو كانت مكة لا تزال تؤمن بالنظام الجاهلى ؟ أليس أبا سفيان هو الذى حمل راية الحرب جيلا فى وجه هذه الدعوة ؟ ثم أليست هوازن وسقيف حلفاؤه لا يزالون فى منعتهم ، حتى لقد كادوا بعد الفتح يوم (حنين) أن يفعلوا بجيش الاسلام الأفاعيل ويقتلوا الرسول ؟ فما بال أبى سفيان وغيره من الزعماء لا ينحازون بأتباعهم الى حلفائهم ويديموا القتال ، والعرب بطبيعتهم صلاب العود مريروا العداوة يديمونها جيلا بعد جيل ؟ السبب واضح : هو أن مكة قد أسلمت وانقادت للدعوة قبل أن يدخل أرضها جيش خصومها من أهل (يثرب) ومن حولها من الأعراب .

دليل من اسلام أبى سفيان زعيم المشركين

فحتى فتح مكة الذى يظنه بعض الناس حادثا عسكريا ترتب عليه اسلامها قهرا ، لم يكن الا وسيلة لكف الأيدى الباطشة عن أهلها ليعلنوا ايمانهم ويدخلوا فى الدعوة التى مالوا اليها سرا أفواجا أفواجا .

الوفود تتوالى من الجزيرة باختيارها على الرسول

ثم بعد فتح مكة نجد الوفود من أطراف هذه الأرض الواسعة المترامية تتوالى على المدينة ، من اليمن ونجران وكندة والبحرين وشمال الجزيرة ومن نجد وتهامة ، ومن كل ناحية ، وتدخل فيها ايمانا واحتسابا .

الخدمة الوحيدة التى اداها السيف للاسلام

فماذا كان قدر السيف ليرد الناس عن دينهم ، وبينه وبينهم مسيرة الشهور ، وهم فى منعة بعددهم وعدتهم ؟ ان الخدمة الوحيدة التى أداها السيف للاسلام هو أنه منع الرسول فى المدينة من أن يقع فريسة لخصومه من العرب واليهود والروم ، فمكن له بذلك من نشر دعوته وايصالها الى العقول والقلوب .

وأدرك الرسول قوة الدعوة فى ظلال السلم ، هو الذى دعاه كما قلنا لامضاء صلح الحديبية ، والمسلمون بعد الرسول انما أطاعوا الله ورسوله حيث جعلوا للناس الخيار بين الاسلام والجزية ، اذا لم يحكموا السيف فى رقاب المسلمين ولم يحولوا بين الناس واختيار العقيدة التى يلقون الله عليها .

ولو كان السيف وسيلة الدعوة ما كان للناس خيار ، وما اشترى أى انسان فى البلاد المفتوحة دينه بدينار أو بنصف دينار . والدين الذى لا يساوى عند صاحبه دينارا فالاسلام أولى بصاحبه منه .

كان الناس فى البلاد المفتوحة يعصمون أنفسهم وأموالهم ودينهم من قهر السيف بجزية هى (ضريبة شخصية) يدفعها القادرون منهم لولاة المسلمين ، فيكفلون لهم مقابلها جميع حرياتهم المدنية والدينية .

أيباع الدين بدراهم معدودات ؟ !

فهل تتصورون أن قوما يبيعون دينهم وعرفهم ووطنيتهم بنصف دينار يدفعه القادر عليه منهم ، وليس على النساء ولا على الأطفال ولا العجزة ولا الرهبان ولا القسس ؟ . لا شك أن الذين جازوا الى الاسلام بعد الخيار بينه وبين الجزية ، وجدوه أحب الى أنفسهم مما كانوا عليه .

مفارقات !

بل من الغريب أن الدينار الذى كان يعصم كل عزيز لدى الأمم المفتوحة من سيف الاسلام ، والذى كان أزهد شىء عندها ، كان أعز على بعض ولاة المسلمين من اسلام هذه الأقوام ، فكانوا يكرهون دخول الناس فى دينهم ونقص جزيتهم ! كتب والى مصر الى ذلك الخليفة الزاهد عمر ابن عبد العزيز يخبره أن المصريين مقبلون على الاسلام ، وأن ايرادات الجزية تناقصت بسبب ذلك ، ويطلب منه أن يأذن له فى الاستمرار على طلب الجزية منهم .

ما بعث الله محمدا جابيا

فكتب اليه الخليفة تلك العبارة المأثورة « قبح الله رأيك ! ما بعث الله محمدا جابيا ، ولكنه بعثه هاديا !! » .

قصة تكشف عن روح عصرها

تلك الحادثة تقرب لنا تصور الحالة الذهنية فى القرن الأول لظهور الدعوة المحمدية ، فلا بد أن قدر التسامح الدينى كان على أعظم جانب ، وأن حرية العقيدة كانت فى أوجها ، والا فكيف تستطيع أن تتصور واليا يكتب لخليفة المسلمين هذا الكتاب اذا كان فى المحيط الذى يعيش فيه أى أثر للتعصب أو الرغبة فى قهر الناس على الدخول فى الاسلام ؟ ان تناول الموضوع بهذه الصورة دليل على أن الوالى ، الذى يحس طبعا بحس البيئة ، كان يكتب فى شىء لا يظنه عجيبا ولا يراه منكرا ، والا لكان هذا الوالى عرضة لفتك الجماهير ، بل وانتقام الخليفة وارضاء لهذه الجماهير .

لم يعاقب الخليفة واليه بعزله ، بل كل ما كان ، أن قبح رأيه ، وهو الذى يحاول منع الناس من الاسلام احتفاظا بدينار الجزية .... فهل تتصورون أن ولاة لهم هذه العقلية ، وأن خليفة له هذا التسامح مع ما اشتهر به بين خلفاء عصر كامل من التقوى ، وأن أمة فاتحة مسيطرة تخير الناس بين البقاء على أديانهم ونظمهم مقابل جزية هى أقل الضرائب بالنسبة لعصر كعصرنا هذا أو المساواة بالفاتحين ، يخطر لدعاتها وولاتها أن يتخذوا السيف وسيلة للايمان ؟!

كلا ، لم يكن السيف وسيلة للدعوة المحمدية ، وانما كان حاميها من القهر والاضطهاد ، وكان شعارها « من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا » .

إنتشار الدعوة فى الأمم المسيحية

ماذا بين الموجة العربية وموجات الهون والفندال والتتار ؟ – موجة تحمل رسالة الهدى والعدالة – موجة فذة فى التاريخ – فى ساحة المسيحية – شهادة السير توماس أرنولد – انتشار المسيحية فى ظلال الاسلام – تحاكم المسيحيين الى عدالة المسلمين – فرض مرفوض – الوزراء والولاة المسيحيون فى دولة الاسلام – الكنائس تشاد فى رعاية الاسلام – العرب المسيحيون يحاربون مع اخوانهم المسلمين – بطولة عربى نصرانى فى واقعة البويب – لم يكن السيف من أسباب دخول المسيحيين فى الاسلام – وقائع اضطهاد هى الاستثناء الذى يثبت القاعدة – السياسة والحسد الاجتماعى لا الدين – برهان قاطع على تسامح المسلمين – بلاد الاسلام هى منطقة اللقاء الودى الدائم بينه وبين المسيحية – التعصب الدينى بضاعة غريبة .

ماذا بين الموجة العربية وموجات الهون والفندال والتتار ؟

يظن بعض من لا يعلم ، أنه لما جمع محمد صلى الله عليه وسلم شتات العرب ، وقهر الوثنية فى وسط الجزيرة العربية ، طغت بعده جماعات الرعاة من قساة البدو ، على الشمال والشرق للنهب والسلب والقضاء على حضارة الروم والفرس ، وعلى معتقدات هاتين الدولتين وقواهما التى كانت تصون المدنية القديمة ضد طغيان الهمج من الشمال والشرق والجنوب ، وأن ظهور العرب كظهور الهون والفندال من الأقوام التى تدفقت من المشرق يسوقها الجوع ، ويغريها الطمع ، ويقويها الفخر بنسبها ، أو كغيرهم من موجات المغول والتتر المتأخرين ، وسيلتهم العنف ، وغايتهم ما فى أيدى الناس . ومثل هذا الظن بالعرب الحاملين دعوة الاسلام بعيد كل البعد عن الحق وعن ثابت التاريخ . فمع أن حملة الدعوة كانوا ممن غلبت عليهم البداوة ، ومع أن أعراب الجزيرة كانوا من أرغب الأقوام فى النهب وسفك الدماء ، الا أن الرسالة التى حملوها والشريعة التى دانوا لها كانت أملك لنفوسهم مما تعودوه من الطمع والفخر ، لذلك اختلفت آثارهم عن آثار أشباههم من الأقوام التى استمر هاديها فى فتوحاتها النهب والفخر .

موجة تحمل رسالة الهدى والعدالة

فقد أقام العرب دولة امتدت من فرنسا الى الهند والصين ، وعربوا الأقوام وأدمجوها فيهم ، وهدوها بهديهم ، فكان وفاؤهم للعهد واحترامهم للشرع وتحقيقهم معنى العدل مضرب أمثال الأمم ، وموضع عجب للمؤرخين والمحققين . لذلك لم يكره هؤلاء البدو أحدا على تغيير دينه ، ولم يعاملوا الناس فرادى وجماعات الا بقانون تواضعوا عليه مستمدا من نصوص الشريعة التى حملوا رسالتها ، أو من روحها . وقد لقنوا ذلك من دخل فى دينهم من الأقوام المتبدية كالأتراك والبربر ، فصار هؤلاء كذلك مثلا للخضوع للشرع وللوفاء بالعهود والتسامح بما لقنوا من الأدب المحمدى ، صادقين فى احترام أوامر دينهم متسامحين مع أهل الأديان الأخرى . بل يمكن القول بحق : انه فيما نعلم من تاريخ الأقوام والدعوات ، لا توجد دعوة صحبتها العدالة وسعة الصدر والعفو والتسامح فى عنفوانها وضعفها كالدعوة المحمدية ، سواء أكان العرب أم الترك هم الحاملين اياها .

موجة فذة فى التاريخ

لقد غلبت النفوس الجامحة ، وهذبت الأمم القاسية ، وبقيت كلمة الله هى العليا ، وأمره هو المطاع ، وهو الذى يقول لحملة الرسالة عربا وعجما « وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم ؟ فان أسلموا فقد اهتدوا وان تولوا فانما عليك البلاغ » .

فى ساحة المسيحية

كانت المسيحية هى الديانة الغالبة فى دولة الروم من جبال طورس الى جبال الأطلس ، أى فى الساحة التى تشمل اليوم سورية ومصر وطرابلس الغرب وتونس ، وكانت هذه الأقطار من أول ما حرر العرب فى الدفعة الأولى أيام خلفائهم الراشدين ، وأيام أن كان الحماس للدين الجديد فى أوج حرارته .

وكان النصارى فى الأقطار المفتوحة من مختلف الشعوب واللغات ، فمنهم العرب ، ومنهم غير العرب . فماذا كان حكم الفاتحين فى المغلوبين ؟ ذلك ما ندع الكلام فيه للسير (توماس أرنولد) ذلك المؤرخ والعالم الكبير المختص فى هذا الموضوع .

شهادة السير توماس أرنولد

يقول السير توماس فى كتابه (انتشار الاسلام) : « حقا ان الكنيسة المسيحية قويت وتقدمت فى رعاية المسلمين وحكمهم ، فلم يحل الحكم

الاسلامى بينها وبين الانتعاش والرقى ، بل ان النساطرة لم تتفجر فيهم الحمية والحماسة الدينية الا بعد أن دخلوا فى حكم الاسلام بما لا عهد لهم به من قبل ، فنشروا المسيحية تحت راية الاسلام ، وبلغوا بدعوتهم الصين والهند تحت حماية الخلفاء . واذا لم يكن لغير النساطرة من أهل النصرانية ما لهؤلاء من النشاط والهمة فى نشر دعوتهم الدينية ، فليس هذا ذنب المسلمين ، ولا ذنب حكامهم : فقد كانت جميع المذاهب المسيحية تتمتع بالرعاية والتسامح من الحكام المسلمين على حد سواء . بل كان هؤلاء الحكام هم الذين يمنعون اضطهاد بعض المسيحيين لبعض ، ويكفلون الحرية الدينية للجميع » ، وقد عدد السير توماس حوادث النكاية بين المذاهب المسيحية ، وبين كيف كان الحكام المسلمون يتدخلون لاقامة العدل ، وانصاف المظلوم من غير تحيز وبمنتهى التسامح ، مما لا محل للاطالة فيه الآن ، ويمكن الرجوع اليه فى صحيفة ٦٠ وغيرها من كتابه السالف الذكر .

انتشار المسيحية فى ظلال الاسلام

تحاكم المسيحيين الى عدالة المسلمين

فرض مرفوض

كذلك بين أن ما يعرفه من التسامح والاحسان الذى امتد ظله على الرعايا المسيحيين فى العصر الأول ، وما ساقه من الأمثلة والوقائع ، لا يسمح بما يفترضه كثير من الناس ظنا ، وهو أن الأمم المسيحية دخلت فى الاسلام قهرا أو بحد السيف ، فذلك لا شك باطل ولا مبرر له ، وعلينا أن نبحث عن أسباب أخرى لتفسير اسلام المسيحيين .

الوزراء والولاة المسيحيون فى دولة الاسلام

ويقول السير توماس « تحت نظام من الأمن يكفل حرية الحياة والملك والعقيدة الدينية ، تمتع المسيحيون ، وعلى الأخص فى المدن ، بثروات ونجاح كبير فى عصور الاسلام الأولى ، فكان منهم أرباب النفوذ الواسع فى قصور الخلفاء » .وقد ساق على ذلك شواهد كثيرة ، من أطرفها أن أخوين مسيحيين (سلماوه وابراهيم) وليا للخليفة العباسى المعتصم مناصب الوزارة ، ومنها بيت مال المسلمين ، ولما مرض ابراهيم عاده الخليفة بينه ، فلما مات حزن عليه حزنا شديدا ، وأمر بجثته فجىء بها الى القصر وجرت المراسيم المسيحية والصلوات عليها فى قصر الخلافة الذى شيعت منه الجنازة ! وذكر توماس من بين من ذكر من الوزراء المسيحيين ،

مراسم المسيحية فى قصر الخلافة الاسلامية !

(نصر بن هارون) الذى تولى رياسة الوزارة لعضد الدولة بن بويه ، وبنى عددا كبيرا من الكنائس والمعابد .

الكنائس تشاد في رعاية الاسلام

وقد عدد كذلك أمثلة للتسامح فى الكنائس التى أمر ببنائها الخلفاء ، وأنفقوا عليها فى شمال الجزيرة والعراق والشام ، ولا يزال بعضها قائما الى اليوم ككنيسة (أبو سرجة) فى مصر العتيقة مما بنى فى العهد الأول الاسلامى بالفسطاط . وليس أدل على سعة الصدر من أن والى الأمويين فى العراق وفارس (خالدا القسرى) بنى لأمه المسيحية كنيسة لتتعبد فيها فى العهد الأول للدعوة وأيام صولة الفتوحات والحروب بين المسلمين والروم المسيحيين . ويمكن للذين يريدون تفصيلا أوسع فى هذا الشأن أن يرجعوا الى كتاب السير توماس وما يشير اليه من المراجع الأجنبية والاسلامية .

العرب المسيحيون يحاربون مع اخوانهم المسلمين

لقد كان بين العرب المسلمين وأولاد عمومتهم العرب المسيحيين من الاخاء والتسامح فى عهد الفتوحات الأولى ، ما جعل نصارى العرب يقاتلون فى الصفوف الاسلامية انتصارا لعروبتهم واستجابة لعدالة أبناء عمومتهم . والتاريخ الاسلامى مستفيض بحوادث الأفراد والجماعات المسيحية فى العراق والشام ومصر ، التى احتفظت بدينها وساهمت فى بناء الامبراطورية العربية بجهدها ودمها .

بطولة عربى نصرانى فى واقعة البويب

ففى واقعة الجسر ، لما زلزل جيش (المثنى) وحصر بين الفرات والجيش الفارسى ، كان نصارى بنى طى خير أعوان اخوانهم العرب المسلمين ، فحمل زعيمهم حملة صادقة وحمى المعبر للمسلمين . ولما عاد (المثنى) واستنجد الناس لمحو عار هزيمة الجسر كان بنو النمير المسيحيون من خير من أنجده . ففى واقعة البويب قاتل نصارى العرب جنبا لجنب مع مسلمى العرب ، وكان فخر اليوم لنصرانى من بنى تغلب لحق بالمعركة أثناء اشتدادها ، وقطع رأس زعيم الفرس وسلبه جواده وفاز بالغنيمة وركض راجعا بين صفوف المسلمين يفخر بنسبه وأنه من نصارى تغلب ، والمسلمون يهتفون له ويحيون نجدته .

ولقد بقيت (تغلب) على نصرانيتها ، وهى التى أبت الجزية وطلبت أن تدفع الصدقة أسوة بالمسلمين ، فأمر عمر رضى الله عنه لها بذلك قائلا « لا تذلوا العرب . خذوا من بنى تغلب الصدقة » .

وقد بين السير توماس أرنولد فى كتابه سالف الذكر جملة أسباب لترك المسيحيين دينهم فى العصور والأوطان المختلفة ، وسرد الحوادث سردا علميا مدعما بالحجة القاطعة . وفى كل زمان ومكان تتكرر مفخرة المسلمين التى لا يدانيهم فيها أحد ، وهى التسامح وسعة الصدر والانصاف للمخالفين فى العقيدة .

لم يكن السيف من أسباب دخول المسيحيين فى الاسلام

وسواء أكان المسيحيون الذين تركوا دينهم قد فعلوا ذلك اعجابا بالدين الجديد وبأصحابه ، أم بغضا لما هم فيه من فرقة ، أم يأسا من الاصلاح ، أم فرارا من أذى بعضهم لبعض ، أم اهمالا من قساوستهم ومرشديهم ، أم طمعا فى دنيا ، أم هدى من الله ، فان هذه الأسباب المتنوعة والتى يشير اليها المؤرخون من أهل الملل الأخرى فى تعليل اسلام المسيحيين ، أدلة على بعد السيف عن ميدان العقيدة المحمدية .

وقائع اضطهاد هى استثناء يثبت القاعدة

نعم لقد وقعت فى التاريخ الاسلامى بعض حوادث لا تخلو من اضطهاد المسيحيين ، وأكثر ما يشار اليه من هذه الحوادث فى أيام المتوكل العباسى والحاكم بأمر الله الفاطمى ، وبعض المماليك . والأول كان شديدا على المسلمين أنفسهم ، قاسيا على المتشيعة والمعتزلة من الفرق الاسلامية والثانى كان بالعكس فاطميا قاسيا على المسلمين من غير الشيعة . فاذا أصابوا لضيق صدرهم النصارى ، فلهؤلاء فيما أصاب المسلمين عزاء وأسوة . ومع ذلك فنفس هذا الاضطهاد هو الاستثناء الذى يثبت القاعدة ووقوع حوادث منعزلة قليلة فى تاريخ أكثر من ألف سنة ، هو الدليل القاطع على تسامح منقطع النظير وتاريخ ناصع مشرف فى سجل الأقوام والأديان .

السياسة والحسد الاجتماعى لا الدين

وأكثر حوات الأذى التى أصابت بعض المسيحين فى أزمنة متباعدة ، أثارتها نازعة حسد لما كان يتمتع به النصارى من ثراء كبير ونفوذ قيل انهم أساءوا به ، أو نازعة خوف ، فقد كان النصارى فى بعض العهود ضالعين مع اخوانهم فى الدين وراء الحدود الاسلامية ومتجسسين متربصين ، فأصابهم بعض الأمراء ، أو سلط عليهم العامة تخلصا من أذاهم . وفى تاريخ مصر والشام والدولة العثمانية والأندلس حوادث

متفرقة يمكن تتبعها وردها الى السياسة لا الى العاطفة الدينية ، أو رغبة المسلمين فى اكراه غيرهم على الدخول فى دينهم . ومن مفاخر المسلمين المتفق عليها أن تاريخهم خلو من القوانين الباطشة الجائرة التى حرمت العقيدة الاسلامية فى أسبانيا أيام فردناند وازابيلا ، وحرمت البروتستانتية فى فرنسا على عهد لويس الرابع عشر ، وحرمت دخول اليهود فى انجلترا اربعة قرون .

برهان قاطع على تسامح المسلمين

ويقول السير توماس « ان بقاء الكنائس والمذاهب المسيحية معزولة فى الشرق الاسلامى تلك القرون الطويلة ، هو البرهان القاطع على تسامح الدول الاسلامية تسامحا عاما »

لقاء ودى دائم فى بلاد الاسلام بينه وبين المسيحية

لم يكن السيف اذا وسيلة الاسلام الى القلوب المغلقة كما كان السيف والاضطهاد وسيلة لانقاذ أرواح المسلمين واليهود وحتى المخالفين فى المذاهب المسيحية .. وكيف يكون ذلك فى قوم عاهد نبيهم القبائل المسيحية ووفى لها وكفل حرية ملكها وعقيدتها وأمن رهبانها وقساوستها ؟! وقد قال القرآن الكريم فيهم « ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا انا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون » .

التعصب الدينى بضاعة غربية

على هذا الأساس الصالح ترك الناس لضمائرهم ولهداية الله ، فنشأت واستمرت علاقة أهل الشرق بعضهم ببعض ، وستنمو على هذه القواعد ، وتبقى مثلا للذين أساءوا الى الاسلام والمسيحية من متعصبة الغرب لضيق صدورهم وعدم انصافهم ويحق لنا نحن الشرقيين مسلمين ومسيحيين أن نعتز ونفخر بهذه السيرة المحمدية وأن نطالب الأقوام المتناحرة أن تهتدى بهدينا وتستنير برشدنا .

إسلام الصليبيين

دور من الصراع بين المسلمين والمسيحيين — تاج العرب والترك من بعدهم — اسلام طوائف من الصليبيين — فى الحرب الصليبية الاولى — فى الحرب الثانية — رواية راهب صليبى عن اسلام ثلاثة آلاف — القسوة الغادرة بالاخاء — الرحمة المشفقة للأعداء — رحمة أشد قسوة من الخيانة ! — احتكاك افاد الصليبيين — تبادل الأسوة الحسنة — تأثير الاعجاب بصلاح الدين — أمراء كثيرون يسلمون — صليبيون يقاتلون فى صفوف المسلمين — فرح نصارى الشرق بزوال حكم الصليبيين — شواهد اخرى من الشرق البعيد فى العهد الأموى — سلوك كريم فى كل مكان وزمان — أساس قرآنى لم يختلف باختلاف العصور — هل من نهضة للحق والحرية يقوم بها المسلمون والمسيحيون فى الشرق ؟

دور من الصراع بين المسلمين والمسيحيين

تغلبت دعوة التوحيد على كل ماعداها ، ودارت ، بهذا البحر الأبيض المتوسط حتى عبرت جبال البرانس الى فرنسا ، فعربت شبه الجزيرة الايبرية ، ثم هزمت بيزنطة ، ولفت بالجناح الشرقى حتى وصلت الى شواطىء الأدرياتيك ، فغلبت لغة الأتراك وأدبهم فى جنوب أوربا الشرقى كما غلبت من قبل لغة العرب وعرفهم فى جنوبها الغربى ، وحظى من حمل لواء هذه الدعوة من القبائل العربية والتركية ممن أخلصوا لها ، بجزاء من الله منقطع النظير ! بسطة الملك ودوامه ، واقبال الدنيا حتى اندمج فى هيئتهم ولغتهم وعنصرهم من الأقوام من هم أعرق منهم فى العمران والملك وقد سبق للعرب وسبق للترك أن فتحوا ممالك ، وأقاموا دولا من قبل أن يعرفوا محمدا ويهتدوا بهديه ، فما عظم لهم شأن ولا بقى لهم ذكر محمود ، ولكن هاتين الأمتين المعروفتين بالقدرة على الغزو والقهر والموصوفتين بالتوحش فى التاريخ القديم ، هذبتهما الرسالة المحمدية فمشوا الى الأقوام المتحضرة والبادية ، يهديهم شرع واضح فى كتاب كريم وأدب عال قوامه الفضيلة ، ونظام أساسه العدل ، ودعامته خشية الله فى عباده ، فسحروا المتقدمين والمتأخرين ، ومازال الناس من الأقوام المنتصرة

تاج العرب والترك من بعد

الأوربية والأسيوية والافريقية يتمثلون بمثلهما ، حتى دخلوا أفواجا فى دعوتهم من غير قهر ولا أذى .

اسلام طوائف من الصليبيين

دخلت الأمم المسيحية مستجيبة لدعوة العرب والترك طواعية واختيارا للجانب الأعز بالحق والمثل الأعلى فى الأدب والفضيلة . ولعل من أظهر الأدلة على ذلك وأعجبها ، اسلام طوائف من الصليبيين الذين حشدوا من كل جنس وجيل ، وجاءوا المشرق تغلى صدورهم بالبغضاء ، وتقطر من ايديهم الدماء ، حتى ذبحوا نفس النصارى فى طريقهم ممن لم ينشط لدعوتهم ، أو ممن خالف رأيهم ، أو كان على غير مذهبهم فى المسيحية . هؤلاء العتاة القساة ما لبثوا أن اقتبسوا أدب أعدائهم ، فاتسعت صدورهم وتهذب تعصبهم ، وتعلموا ممن يبغضونهم التسامح ، فصار القادم عليهم مددا من الغرب ينكر ما يجدهم فيه من أدب سما على البغضاء والحقد .

فى الحرب الصليبية الاولى

بل ان كثيرا من زعماء الصليبيين وكثيرا من عامتهم الذين قطعوا الأرض لقطع رقاب المسلمين ، ارتموا فى أحضان الدعوة التى غامروا كل مغامراتهم للقضاء عليها منذ أول تعارف ، ذلك هو أعجب آثار التسامح :

فى الحرب الثانية

فقد أسلم فى الحرب الصليبية الأولى ممن أسلم (رينوه) أمير طوائف الجرمان واللمبارديين ، وأسلم معه خلق كثير منهم ،وأسلم فى الحرب الصليبية الثانية ، كما يروى السير توماس عن راهب من رهبان سنت دينس كان قسيسا فى المعبد الخصوصى للملك لويس السابع ، ورافقه فى هذه الغزوة طائفة كبيرة . واليكم ما يقوله الراهب فى عبارة شائقة :

رواية راهب عن اسلام ثلاثة آلاف صليبى

« فى طريق الصليبيين الى المقدس ، عبر جبال الأناضول ، التقوا بجيش المسلمين ، فهزم الصليبيون شر هزيمة ، وكان ذلك فى الممر الجبلى « فريجيا » وذلك سنة ١١٤٨ ، ولم يصلوا الى مرسى « أضاليا » الا بشق الأنفس ومنها استطاع القادرون بعد تلبية طلبات التجار اليونانيين الباهظة أن يرحلوا الى أنطاكية بحرا ، وقد دفعوا مبالغ طائلة ، وتركوا خلفهم الجرحى والمرضى والحجاج ، فدفع كذلك لويس خمسمائة مارك لليونانيين على أن يعنوا بهؤلاء الضعفاء حتى يشفوا . وعلى أن يرافقهم حرس

اليونانيين حتى يلحقوا بمن سبقهم ، فما كان من اليونان الغادرين الا أن تربصوا حتى تباعد جيش الصليبيين ، واتصلوا بالمسلمين الأتراك وأخبروهم بما عليه الحجاج والجرحى ، ممن تخلفوا من الوهن والعجز ، ثم قعدوا ينظرون الى اخوانهم فى الدين ينال منهم البؤس والمرض وسهام المسلمين . ولما ضاق الصليبيون المتخلفون ذرعا بما أصابهم ، خرج ثلاثة آلاف أو أربعة من قلعتهم محاولين النجاة بأنفسهم ، فحصرهم المسلمون وشدوا عليهم ، ثم حملوا على المعسكرات الصليبية ، وكان حال من خرج ومن بقى فى المعسكر ليس فيه أقل رجاء ، ولم ينقذوا الا بما نزل فى قلوب المسلمين من الرحمة ، حين أطلعوا على ما فيه عدوهم من بأساء ، وما أصابهم من ضراء . رقت قلوبهم وذابت نفوسهم رحمة لأعدائهم الصليبيين المساكين ، فواسوا المريض وأحسنوا للفقير ، وأطعموا المسكين بسخاء وكرم . وبلغ من احسانهم أن بعضهم استرد بالشراء أو الحيلة أو القهر النقود الفرنساوية التى أخذها اليونان من الحجاج ، وردها عليهم ، ووزعها على المحتاجين من الصليبيين . وقد كان الفرق واضحا بين معاملة هؤلاء الكفار ـ يقصد المسلمين ـ للحجاج المسيحيين ، ومعاملة اليونان الذين سخروا اخوانهم فى الدين ، ونهبوا أموالهم وضربوهم . كان الفرق عظيما لدرجة حملت الصليبيين على اعتناق دين الأعداء المنقذين ، ومن غير أن يكرهوا أو يقهروا . لقد فروا من اخوانهم فى الدين الذين أساءوا اليهم ، فلحق ثلاثة آلاف بالجيش الاسلامى بعد أن رجع عنهم ودخلوا فى دينه . لقد كانت الرحمة أشد قسوة من الخيانة ! لقد أعطاهم المسلمون الخبز وسلبوهم الايمان ، واحسرتاه ! لقد ارتدوا عن المسيحية من غير أن يجبر واحد منهم على ترك دينه » .

القسوة الغادرة بالاخاء

الرحمة المنقذة للأعداء

رحمة أشد قسوة من الخيانة

ذلك ما يقوله الراهب ويقول السير توماس « لقد كان اختلاط النصارى الصليبيين بالمسلمين ينمو على ممر الأيام ، وينمو معه الاحترام والتقدير بمزايا عدوهم وفضائله ، وتزايد تقليد الفرنجة النازلين فى فلسطين للمسلمين تزايدا كان له أثر واضح على أفكارهم الدينية . وأظهر هذه الآثار ذلك التسامح الدينى الذى أخذ يتصف به كثير من فرسان الصليبيين وأمرائهم ، وذلك الصدر الرحب الذى أخذوا يتلقون به التعاليم

احتكاك أدى الصليبيين

المحمدية ، حتى ان الأمير السورى (ابن منقذ) لما زار بيت المقدس أثناء بعض الهدنات كان أمير الصليبيين على المسجد الأقصى يأذن له باقامة الصلاة فى المعبد ، فعجب الصليبيون الجدد لهذه الحالة العقلية ، واحتجوا عليها ، ولكن الصليبيين الذين أثر فيهم جوار الشرق كرهوا أن يتدخل أحد فى حرية ضيفهم الدينية ، ولم يردهم عن هذا التسامح الذى تعلموه فى الشرق حرج الكنيسة وغضبها فى الغرب » . ثم قال : « لقد اجتذبت الدعوة المحمدية الى أحضانها من الصليبيين عددا مذكورا ، حتى فى العهد الأول ، أى القرن الثانى عشر ، مما يلفت نظر من يطلع على سجلات الصليبيين .

تبادل الاسوة الحسنة

ولقد بلغ تأثير الاعجاب بشجاعة صلاح الدين وفضائله فى الصليبيين أن كثيرا من أمرائهم وعامتهم المعجبين به ذهب بهم هذا الاعجاب الى ترك دينهم وأهلهم والدخول فى الاسلام .

تأثير الاعجاب بصلاح الدين

مثل ذلك ما فعل الزعيم الانجليزى (روبرت سنت أليان) وكان ذلك قبل انتصار صلاح الدين فى معركة حطين الفاصلة التى وقع فيها ملك القدس (جاى) أسيرا . ويقول بعض مؤرخى النصارى : ان ستة من أمراء هذا الملك استولى عليهم الشيطان ليلة المعركة فأسلموا وانضموا الى صفوف الأعداء دون أن يقهروا من أحد على ذلك . وقد وصل الأمر (بريمون الثالث) أمير طرابلس الشام أن اتفق مع صلاح الدين على أن يدعو قومه الى الاسلام .

امراء كثيرون يسلمون

وحتى بعد صلاح الدين ، لما قام الصليبيون بحربهم الثالثة انتقاما لسقوط بيت المقدس ، وحاصروا عكا ، وأصابتهم البأساء ، وعضهم الجوع فر كثير الى صفوف المسلمين ، فمنهم من آمن ، ومنهم من رجع الى قومه ومنهم من استمر على نصرانيته ، واختار البقاء وأن يقاتل فى صفوف المسلمين . وفى هذا المعنى يقول السير (جون ماندفيل) أحد المعاصرين للصليبيين « كان بعض المسيحيين يرتدون عن دينهم ويصيرون عربا ، لفقرهم أو غباوتهم أو شقاوتهم » . ولا ينتظر بالطبع من صليبى كالسيرجون أن يفسر ما يسميه المسلمون بالهداية الا بالغباوة والشقاوة .

صليبيون يقاتلون فى صفوف المسلمين

والذى يعنينا من الأمر أن الفقراء والأغبياء والضالين الذين ذكرهم السير ماندفيل ، دخلوا فى الاسلام الذى جاءوا لمحوه ، مختارين ، واجتذبوا اليـه بالدعوة والارشاد ، لا القهر والاضطهاد . بل ان بعض المؤرخين المسيحيين المعاصرين للفتح الاسلامى واسترداد بيت المقدس ، وبعد ذلك بكثير بعد انهيار دول الفرنجة فى الشام كلها ، يشيرون الى فرح النصارى بالتحرر من حكم الصليبيين . ويقول السير توماس فى هذا المعنى « لقد سكنوا الى الحكم الاسلامى وادعين مستبشرين ، كما استمر الحكام المسلمون على عادتهم القديمة من التسامح وسعة الصـدر لأهل الملل الأخرى » .

فرح نصارى الشرق بزوال حكم الصليبيين

واذا كان ماذكرنا هو بعض الشواهد على انتشار الدعوة المحمدية بالحجة بين أشد خصومها المحاربين ، وفى أحلك أيام الدولة الاسلامية : أيام غارات الصليبيين والتتر ، فان لنا شاهدا آخر من بطريق خراسان فى أعز أيام الدولة الأموية العربية ، تختتم به هذا الفصل . يقول البطريق (يوساب الثالث) اليعقوبى فى خطاب طويل بعث به لحبر زميل « أين أبناؤك أيها الأب ! أين هذا الشعب العظيم شعب مرو ! لم تصبهم جائحة ولا سقطوا للسيف ، ولا عذبوا بنا
عن دينهم ، وقذفوا بأنفسهم كما يقذ
فلم ينج من هذا السعير الا قسيسان اثن
ـــ أى الاسلام ـــ واحسرتاه على الآلاف المؤلفه الذين حملوا اســم المسيحية وصفتها ، ولم يقع منهم شهيدا واحد ولاضحى واحد منهم لدينه !!

شواهد أخرى من الشرق البعيد فى العهد الاموى

أين كذلك بيع كرمان وكنائس فارس ! لم يكن قدوم شيطان ولا ملك ولا أمير ، ولا أمر خليفة أو سلطان هو الذى قضى عليها . لم يكن ساحرا موهوبا أوتى المنطق وسلطة الشيطان على النفوس ، ولكنه ساحر هز رأسه فقط فخرت كنائس فارس كلها على الأرض !

أما العرب الذين آتاهم الله ملك الدنيا كما تعلم ـــ فانهم عندك كذلك ـــ فلم يطعنوا فى ديننا ولا اعتدوا على بيعنا ، بل بالعكس ضالعوا مع ديننا وفضلوه على غيره ، وأكرموا رهباننا وقساوستنا ، واحترموا أولياءنا ،

سلوك كريم فى كل مكان وزمان

وأحسنوا الهبات الى معابدنا . فلماذا اذا هجر أهل مرو نصرانيتهم زلفى لهؤلاء العرب ، وهم يعلمون ويقولون ان العرب ما طلبوا منهم تغيير دينهم بل أقروهم عليه كاملا ، ولم يسألوهم الا ضريبة بسيطة يؤدونها عن أنفسهم ، ولكنهم اشتروا خلود أرواحهم فى دين المسيح بمتاع قليل ؟! »

أساس قرآنى لم يختلف باختلاف العصور

هل هناك بيان أوضح من هذا البيان عن نفاذ الدعوة المحمدية بالحجة والتسامح الى قلوب المسيحيين ؟ لقد سقنا لك الشواهد من المشرق والمغرب فى القرن الأول ، وفى القرن السابع ، فى المحاربين والمهادنين ، لقد اختلف كل شيء ، اختلفت الأمم والقرون والظروف ، ولم يختلف الحق الذى ساير هذه الدعوة منذ ظهورها ، والذى وضع أصله القرآن فى قوله تعالى : « لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » .

هل من نهضة للحق والحرية يقوم بها المسلمون والمسيحيون فى الشرق ؟ !

وحق لنا نحن سلالة الأقوام العادلة المنصفة الحليمة الرحيمة فى المشرق مسلمين ومسيحيين ، أن نطمع فى نهضة جديدة نكون فيها مثلا ودعاة لحرية العقيدة وحرية الرأى فى عالم ضاق صدره بالمخالفين فى الرأى . لقد كان آباؤنا حماة هذه الحرية ومثلها العليا ، فلنكن نحن ورثة هذا الصبر عليها ، وحملة رايتها فى أمة ناشئة ودولة جديدة .

إسلام الأوربيين

تاريخ مشرف لنــا وتاريخ غير مشرف لغيرنا ــ مزاج قاس وصدر ضيق ــ مفارقات بين البدو المسلمين والحضر المسيحيين ــ المسيح البرىء من روح التعصب الأوربى ــ النزعات البشرية بين اطلاق المسيحية وتقييد الاسلام ــ أثر تركيز الدين فى النظام الكهنوتى ــ الحرية فى فهم القرآن لدى جميع المسلمين ــ والقيود فى فهم الانجيل لدى المسيحيين ــ الحلال والحرام كلاهما بين فى الاسلام لدى الخاصة والعــــامة ــ أدب القرآن مع المخالفين ــ بساطة الدخول فى الاسلام تعصم الدماء والاموال ــ من تاريخ تعصب المسيحيين فى اسبانيا ــ اضطهاد اليهود والعبيد فى اسبانيا ــ فرار المضطهدين الى الاسلام برغبة ــ أثر تسامح الفاتحين وعدم ترفعهم عن المخالطــــة ــ استعراب واندماج ــ نصارى يتلون القرآن ــ دخول فى الاسلام حتى فى وقت سقوط دولته ــ هزيمة العرب فى فرنسا سببت تأخر وصول الحضارة الى أوروبا ثمانيــة قرون ــ بين وطأة المسيحيين فى الغرب ورحمة المسلمين فى الشرق ــ سلطات وامتيازات لبطارقة المسيحيين فى دولة الاتراك ــ العمى عن الأسوة الحســـنة ! ــ هو المزاج الغربى الدموى دائما ! ــ أمل فى رحمة الله !

تاريخ مشرف لنا وتاريخ غير مشرف لغيرنا

يصحب نشر الدعوة المحمدية فى أوربا الشرقية وأوربا الغربية تاريخ جدير بالذكر الحسن ، وحقيق بفخر المسلمين ، كما يصحبه ، مع الأسف من الناحية الأخرى ، حوادث لا حصر لها من أمثلة الســـوء الدالة على ضيق صدور كثير من الأوربيين ، وعلى التجائهم فى سبيل تأييد آرائهم الدينية الى أردأ الوسائل وأنكر الأعمال !

مزاج قاس وصدر ضيق

ومع أن الذين رفعوا راية الاسلام فى الغرب من ناحية أسبانيــــا وفرنسا وايطاليا ، كانوا من العرب والبربر ، والذين رفعوها فى شرق أوربا كانوا غالبا من الترك والتتر ، وهم أقوام اشتهرت كلها بالبأس والشدة ، فان تاريخهم من ناحية نشرهم الدعوة المحمدية ، وتسامحهم الدينى ، هو أظهر ما فى صفحات مجدهم وأحقها بالفخار . وذلك على عكس الأقوام الأوربية ، فقد كان ينتظم برها وفاجرها فى سلسلة الفظائع الدموية التى

اقترنت بمقاومة الدعوة المحمدية والقضاء عليها فى أوربا الغربية والشرقية فى مدى مئات السنين .

ومما يصعب أن نجد له تفسيرا أن القسوة التى كانت وسيلة الأوربيين فى القضاء على حضارة المسلمين ودينهم فى أسبانيا وفرنسا وايطاليا أو فى شرق أوربا ، لم تتخلف عن الظهور بأشنع مظاهرها حتى ضد النصارى أنفسهم كلما وقع نزاع حاد على رأى فى الدين ، أو الدعوة من الدعوات المسيحية أو ضد اليهود .

وليست الأقوام الأوربية كلها جنسا واحدا ، ولا من بيئة واحدة ، ولا طبيعة واحدة ، فبينها من الخلاف فى الجنس واللغة والطبائع ما بين أمم الشرق ، فماذا وحد اذن وسائلها ، وجعل الفتك والغيلة والغدر والظلم من أظهر هذه الوسائل لاعلاء دين على دين ؟

مفارقات بين البدو المسلمين والحضر المسيحيين

وماذا جعل أقواما بادية كالعرب ، وأقواما صناعتها القتال كالترك والتتر والبربر ، تختار لنشر دينها الحجة والقدرة ، فلا نجد فى تاريخ طويل شمل المشرق والمغرب أكثر من ألف سنة حوادث دموية تشبه عن قرب أو بعد ، تلك الفظائع الساحقة التى تكرر على ممر الزمن ، على أيدى الأوربيين فى أنفسهم ، أو مع أهل الملل الأخرى ؟ !

المسيح البرىء من روح التعصب الغربى

لا نجد لذلك تفسيرا يجزم به ، فالسيد المسيح ، عليه السلام ، هو ضحية العنف (١) ، ومن خير من دعا الى المعروف والسلام ، ودعوته تحرم الحرب والقتل تحريما قاطعا ، فليس دين المسيح هو الذى بث روح التعصب المقوت ، ولا هو الذى حول مزاج الغربيين الى مزاج سفاح ...

النزعات البشرية القاسية بين اطلاق المسيحية وتقييد الاسلام

أما الدين الاسلامى فقد أباح القتال ، وظهرت دعوته فى العالم مصحوبة بتلك الفتوحات التى لم تقف فى وجهها شاهقات الهملايا ، ولا شاهقات الأطلس والبرانس والبلقان ، فلماذا كان أصحابه أكثر الناس تسامحا مع رعاياهم من أهل الأديان ، وأوسعهم صدرا للملل والنحل ؟ !

(١) فى رأى النصارى أنفسهم .

لعل السبب بينهما ناشىء من اختلاف النظم الدينية ، فان للمسيحيين نظاما اكليريا ، أو بعبارة أخرى كهنوتيا جعل عليهم قواما من طوائف رجال الدين .

أثر تركيز الدين في النظام الكهنوتي

وكذلك لم تكن المسيحية واضحة في شئون الدنيا ، فتسلطت النزعة البشرية . أما الاسلام فحرم هذه القوامة ، ولم يسمح بصلة بين العبد وربه غير صلة الضمير ، وكانت أوامره ونواهيه في شئون الدنيا جلية . فلعل سيطرة العنصر البشرى على العقيدة هى التى أخرجت هذا الفرق الهائل في مزاج الأقوام الدينى الذى نشهد مظاهره طول الدهر وفى كل مكان .

الحرية في فهم القرآن لدى المسلمين والقيود في فهم الانجيل لدى المسيحيين

وأيضا كان وضوح الأوامر الدينية عند المسلمين ، مما جعل كلا من الحلال والحرام بينا فى كتاب مبين . فالخاصة والعامة الذين يعلمون ان الله قد حرم عليهم الاكراه فى الدين ، ويعلمون أنه يقول لنبيه « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ! » بل ان الدين الذى حرم على أهله سب الأديان الأخرى لا يدع سبيلا للاضطهاد والظلم . يقول تعالى « ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم كذلك زينا لكل أمة عملهم ثم الى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون . »

الحلال والحرام بين في الاسلام لدى الخاصة والعامة

ادب القرآن مع المخالفين

لعل كذلك من أسباب تكون هذا المزاج المتسامح بساطة العقيدة المحمدية ، فانها تقوم على شهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رسوله ، وأن هاتين الكلمتين تعصم الدماء والأموال . فلما درج الناس على هذه البساطة وتركوا ما وراء ذلك لحساب الله ، تعودوا التسامح وسعة الصدر ، بعضهم مع بعض ، ومع من خالفهم من أهل الملل الأخرى .

بساطة الدخول في الاسلام تعصم الدماء والاموال

قد تكون هذه الأسباب ، وقد يكون غيرها علة الخلاف الجوهرى بين مزاج المسلمين ومزاج الأوربيين الدينى . وليس هذا مقام سرد تاريخ طويل لبيان ما نشير اليه من خلاف ، فهو هين على من أراد أن يتبين الحق ، ولكن قد يحسن سوق بعض الشواهد :

من تاريخ تعصب المسيحيين في اسبانيا

لما دخل العرب الى أسبانيا كان مجمع طليطلة السادس قد قرر أن

يقسم الملوك عند تولى سلطتهم أن لا يطيقـوا فى ملكهم من لا يتمذهب بمذهب الكاثوليك ، وأن ينفذوا القـانون بكل شدة على من يخالف . وكان من ضمن هذه القوانين السجن المؤبد مع مصـادرة الملك لكل من يفكر فى مناقشة أوامر الكنيسة ، وتعاليم الكثلكة . ويقول (بودثين) « كان للاكليروس السـيطرة التامة على شـئون الدولة ، ففضـلا على ما للأساقفـة من رأى نافذ فى جميـع مجالس الحكم ، قد كان لهم حق التصديق على انتخاب الملك وحق خلعه اذا خالف ما يرسمون من قوانين .

اضطهاد اليهود فى اسبانيا

ولقد اتخذ الاكليروس من سلطانه سبيلا لاضطهاد اليهود الذين كانوا عنصرا مهما فى أسبانيا » ويقول (هلفريخ) « ان أوامر وحشية صدرت لتعميد من يأبى الارتداد عن دينه من اليهود ، فلما وصل العرب تلقاهم اليهود بالترحيب الذى يستحقه المنقذون ، وكذلك فرح العبيد المتنصرون لقدوم العرب فرحا شديدا ، فأخذ المضطهدون يدخلون فى دين العرب أفواجا ، بل أخذ النبلاء والعامة يقبلون على الدعوة الجـديدة الحرة ، ويقـول السير توماس أرنولد . « لقد أصبحت الطوائف الكثـيرة التى اعتنقت الدين الاسلامى مختارة ، من أشد أنصاره تحمسا وأظهرها زهدا ، فكانوا يمثلون الطهر والتقشف ، حتى صار الفرق بينها وبين الأرستقراطية العربية التى مالت للترف واضحا » .

فرار المضطهدين الى الاسـلام برغبة

تسامح الفاتحين وعدم ترفعهم عن المخالطـة

ولم يسمع فى أيام الفتح العـربى بأية محاولة من الفـاتحين للاكراه فى الدين ، أو الاضطهاد والظلم لتغيير العقيدة . ولعل السبب الأول فى امتلاكهم السريع لهذا الجزء من غرب أوربا هو سعة الصدر والتسامح الذى كان ديدنهم . كما أن تسامح الحكام بما أباحوا من الحرية الدينيـة للمسيحيين واختلاطهم بهم وتزاوجهم معهم ، أدى الى تعـريب واسـع للعناصر المسيحية ، فاتخذ كثيرون من النصارى أسماء عربية ، وتختنوا كجيرانهم المسلمين . وتسمية المسيحيين الذين فى حكم العرب بكلمـة Muzarabe أى مستعرب ، تشير الى الاتجاه الذى اتجهت اليه جماعتهم

استعراب واندماج

ولقد بلغ من اعجاب النصارى المستعربين بلغة القرآن أن صـاروا يتلونه ويعجبون به ، بل لقد بلغ أثر هذه الدعوة الى رؤساء الكنيسة نفسها ،

نصارى يقرءون القرآن

فتلحقت أفكارهم فى أسبانيا وخارجها بالنظريات الاسلامية . كل ذلك يفسر لنا ما كان للمثل والقدوة مع نشاط الدعوة من الأثر فى خروج المسيحيين عن دينهم ، حتى صارت الأكثرية الكبيرة للاسلام فى زمن قصير .

دخول فى الاسلام حتى فى وقت سقوط دولته

وقد بلغ من أثر القدوة الحسنة والدعوة بالحكمة أن المسيحيين لم ينقطعوا عن الدخول فى الاسلام ، حتى وأهله يرسفون فى المظالم الوحشية ، فيشردون ويقتلون ويهجرون من أوطانهم . ومن أغرب ما روى فى ذلك ما ذكره (سترلنج ماكسويل) عن حوادث ١٤٩٩ ، أى بعد سقوط غرناطة بسبع سنين ، فقد أشار الى مسلمين جدد دخلوا فى الاسلام وهاجروا فى جموع الفارين من السيف والنار » .

هزيمة العرب فى فرنسا سببت تأخر وصول الحضارة الى أوربا ثمانية قرون

وليس المقام مقام تفصيل ، وانما أردنا الاستشهاد لسيرة كريمة معترف بها من جمهور المسيحيين عن حكم العرب فى غرب أوربا ، وما تمتع الناس به من حرية العقيدة ، وما كسبوا من علم وعرفان وحضارة فى ظل الآداب والأوامر والنواهى الاسلامية . ولقد بلغ من اعتراف المنصفين بهذه الحقيقة أن أحد المؤرخين قال عند ذكر واقعة « بواتيه » التى قتل فيها (عبد الرحمن الغافقى) وفازت جيوش (كارل مارتل) على العرب فى غرب فرنسا : « لقد كانت هزيمة العرب سببا فى تأخر وصول الحضارة لأوربا ثمانية قرون ! » .

بين وطأة المسيحيين فى الغرب ورحمة المسلمين فى الشرق

فازت جيوش الهمج من الأوربيين على العرب فى القرن الثامن فأخرت الحضارة ، وفاز الغلاة المتعصبون من الفرنج مرة أخرى فوزا ساحقا فى القرن الخامس عشر ، فقضوا على العرفان والحضارة . وفى الوقت الذى كانت محاكم التفتيش وسيوف الدولة تسوق الى المذبحة أو الى البحر رسل الحضارة فى الغرب ، وتخلى أوطانا بأكملها ، وفى الوقت الذى تسقط فيه غرناطه ويمحى أثر مائتى ألف مسلم بها ، وجلهم من أهل اسبانيا نفسها ومن عنصرها الأصلى ذبحا وطردا وتشريدا ، كانت جيوش الاسلام الظافرة تحت راية أخرى تفتح المماليك الأوربية الشرقية ، فيستظل المسيحيون بظل العدالة الجديدة ، وينعم الناس بحرية الضمير وحرية الأديان .

سقطت بيزنطة مركز العـداوة للمسلمين ، ومبعث العواصف على الأوطان الاسلامية مدة ثماني قرون ، فما استبيحت الحرمات الدينية ، ولا تسـلط الفاتحون على العقائد والأديان ، ولا طرد الناس من أوطانهم وحوسبوا على نياتهم وضمائرهم .

سلطات وامتيازات للمسيحيين فى دولة الاتراك

ولندع الكلام للمؤرخين المسيحيين : فرتنز ، وفنلى ، وبتزيبوس ، ودهسون ، كما لخصه أرنولد : — « كانت أولى الخطوات التى اتخذها (محمد الثانى) بعـد الاستيلاء على القسطنطينية أن طمأن المسيحيين بالتعهد بحماية الكنيسة الأرثوذكسية ، ومنع منعا باتا اضطهاد النصارى ، وصدرت الارادة السنية بأن يكون للبطريق والأساقفة فى النظام الجديد جميع الحقوق والامتيازات التى كانت لهم فى النظام السابق للفتح وأستلم البطريق (جناديوس) من يد السلطان الأداة التى كانت شارة ولايته ، ومعها ألف قطعة من الذهب وحصان مطهم بعدة فاخرة ليركبه فى موكبه فى المدينة . ولم يهب السلطان لرأس الكنيسة المسيحية الامتيازات التى كانت له فى عهد الأمبراطور المسيحى فحسب ، بل مكنه من سلطة مدنية واسعة على الرعايا المسيحيين ، فكان مجلس قضاء البطريرقية هو الذى يفصل فى منازعات المسيحيين ويقضى بالغرامة والحبس والقتل ، وكانت حكومة السلطان تنفذ ما يقضى به مجلس البطريرقية . فكان للبطريرق السلطة المطلقة فى الشئون الروحية ، ولم تتدخل قط فى هـذه الشئون السلطات المدنية الاسلامية ، كما كانت تفعل المسيحية ، قبل الفتح . ولما كان البطريرق معتبرا من كبار رجال الدولة فى نظر السلطان ، ومعترفا به ، فقد كان له أن يتدخل لرفع الظلم الذى يقع من بعض الولاة على النصارى باتصاله مباشرة بالسـلطان ، وكان للأساقفة فى الولايات من الحرمة والسلطة مثل ما للبطريرق فى العاصمة حتى انتهى الأمر الى أن صاروا فى مناطق سلطانهم الدينى كأنهم مأمورو الدولة وولاتها ، فحلوا محل الأرستقراطية البيزنطية التى انفرضت بسقوط دولتها » .

العمى عن الأسوة الحسنة

ذلك ما فعل المسلمون فى المشرق ، وقد سقطت غرناطة للاسبان بعد سقوط القسطنطينية للترك بأربعين سنة ، فهل كان للفرنجة فيما فعـل

المسلمون أسوة ؟ واذا لم يكن لهم فى الماضى الطويل من التسامح المنقطع النظير ، ما يوجههم وجهة الانصاف والرحمة ، فلم لم تكن لهم عظة فيما بين أعينهم من مثل عال ؟ كان ذلك كما قلنا سابقا ، لأسباب عدة أشرنا الى بعضها ، وقد يستطيع غيرنا أن يبين أسبابا أخرى . وهى فى نظرى ليست فى طبيعة الدين المسيحى ، فان سيدنا عيسى ما جاء الا رحمة للعالمين.

هو المزاج الغربى الدموى دائما !!

واذا كانت كل حوادث التاريخ تشير الى أن المزاج الغربى يجنح دائما الى القهر والتدخل فى شئون الغير الروحية والمعنوية تدخلا ينتهى بالمظالم والاسراف فى سفك الدماء ، فليس من الغريب أن نرى فى الحرب الأخيرة والتى قبلها من مظاهر هذا المزاج صورا من الماضى ، وقد حل النزاع الأيديولوجى (الفكرى) فى هذا القرن محل النزاع الدينى فى القرون الوسطى .

أمل فى رحمة الله !

« وبعد » فهل يكتب لسكان الشرق من المسلمين والمسيحيين الذين تتعلق نفوسهم دائما برحمة الله وتترقب هداه اذا اشتدت الكروب والظلمات ، أن ينهضوا مرة أخرى بميراثهم السامى الذى يقوم من عوج النزاع الفكرى والاقتصادى والعنصرى ، ويلطف من حدة المزاج العربى ، حتى يؤمن بالاخوة الانسانية ويعمل لخدمة السلام العام باخلاص نية وحسن توجه ، بما مكن الله له فى الأرض ؟

ذلك ما نسأل الله رب العالمين أن يعجل بتهيئة أسبابه . « ان الله بالناس لرءوف رحيم » .

فهرس الكتاب

صفحة

٢ ـ فى الاصلاح الاجتماعى

صفحة



دار ومطابع الشعب
القاهرة

الاتحاد الاشتراكي العربي
دار ومطابع الشعب